التاريخ الاقتصادي
لحواضر وسط جزيرة العرب قبل النفط

دور الاقتصاد في التحولات الاجتماعية والثقافية

(البكيرية ... أنموذجاً)

تأليف

الدكتور/ عبد العزيز بن علي السديس

قسم الاقتصاد - جامعة الملك سعود



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السديس، عبد العزيز بن علي

التاريخ الاقتصادي لحواضر وسط جزيرة العرب قبل النفط: دور الاقتصاد في التحولات الاجتماعية والثقافية (البكيرية ... أنموذجاً)/ عبد العزيز بن علي السديس - الرياض، ١٤٣٧هـ.

٢٣٨ ص؛ ١٧سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٧-٤٧٨-٠

١- الجزيرة العربية - تاريخ ٢- الجزيرة العربية - الأحوال الاقتصادية - تاريخ، أ. العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٠١ ١٤٣٧/٤٠٦٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٤٠٦٥

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٧-٤٧٨-٠

نشر هذا الكتاب بناء على موافقة عمادة البحث العلمي في جلسته الثانية للعام الدراسي ١٤٣٦/١٤٣٧هـ المعقودة بتاريخ ١٢/٢/١٤٣٧هـ الموافق ٢٤/١١/٢٠١٥م، بعد استيفائه شروط التحكيم العلمي بالجامعة.



(لا يزال المرء في فسحة من عقله ما لم يؤلف كتاباً أو يقول شعراً).

الجاحظ

(لو استقبلت من أمري ما استدبرت وخُيرتُ بين أن أدرس إما النظرية الاقتصادية أو الإحصاء [في المجال الاقتصادي] أو التاريخ الاقتصادي لاخترت التاريخ الاقتصادي دون تردد).

جوزيف. أ. شومبيتر

الشكر والتقدير

لدي تحفظ على العبارة الشهيرة "لا شكر على واجب"، فإن من حسن الخلق الشكر والثناء لمن أدى واجباً. لذا أتقدم بالشكر الجزيل لجامعة الملك سعود ممثلة بعمادة البحث العلمي ومركز البحوث في كلية إدارة الاعمال على الدعم الذي تلقيته لإنجاز هذا الكتاب. وذلك بأن تولى مركز البحوث في الكلية اجراءات التحكيم العلمي للكتاب. واخص بالشكر مركز البحوث بأكمله ممثلاً برئيس المركز سعادة الدكتور/ حمد بن محمد الحوشان على الحرص والمتابعة وسرعة الإنجاز. ولا يفوتني أيضاً أن أسجل شكري الجزيل للأخوة الزملاء في سكرتارية المركز الأستاذ/ طلال العنزي وزميله الأستاذ/ بندر الجريسي على الجهد والمثابرة في متابعة مشروع هذا الكتاب منذ البداية.

كما أخص بالشكر والامتنان أهلي وعشيرتي زملائي أساتذة وطلاب قسم الاقتصاد وعلى رأسهم رئيس القسم أ. د. محمد بن عبد الله الجراح على دعمه وتشجيعه المستمر، ووضع كل امكانات القسم في خدمة جميع منسوبي القسم أساتذة وطلاباً.

والاعتراف بالجميل يعتبر نوع من الشكر والثناء، لذا لا يفوتني هنا أن انوه بجهد الزميل أ. د. احمد بن سليمان بن عبيد على ملاحظاته الجوهرية المبكرة عند اطلاعه على أول مسودات الكتاب، كما اشكر الزميل أ. د. عبد المحمود محمد عبد الرحمن على ملاحظاته الدقيقة القيمة. كما أشكر الأخ الشيخ يوسف بن محمد الشعيبي وذلك لمساهماته القيمة ليس في التصويب اللغوي فقط، ولكن أيضاً بتذكيري ببعض الهفوات الموضوعية والتنظيمية وغيرها. كما أجد نفسي مديناً للأخ العزيز المهندس/ علي بن محمد الشعيبي على ملاحظاته القيمة ومساعداته الفنية واقتراحاته المتنوعة حول الشكل والمضمون والنشر أيضاً.

ولا يفوتني هنا أن اقدم الشكر الجزيل للزميل د. حمد بن عبدالعزيز التويجري والزميل د. احمد بن ناصر الراجحي على المتابعة المستمرة والاستعداد الدائم للمساعدة. والشكر موصول لسعادة د. م. محمد بن ناصر الراجحي وكيل مساعد وزارة الشؤون البلدية والقروية للأراضي والمساحة على ما قام به من جهود شاقة توّجها بتزويدي بالخرائط القديمة والحديثة واستعداده الدائم للمساعدة.

كما لا يفوتني ايضاً أن اقدم شكري وتقديري لمعالي أ. د. ماجد بن عبد الله المنيف الذي لم يبخل بوقته رغم مشاغله الكثيرة والمتنوعة والتي لا يجهلها كل من يعرف معاليه، ومع ذلك فقد تكرم بقراءة مسودة الكتاب، وابدى مشكوراً ملاحظات قيمة وعميقة ساعدت على تلافي كثيراً من أوجه النقص والقصور والخلل وجعلته أكثر ثراءً وتنوعاً.

ورغم كل ذلك لا يساورني أدنى شك في أن الكتاب حافل بمواقع النقص والخلل والتقصير، على الاقل من وجهة نظر بعض القراء. لكن كلّ نقص أو تقصير أو خطأ هي مسئوليتي الشخصية، ولكنني أقول رحم الله "الجاحظ" حيث يقول:

(لا يزال المرء في فسحة من عقله، ما لم يؤلف كتاباً أو يقول شعراً). وما دام الجاحظ وهو من هو، لا يطمع في الكمال فهذا يشعرني بدرجة كبيرة من الراحة لان الكتاب مهما اعتراه من أوجه القصور والخلل فإنه يحوي فوائد كثيرة ومتنوعة.

أخيراً لن انسى زميلي في جمعية الاقتصاد السعودية الاستاذ الطيب بخيت ادريس الذي قام بطباعه وتنسيق ومتابعة مراحل الكتاب من البداية حتى إتمام إجراءات نشره فله مني جزيل الشكر والتقدير.

عبد العزيز بن علي السديس
قسم الاقتصاد – جامعة الملك سعود
aasudais@ksu.edu.sa

التمهيد

من لا يعرف التاريخ قد يُستخدم ضده. وهناك عبارة تترد كثيراً بصيغ مختلفة، وأحياناً تنسب إلى ونستون تشرشل السياسي البريطاني المعروف وهي "من لا يعرف التاريخ لا يفهم الحاضر".

والتاريخ مخزن هائل لا ينضب، مليء بالمعلومات والعبر والدروس. والاقتصاد هو أحد أكبر المؤثرات في الوقائع والتطورات التاريخية، وأحياناً كثيرة يكون الاقتصاد هو المؤثر الوحيد في الأحداث السياسية والعسكرية والتحولات الاجتماعية والثقافية، بل أن هناك من يقول "بالحتمية التاريخية"، أي أن التطورات العسكرية والسياسية والاجتماعية ناجمة عن تطورات اقتصادية.

والتاريخ الاقتصادي يدرس الأنشطة الاقتصادية التي وقعت فعلاً، ولذا تسمى أحياناً بـ (الوقائع الاقتصادية). وإذا كان الاقتصاديون قد اختلفوا حول مادة تاريخ الفكر الاقتصادي وما يجب أن يدخل ضمن هذه المادة وما يمكن استبعاده منها أو إهماله بذرائع مختلفة، فإن موضوع التاريخ الاقتصادي يندر الخلاف عليه إجمالاً. فهو يعنى بتجارب وخبرات المجتمعات في المجال الاقتصادي (أدواتهم وتقنياتهم وأساليبهم وقوانينهم ومواردهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم والتطورات التي تلحق بكل

هذه العناصر). وربما كان هذا هو السبب في كون عبارة "التاريخ الاقتصادي" تأتي غالباً مقيدة بفترة محددة ومنطقة جغرافية محددة.

ويتضح من بعض التعريفات لكبار الكتاب في هذا المجال أن الاختلاف حول ماهية هذه المادة لا يكاد يذكر. وقد أورد إبراهيم كبه بعض التعريفات للمادة. أحدها تعريف شومبيتر الذي يعرف التاريخ الاقتصادي بأنه "تاريخ الخبرات والتجارب الاقتصادية". أما أندريه بييتر فقد عرفه بأنه "الفعاليات والأنشطة الاقتصادية كما حدثت في الواقع". أما تعريف أوسكار لانج بأنه "تاريخ تطور العمليات الاقتصادية الواقعية عبر الزمن".(*) والتعريف الأخير ينسجم مع تصور الاشتراكيين لتطور النظم الاقتصادية.

وفي الحقيقة إن عبارة "التاريخ الاقتصادي" تعتبر مبتورة ما لم تحدد المكان والزمان، لأنها بدون تحديد فإن الموضوع يتسع ليصبح تاريخ الكرة الأرضية أو تاريخ البشرية أو ما يشبه ذلك.

والتاريخ الاقتصادي لإقليم معين أو دولة أو مدينة محددة في فترة محددة يدرس الواقع الاقتصادي (الموارد الاقتصادية، الإنتاج، التوزيع، الأدوات، التقنيات، النظم والقوانين، العلاقات الاقتصادية الخارجية وغيرها).

وتبين دراسات التاريخ الاقتصادي أهم القطاعات الإنتاجية، ودور المدن، وقطاعات الخدمات، ودور النقود، وسوق العمل، وتوزيع الدخل. وتولي الدراسات التاريخية أهمية خاصة لمسألة توزيع الدخل لما لها من أثر عظيم في ضمان استقرار واستمرار ونمو وتطور أو تدهور وفشل وانهيار النظام الاقتصادي وحلول نظام اقتصادي آخر محله.

(*) ابراهيم كبه، ص (٥١).

ودراسة التاريخ الاقتصادي لمجتمع معين في فترة محددة سوف تبين حقائق ووقائع عديدة نافعة بصورة عامة ومفيدة أيضاً في تحفيز دراسات فرعية أخرى على ضوئها في مختلف شؤون المجتمع السياسية والاجتماعية والعسكرية فضلاً عن الاقتصادية.

وتفيد دراسات التاريخ الاقتصادي في المقارنات بين فترة وأخرى لنفس المجتمع والمقارنة مع مجتمعات أخرى لنفس الفترة أو لفترات أخرى، وأخذ الدروس والعبر وتجنب الأخطاء.

ودراسات التاريخ، ونظراً لخلوها من التجريد والافتراضات المثالية والأحكام القيمية، فهي تساعد القائمين على رسم السياسات والخطط الاقتصادية القائمة والمستقبلية، وتساعدهم على الرؤية الموضوعية الواقعية بعيداً عن المبالغات المتفائلة أو المتشائمة.

وتتطلب دراسات التاريخ الاقتصادي كمية هائلة من المعلومات التي قد يكون بعضها موجوداً في سجلات رسمية أو وثائق أو شواهد أو شهود عيان وغيرها. وتزداد صعوبة الحصول على المعلومات كلما كانت الفترة المدروسة بعيدة زمنياً أو طويلة، وكذلك كلما كان المجتمع كبيراً ومتنوعاً سكانياً وجغرافياً وثقافياً واقتصادياً. أما إذا كانت الفترة قريبة والمجتمع أقل تنوعاً وعدداً فإن كثيراً من الحقائق تكون معروفة والشواهد المادية ماثلة وشهود العيان والروايات الشفوية والقرائن القوية متوفرة، كل هذه يمكن أن تغطي وتفسر وتجيب على كثير من الأسئلة التي تواجه الباحث وتعينه على معالجة مختلف التفاصيل.

والتاريخ الاقتصادي لحواضر وسط جزيرة العرب قبل النفط يبين أن هناك اقتصاداً رعوياً واقتصاداً حضرياً (زراعياً)، وبينهما درجة كبيرة جداً من التكامل. فكل منهما يعتمد على الآخر اعتماداً كبيراً. وكل منهما يمكن أن يصنف على أنه "اقتصاد

طبيعي" أي أن النشاط الإنتاجي يهدف الى تحصيل المعاش وسد الحاجات ولا يطمح إلى مراكمة الأرباح وزيادة الثروات ورؤوس الأموال. هذا النمط من الإنتاج في وسط جزيرة العرب يمكن أن يكون في القرن الثالث عشر الهجري مشابهاً لما كان عليه في القرن الثالث الهجري. أي أن الموارد الطبيعية والبشرية ومستوى التقنية، وأهم أدوات الإنتاج كلها لم يطرأ عليها تغيير يذكر خلال مئات السنين إلى فترة ما قبل ظهور النفط الذي أحدث ثورة هائلة في حياة سكان جزيرة العرب وربما تعدى أثر النفط ليصل إلى خارج جزيرة العرب.

ونظراً لأن الاقتصاد الرعوي بسيط جداً ومستقر ومعروف وقد كتب عنه الكثير فقد كان التركيز على المجتمعات الحضرية.

والمجتمعات الحضرية في وسط جزيرة العرب موجودة في أقاليم على شكل بؤر متناثرة. وهذه البؤر تقوم كل منها على منطقة صغيرة صالحة للزراعة. وقد يحدث أن تنمو إحدى تلك البؤر في أحد الاقاليم لأسباب أغلبها خارجية وبعضها قد يكون داخلياً، وتصبح عاصمة للإقليم وتتطور اقتصادياً ويغلب عليه القطاع التجاري والخدمي والنقدي والعلاقات الخارجية.

وفي هذه الحالة يكون اقتصاد تلك البؤرة أو البؤر التي أصبح لها وضع خاص جعل اقتصادها مختلفاً عن سائر البؤر الحضرية في وسط الجزيرة العربية، لذا فقد تم استبعادها من الدراسة لأن كلاً منها يحتاج إلى إفراد دراسة خاصة بها. فمدينة بريدة مثلاً، يحتاج تاريخها الاقتصادي إلى مجلدات لما لها من تاريخ طويل ومتنوع من النواحي الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

أما الأغلبية الساحقة من البؤر الحضرية المتناثرة وسط جزيرة العرب فإن اقتصاداتها متشابهة إلى حد كبير (حجم السوق، الموارد الطبيعة والبشرية، والمناخية،

والتقنيات الإنتاجية المستخدمة)، وإذا وجدت بعض الاختلافات البسيطة في طبيعة الأرض والنباتات والمياه، فإنها لا تحدث فروقاً كبيرة في نمط الإنتاج ولا يستلزم أدوات وأنظمة وقوانين مخالفة لما عليه غالبية البؤر الحضرية الأخرى.

ولذلك فإن اختيار بؤرة واحدة كأنموذج يعتبر مثالاً يصور الواقع الاقتصادي لبقية حواضر وسط جزيرة العرب لفترة ما قبل النفط لعدة عقود، كما يرصد التطورات اللاحقة الناجمة عن ظهور النفط.

والاكتفاء بأنموذج واحد قد يكون له من المزايا أكثر مما يعتقد أن به من عيوب. ومن المزايا تجنب التكرار الناجم عن التشابه الشديد بين مئات البؤر الحضرية، والتشابه هذا (في الموارد الاقتصادية، وطبيعة السكان وعددهم وخصائصهم، والمناخ، والتقنيات وغيرها). ونظراً لاتساع جزيرة العرب فإن تغطية كل بؤرة حضرية بمفردها يعتبر تكراراً قليل الفائدة من ناحية، ومن ناحية أخرى متعب وشاق دون إحداث فرق يذكر في الاستنتاجات أو الفوائد المتوقعة من دراسة مسحية تفصيلية لوحداتٍ. التشابه فيها أكبر كثيراً من التفاوت والاختلاف. لذا فقد تم التركيز على بلدة واحدة لتكون أنموذجاً يمثل بقية البلدات مع الإشارة إلى بعض الفروق والمقارنات في مناسباتها.

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أنه، وبصفة عامة، ونظراً لتفرد مدن مثل، الرياض وبريدة وعنيزة وحائل والإحساء وغيرها كعواصم أقاليم وقيام قطاعات تجارية وخدمية وعلاقات خارجية، مما يجعل اقتصاد كل منها مختلفاً عن الأخرى من ناحية ومختلفاً عن محيطها الإقليمي ومتأثراً بعلاقات خارجية أخرى، فقد تم استبعادها من الدراسة لأن كلاً منها يحتاج إلى دراسة خاصة.

وقد تم اختيار البكيرية كأنموذج لحواضر وسط جزيرة العرب لأسباب موضوعية مر ذكر بعضها وسيتم تفصيل الأسباب الأخرى لاحقاً.

المقدمة

كثيرة هي المؤلفات التي كتبت عن الصحراء العربية وعن حياة سكانها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية بصورة عامة. فقد كتب المستشرقون والرحالة وموظفو البعثات الأجنبية والدبلوماسية والتبشيرية والمخابراتية والعلمية عن البدو الرحل، وعن القبائل، وعن العواصم والمدن، وسجلوا مشاهداتهم الطبيعية والسياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية، وفصلوا في موضوعات كثيرة، منها الأعراف، والتقاليد، والمعتقدات، والسلوك، والأخلاق، والقوانين، والأنشطة الاقتصادية والأطعمة، وطرق التفكير وغيرها. بعض هذه الانطباعات التي سجلوها كانت توافق الواقع، وبعضها تأثر بمدى فهم الكاتب لما رأى أو سمع، وتأثر أيضاً بتحيزاته الواعية (المتعمدة) أو الغافلة. وتأثر أيضاً بهدف الكاتب، الفئات المستهدفة بقراءة ما يكتبه، هل هو القارئ الأجنبي في بلده، أم هو النخب العربية، أم هي الأجهزة التي أوفدته أم هي كل هؤلاء، أم أنه يسجل ما يعتقد أنه الحقيقة العلمية وهكذا. ومن أشهر من كتب فيلبي، وداوتي ... وكثير غيرهم.

ولكن الملاحظ أن جميع هذه المؤلفات تقريباً كانت حول القبائل والبدو الرحل، والطبقات السياسية، والتجار، والمدن الساحلية غالباً والعواصم، وربما بعض

عواصم الأقاليم. وتلك الكتابات لا شك أنها قد غطت كثيراً من معالم الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لأجزاء كبيرة وهامة وواسعة من جزيرة العرب وجوارها. ولا يجوز إنكار أهمية وفائدة تلك المؤلفات الكثيرة المختلفة جغرافياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً. ولكنها رغم ثرائها وتنوعها إلا إنها كلها بحاجة الى دراسة وتمحيص وفرز ونقد وتصنيف لتعظيم الفائدة وتصحيح السهو والخلل والتحيزات الواعية والغافلة. ولا شك أنه قد كتبت مؤلفات نقدية كثيرة تطرقت إلى تلك الكتابات، مباشرة أو عرضاً، جزئياً أو كلياً، حسب غرض كل من تلك المؤلفات.

لكن كل ما كتبه المستشرقون، والرحالة والمبعوثون لمختلف الأغراض قد قصر، في الغالب الأعم، عن الغوص في أعماق الأرياف وتفاصيل حواضر وسط جزيرة العرب. وإذا صادف أن تطرق أحدهم إلى الحديث عنها فإنه قد يفتقد إلى الدقة الناجم عن عدم الوقوف على معظم تلك البؤر الحضرية، وغالباً الاعتماد على النقل عن أشخاص لا يعتمد عليهم بتقديم معلومات صحيحة عن المسافات، والمساحات، والسكان، وأعدادهم، وأصولهم، وأنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية، وأسلوب معيشتهم، وتفاصيل حياتهم اليومية والموسمية وغيرها. ومن الأمثلة الساطعة على هذا، ما أشار إليه الشيخ محمد بن ناصر العبودي[*] عن بعض المعلومات التي ذكرها أحد الغربيين الذي زار منطقة القصيم نهاية القرن الثالث عشر وما ذكره من معلومات عن بريدة وعنيزة والبكيرية حول السكان والمساكن وأعدادهم وأنشطتهم المختلفة. تلك المعلومات كانت خاطئة تماماً، على الأقل فيما يتعلق بالبكيرية وإنها لقبيلة عتيبة

(*) محمد بن ناصر العبودي، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، بلاد القصيم – دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

وقبيلة مطير، وغيرها من معلومات يتضح أن قائلها قد جانب الصواب تماماً عن جهل أو إهمال، وهذا يوجب التروي وعدم التسليم بصحة كل ما يرد في تلك الكتابات رغم احتوائها على كثير من المعلومات الصحيحة والآراء الموضوعية النافعة. ذلك القصور المشار إليه في تلك الكتابات ترك مساحة وفراغات كبيرة جداً، لعل هذا الكتاب يسلط الضوء على بعض منها.

ولكون النفط يشكل ثورة تاريخية عظيمة نقل أهل جزيرة العرب من أقصى درجات الفقر والبؤس والعوز، حتى صعبت أحوالهم على أهل الصومال الأخيار، فأفتوا ببعث الزكاة إلى أهل وسط جزيرة العرب قبل نحو قرن من الزمان، نقلهم النفط إلى حال الثراء السريع الفاحش في بعض المدن والمناطق حتى كادت الأجيال الجديدة أن تنسى أحوال ماضي آبائهم الأقربين، وظهر البذخ والإسراف بل والبطر من البعض. وهذا جعل عبارة أحوال ما (بعد النفط)، (وقبل النفط)، تعني أمرين شديدي التناقض في مختلف شؤون الحياة في وسط جزيرة العرب.

ومن الكتب التي تتحدث عن ما قبل النفط يمكن الإشارة إلى مثالين: أحدهما كتاب "الكويت قبل النفط: مذكرات س. ستانلي – ج. ماليري، ترجمة د. محمد الرميحي. وهو كان طبيباً في بعثة تبشيرية في الخليج

هذا الكتاب أو المذكرات مليء بتفاصيل حياة الحضر في الكويت والبحرين ولكنها في الغالب حول حياة علية القوم. وقد كان فيها أجزاء عن البادية خاصة قبيلتي مطير والعجمان ولذلك يمكن اعتبار هذه المذكرات بكل ما تحمله من حقائق وآراء صحيحة وآراء خاطئة تبقى قاصرة جغرافياً واجتماعياً واقتصادياً عن أن تعتبر ممثلاً لأحوال أهل جزيرة العرب قبل النفط. فالكويت مرفأ له علاقات تجارية خارجية واسعة، بالإضافة إلى أن الكويت (دولةٌ مدينة) وللأجنبي فيها حضور قوي

واسع جداً بحسب معاهدة الحماية، لذا لا يمكن قياس حواضر وسط الجزيرة العربية على أحوال مدينة الكويت، أما بادية الكويت فكما أسلفنا كتب عن البدو الكثير وبالتالي ليس هو موضوع هذا الكتاب.

أما الكتاب الثاني الذي يمكن إيراده كمثال فهو كتاب "نجد قبل النفط: دراسة سسيولوجية تحليلية للحكايات الشعبية" للكاتبة المعروفة د. بدرية البشر، وهذا الكتاب الرائع في أسلوبه وفي لغته الرفيعة وفي منهجه العلمي الدقيق، هو في صلب موضوع هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

إلا أنه ومهما استخلصنا من الحكايات الشعبية من دلالات وإضاءات عن أحوال سكان وسط جزيرة العرب فسوف تبقى مفردات كثيرة جداً من حياة حواضر وسط الجزيرة العربية قبل النفط تحتاج إلى تسجيل قبل أن تندثر وتضيع إلى الأبد. وهذه المفردات المشار إليها، إن تم حفظها، فسوف يقيض الله لكل منها في يوم من الأيام باحثين يدرسونها دراسة علمية دقيقة مثل دراسة الكتاب المشار إليه أعلاه واستخلاص دلالات كثيرة ومتنوعة في كل مفردة من مفردات حياة سكان وسط جزيرة العرب قبل النفط.

ولذلك فإن هذا الكتاب لم يكن مكرساً لجانب محدد من شؤون حياة سكان وسط الجزيرة العربية، ولكنه محاولة لعرض صورة شاملة، قدر الإمكان، لمختلف مفردات الحياة اليومية والموسمية لسكان المناطق الداخلية للجزيرة العربية قبل النفط، للأفراد والجماعات، رجالاً ونساء وأطفالاً، فقراء وأغنياء، ورصد التطورات الناجمة عن ظهور النفط.

ونظراً للدور المركزي للعامل الاقتصادي في صياغة كثير من العلاقات الاجتماعية والأنشطة والأعراف والعادات والسلوك فقد يحسن الإشارة إلى أن دور

الاقتصاد في قيام وتطور الاجتماع البشري قد سلم به كثير من العلماء في العصر الحديث وكثير من عظماء التاريخ القدماء مثل افلاطون وابن خلدون.

فعندما لمعت فكرة "علم العمران" (علم الاجتماع البشري) في ذهن بن خلدون رحمه الله، وهو مؤسس علم الاجتماع دون منازع، حتى ولو كابر بعض الغربيين، فقد قرر الاعتكاف "في القلعة"(*) ليدون أفكاره في رائعته الخالدة "مقدمة إبن خلدون" الشهيرة، وفيها يتفق مع أفلاطون بأن البشر يجتمعون بدافع الحاجة إلى التعاون على إنتاج حاجاتهم ومستلزمات حياتهم. أي أن الاقتصاد هو الدافع الاساسي لنشوء المجتمعات.

وفي عرض ابن خلدون في المقدمة لمختلف الموضوعات التي حوتها المقدمة، والتي تمثل فلسفة التاريخ لدى ابن خلدون، كان يعتمد التفسير "المادي" (الموضوعي) للأحداث التاريخية بصورة عامة، (سلوك البشر أفراداً وجماعات وطباعهم ومواقفهم، وحروبهم والظواهر الاجتماعية كالغلاء، والسخاء، والأوقاف والفنون والسياسة وغيرها).

فمثلاً فسر ازدهار دور العلم في مصر بأنه سلوك اقتصادي تمثل باتجاه الأثرياء إلى توجيه كثير من أموالهم إلى الأوقاف على دور العلم، ولكنهم يضربون سهماً لذرياتهم من هذه الأوقاف، كل ذلك لحماية اموالهم من طمع الحكام، وتأمين مستقبل ذرياتهم عن طريق الوقف.

وقد كانت مناقشة ابن خلدون لمختلف الموضوعات التي طرحها في المقدمة تقوم على التفسير المادي (الموضوعي)، وقد كان محل إعجاب عالمي واسع جداً، حيث ترجمت المقدمة إلى عدة لغات في العصر الحديث.

(*) قلعة بن سلامة في الجمهورية الجزائرية حالياً.

لكن عبارة التفسير المادي للتاريخ شاعت وانتشرت في العصر الحديث (القرن التاسع عشر وما بعده) مقرونة بالطرح الماركسي لتفسير الاحداث التاريخية وتطور النظم الاجتماعية (الاقتصادية)، لكن التفسير الماركسي (المادي) للتاريخ قد شدد على "الحتمية التاريخية" والعامل الاقتصادي تحديداً، المتمثل بتقدم وتطور قوى الإنتاج المستمر، والذي بدوره يستلزم تطوراً في علاقات الانتاج تتلاءم مع تطور قوى الإنتاج. وهذا هو الذي قصدوا به قيام نظام اجتماعي (أي اقتصادي) جديد أو ما سموه بـ (الثورة الاجتماعية).

ورغم وجود بعض الشبه بين تفسير ابن خلدون للتاريخ وتفسير الاشتراكيين إلا ان تفسير ابن خلدون لم يكن مقيداً بـ "الحتمية التاريخية" بصورتها الاشتراكية الحاسمة التي واجهت حرباً ضروساً خلال القرنين الماضيين من الرأسمالية التي حشدت لهذه الحرب كل طاقاتها بما في ذلك المؤسسات الدينية.

والحرب الشرسة التي دارت بين النظامين "النقيضين" (الرأسمالي والاشتراكي) كانت حرب وجود، لأن انتصار أحد النظامين في مجتمع من المجتمعات يعني بالضرورة إلغاء وتسفيه النظام الآخر. وقد أصبحت الحرب سياسية وعسكرية وثقافية ودينية لدرجة ان العنصر الأساسي، وهو الاقتصاد، قد توارى ذكره عن الواجهة رغم بقائه جوهر الموضوع. وأصبح "الملعونان" الأشهران في العالم، بعد إبليس، بل ربما أكثر شهرة من إبليس نفسه، هما آدم سميث الذي أشهر الدعوة إلى الحرية الاقتصادية المطلقة بتبني الشعار الفرنسي الأصل (دعه يعمل... دعه يمر)، وقد أصبح بهذا الموقف هدفاً للعنات عمال وفلاحي وفقراء العالم، خاصة بعد ظهور الفكر الاشتراكي. أما "الملعون" الآخر فقد كان كارل ماركس، الذي صبت عليه اللعنات من قبل الرأسمالية وأجهزتها الإعلامية وكذلك من قبل المؤسسات الدينية في الجانب العقائدي. وربما لم يكن آدم

سميث ولا كارل ماركس من الأشرار بمقاييس مجتمعاتهم وأنظمتها وقوانينها وربما لم يكن، على الأقل، طرح كل منهما ينطوي على سوء نية نحو المجتمع.

هذه اللمحة "الثقيلة والمملة" هي فقط للتذكير بالدور المركزي الحاسم للعامل الاقتصادي في إحداث التحولات والتطورات الاجتماعية التي تشهدها الجماعات البشرية من عادات وتقاليد وأعراف وقوانين وسلوك ومواقف وأدوات وتقنيات ووسائل مادية وثقافية وعلاقات اجتماعية مع القريب والبعيد والأجنبي.

لذا فإن هذا الكتاب وهو مجرد محاولة وصفية متواضعة للحياة الاقتصادية لحواضر وسط جزيرة العرب قبل ظهور النفط، وصف حياتهم الاجتماعية بكل مفرداتها، أنشطتهم الاقتصادية المختلفة وما ينتج عنها كعنصر أساسي لتجمعهم، ثم ما ينتج عن ذلك من أدواتهم وقوانينهم وعاداتهم وأعرافهم وطرق تعايشهم وسلوكهم ومواقفهم المختلفة.

والكتاب بهذا المفهوم يعتبر في صلب مادة "التاريخ الاقتصادي" كما يمكن النظر إليه على أنه يتحدث عن التطور والنمو دون الالتزام بنظرية محددة من نظريات النمو أو نظريات التنمية وبالتأكيد من باب أولى أنه ليس قائماً على نظرية من نظريات استراتيجيات التنمية الشاملة، أو حتى التنمية الاقتصادية.

هذا الكتاب محاولة متواضعة لوصف الحياة اليومية والموسمية لتلك البؤر الحضرية وسط جزيرة العرب قبل النفط، وهو يقوم بالدرجة الأولى على مشاهدات شخصية، أو معرفه شخصية بشتى مفردات الحياة الاقتصادية (الأدوات، الأساليب، العلاقات، المنتجات، ... الخ) وكذلك الحياة الاجتماعية الناتجة عن تلك الحياة الاقتصادية (العلاقات الاجتماعية، الزواج، والأعياد، الألعاب، الولائم، الأفراح، المساكن وغيرها).

وقد تم اختيار البكيرية أنموذجاً للتعرف على (الحياة الاقتصادية والاجتماعية) لحواضر وسط جزيرة العرب قبل النفط لأسباب عديدة:

أولاً: تحديد بؤرة حضرية مناسبة يسهّل عرض التفاصيل التي قد لا تتوفر في كل بؤرة، أو قد تتكرر كثيراً عند أخذ أماكن كثيرة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن التشابه كبير جداً بين حواضر وسط الجزيرة العربية.

ثانياً: سبب شخصي يساعد على دقة المعلومات والملاحظات، قدر الإمكان، وربما معرفة تفاصيل وخلفيات، غير ظاهرة، لكثير من الملاحظات والمعلومات.

ثالثاً: موقع البكيرية الجغرافي في وسط الوسط من جزيرة العرب، وحجم البكيرية مناسب جداً، فالبكيرية لم تكن مدينة كبيرة ذات علاقات خارجية، أو أهمية سياسية وعسكرية، وهي لا تقع على طريق تجاري هام يفقدها شخصيتها المغلقة التي تتمتع بها معظم حواضر وسط جزيرة العرب.

والبكيرية لم تكن قرية صغيرة نائية ينقصها الكثير لتكوين صورة معبرة عن مجتمع حضري مكتمل العناصر. فمجتمع البكيرية ليس مقصوراً على أسرة واحدة، وليس مقصوراً على قبيلة واحدة او اثنتين او ثلاث.

والبكيرية تعتبر مثالاً للسوق الاقتصادي المتكامل، فهناك قطاع المنتجين في القطاع الرئيسي (الزراعة)، وهناك قطاع المستهلكين (من حرفيين، وعاملين في خدمات النقل والبناء، والأعمال الموسمية والتجارة وغيرها. لهذه الأسباب مجتمعة تم اختيار البكيرية أنموذجاً لإلقاء الضوء على أبرز معالم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في حواضر وسط الجزيرة العربية قبل النفط. **وهنا يجب التأكيد على أن هذا الكتاب ليس كتاباً عن البكيرية بقدر ما هو مجرد الاستفادة من التاريخ الاقتصادي للبكيرية لتوصيف وإيضاح كثير من المعالم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لحواضر وسط**

جزيرة العرب قبل النفط. ومن أراد أن يقرأ عن البكيرية فهناك كتاب الشيخ صالح الخضيري، وهو أفضل وأشمل وأدق ما كتب عن البكيرية حتى الآن.

والكتاب الذي بين أيدينا لم يقتصر على وصف الحياة الاقتصادية في تلك المناطق على فترة ما قبل النفط فقط، ولكن تم تقديم لمحه سريعة لفترة ظهور النفط، وما أحدثه من ثورة اقتصادية هائلة نتج عنها تطورات اجتماعية وثقافية شاملة غيرت كل شيء تقريباً في تلك المناطق التي كانت شبة مغلقة أو مهملة منذ مئات إن لم نقل آلاف السنين. فقد كان الفرس يصلون في غزواتهم إلى مصر واليمن ولكنهم لا يرون ما يغري في وسط جزيرة العرب، وكذلك الرومان توقفوا جنوب الأردن ولم يتوغلوا وسط جزيرة العرب، ليس عجزاً ولكن بسبب عدم وجود ما يغري بارتياد وسط الجزيرة العربية، ويمكن قول مثل ذلك على الدولة الاموية والعباسية والعثمانية. وحتى الاستعمار الأوروبي الحديث لم ير في وسط الصحراء العربية ما يستحق العناء باستعمارها فمواردها شحيحة لا تكفي لحياة الكفاف لبعض أهلها. وحتى الحاكم العباسي الذي يقول للسحابة شرقي أو غربي ... ربما يسطو بعض الصعاليك ويستاق خمساً أو عشراً من إبل السلطان ويهرب بها إلى أعماق الصحراء ويجد الخليفة أن عدم ملاحقة الصعلوك قد تكون أصوب من تسيير جيش يجول الصحراء قد ينجح أو يفشل.

وعند ذكر أهلها تدور أحياناً مماحكات (في المجالس) حول السؤال: من الأفضل من بين أهل وسط الجزيرة العربية، أولئك الذين هاجرو إلى الشام والعراق ومصر وغيرها طلباً للرزق ولم يعودوا، أم أولئك الذين تمسكوا وصبروا واستخرجوا ما يكفيهم للعيش بأظفارهم وأسنانهم من جوف الصخور والرمال الحارقة.

والحقيقة إن كلا الطرفين محق في ما ذهب إليه، كل حسب تبريراته المنطقية. وكلٌ ميسرٌ لما خلق له. فطالب سعة العيش سافر وغامر وكافح حتى وصل إلى المناطق الزراعية والتجارية وفرص العمل الوفيرة، أما من أصر على البقاء ومغالبة قسوة الصحراء وشح

الموارد وابتكار الوسائل وقوة التحمل وانتزاع لقمة العيش انتزاعاً من هذه البيئة القاسية الشحيحة فلديهم ما يفخرون به من حب الحرية وحب الوطن مهما كان ذلك مصحوباً ببعض الشقاء والجوع. وكان ظهور النفط كأنه مكافأة لأحفاد أولئك الشداد من الرجال والنساء الذين صبروا وصابروا وكافحوا وأخلصوا للأرض والوطن.

وبما أن البكيرية قد أخذت أنموذجاً، فإن الفصل الأول من الكتاب قد أفرد لإعطاء لمحة سريعة عن البكيرية ومحيطها القريب والبعيد (جزيرة العرب، بلاد القصيم، وأهمية وادي الرمة)، وتحديد ظروف نشأة البكيرية.

وفي الفصل الثاني عرض لاقتصاد البكيرية قبل النفط، جغرافية البكيرية، الموارد الطبيعية (الأرض، النباتات الطبيعية، السكان، العمل، رأس المال). أما الفصل الثالث فقد تم فيه تفصيل القاعدة الاقتصادية لبلدة البكيرية (الإنتاج، التمويل، المهن المختلفة كالحدادة والنجارة والبناء، والنقل وغيرها). وقد كان الفصل الرابع حول الحياة الاجتماعية في البكيرية قبل النفط وقد تم فيه تفصيل أحوال الصحة والتعليم، والمناسبات والفنون وغيرها. وفي الفصل الخامس محاولة للدخول في تفاصيل الحياة اليومية للفرد والأسرة في الحياة اليومية والمناسبات، وقد كان نصيب الأطفال خاصة الصبيان أكثر من غيرهم من فئات المجتمع من حيث تفاصيل حياتهم اليومية. وكان الفصل السادس مكرساً للنظر في أثر الركود الثقافي والاجتماعي الطويل على بعض مفردات حياة الناس (أسمائهم وملابسهم ومساكنهم، وكثير من تصرفاتهم). وفي الفصل السابع تم رصد بدايات التحول الاقتصادي الناجم عن التحولات السياسية الكبرى (قيام المملكة العربية السعودية)، وما تلاها من تباشير ظهور النفط وما نتج عن ذلك من تطورات هائلة في مختلف القطاعات، التعليم والصحة والنقل وغيرها، وما نجم عن كل ذلك من تحولات اجتماعية وثقافية في كثير من العادات والتقاليد واللبس والسكن، والمناسبات والمعارف المختلفة.

المحتويات

الصفحة

الشكر والتقدير .... ز
التمهيد .... ك
المقدمة .... ف

الفصل الأول: البكيرية ومحيطها ١
جزيرة العرب ١
بلاد القصيم ٣
وادي الرمة ٤
القصيم "هبة وادي الرمة" ٤
الاقتصاد الرعوي ٧
الاقتصاد الحضري (الزراعي) ٧
تطور الحياة الحضرية في القصيم ١٠
نشأة البكيرية ١٢

الآباء المؤسسون ١٧
شخصية القرية ١٨

الفصل الثاني: اقتصاد بلدة البكيرية قبل النفط ٢١
(أ) جغرافية البكيرية ٢١
(ب) الموارد الاقتصادية ٢٢
الموارد الطبيعية ٢٢
(ج) حجم السكان ٢٧
(د) عنصر العمل ٣٠
(هـ) رأس المال ٣٤
العدة ٣٦

الفصل الثالث: القاعدة الاقتصادية لبلدة البكيرية ٤٣
كمية الإنتاج ٤٤
التمويل ٦١
المهن ٦٣
الخياطة ٦٣
المطاحن ٦٣
جلب الماء للمنزل ٦٥
مهن أخرى ٦٨
صناعة الجلود ٦٩

الحدادة ٧٢
النجارة ٧٣
البناء ٧٤
النقل ٨١

الفصل الرابع: الحياة الاجتماعية في البكيرية قبل النفط ٨٣
الصحة ٨٤
النحاتة (الحسد) ٨٧
"طويسات" في أبواب المسجد ٨٩
التعليم ٩٣
المجتمع يعيد إنتاج نفسه ثقافياً منذ قرون ٩٤
الزواج ٩٧
الأعياد ١٠٤
عيد الفطر ١٠٤
عيد الأضحى ١٠٦
شهر رمضان ١٠٨
الختمة ١٠٩
"عيد العمَر" ١١٢
الجراد ١١٥
الولائم ١٢١
الحج ١٢٤

الفنون ١٢٦

الفصل الخامس: الحياة اليومية للأفراد والأسر ١٣٥

الفلاح ١٣٦

تأخير صلاة الظهر.. ١٣٧

أهل السوق وقهوة بعد الظهر ١٣٨

تنظيم الوقت ١٤٢

الأطفال.. ١٤٥

ألعاب الصبيان... ١٤٦

لعبة الكعابة "ال تسعابة" ١٤٧

كيفية اللعب.. ١٤٩

لعبة الحِدِل ١٥٥

الفصل السادس: الركود الاجتماعي والثقافي ١٦٩

النمطية ١٧٠

الأحذية.. ١٧٤

الحلي ١٧٧

البيئة المحيطة ١٧٨

الحيوانات الأليفة.. ١٨٠

الحيوانات المفترسة ١٨١

الفصل السابع: بداية التحول ١٨٥
الخطوة الأساسية ١٨٥
لمحة سريعة عن فترة التحول ١٨٧
الأثر الاقتصادي لقيام المملكة العربية السعودية ١٨٩
ظهور النفط ١٩٠
مشاهدات شائعة ١٩١
بداية الانفتاح ١٩٤
دوار البحر في الصحراء ١٩٧
أول بناء إسمنتي في البكيرية ٢١١
أول برنامج "سعودة" ٢١٨
شبكة المياه ٢١٩
الحنين للماضي "الجميل" ٢٢٢
أخلاق المدن ٢٢٣
الشياطين تكثر وتنشط في المدن ٢٢٣

الخاتمة ٢٢٧
المراجع ٢٣٥

قائمة الصور والأشكال

الصفحة

صورة رقم (١). موقع البكيرية في جزيرة العرب ٢
صورة رقم (٢). وادي الرمة وروافده ٥
صورة رقم (٣). نفود الثويرات ٦
صورة رقم (٤). البكيرية: صورة جوية منتصف ثمانينيات القرن الهجري الماضي... ١٢
صورة رقم (٥). رسم يدوي دقيق للبكيرية عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ١٣
صورة رقم (٦). تضاريس البكيرية (صورة جوية حديثة) ٢٢
صورة رقم (٧). البكيرية القديمة ٢٩
صورة رقم (٨). السواني ٣٣
صورة رقم (٩). عدة السواني ٣٧
صورة رقم (١٠). المحّالة ٣٩
صورة رقم (١١). الغرب ٤٠
صورة رقم (١٢). جزء من سور البكيرية ٥٨

صورة رقم (١٣). جدار مبني بطريقة العروق........................... ٥٩
صورة رقم (١٤). قطعة من الطين الصلصلي (الطلو) ٦٠
صورة رقم (١٥). خارطة للبكيرية (معركة عام ١٣٢٢هـ)........................ ٦٦
صورة رقم (١٦). الدلو... ٦٧
صورة رقم (١٧). مبنى طيني قديم ٧٦
صورة رقم (١٨). مجموعة من ال تسعابة ١٤٨
صورة رقم (١٩). الكعابة في الدائرة جاهزة لبدء اللعب.........................١٥٠
صورة رقم (٢٠). الصول المرصص ١٥١
صورة رقم (٢١). زبرة الحِدِل والعصا والبعّة ١٥٨
صورة رقم (٢٢). طريقة مسك العصا..١٦١
صورة رقم (٢٣). الحركات الخمس لإرسال البعة ١٦٣
صورة رقم (٢٤). انتشار اللاعبين المتلقين في الملعب ١٦٥
صورة رقم (٢٥). البكيرية صورة جوية حديثة وتظهر في وسطها البلدة القديمة....٢٢٥

الفصل الأول

البكيرية ومحيطها

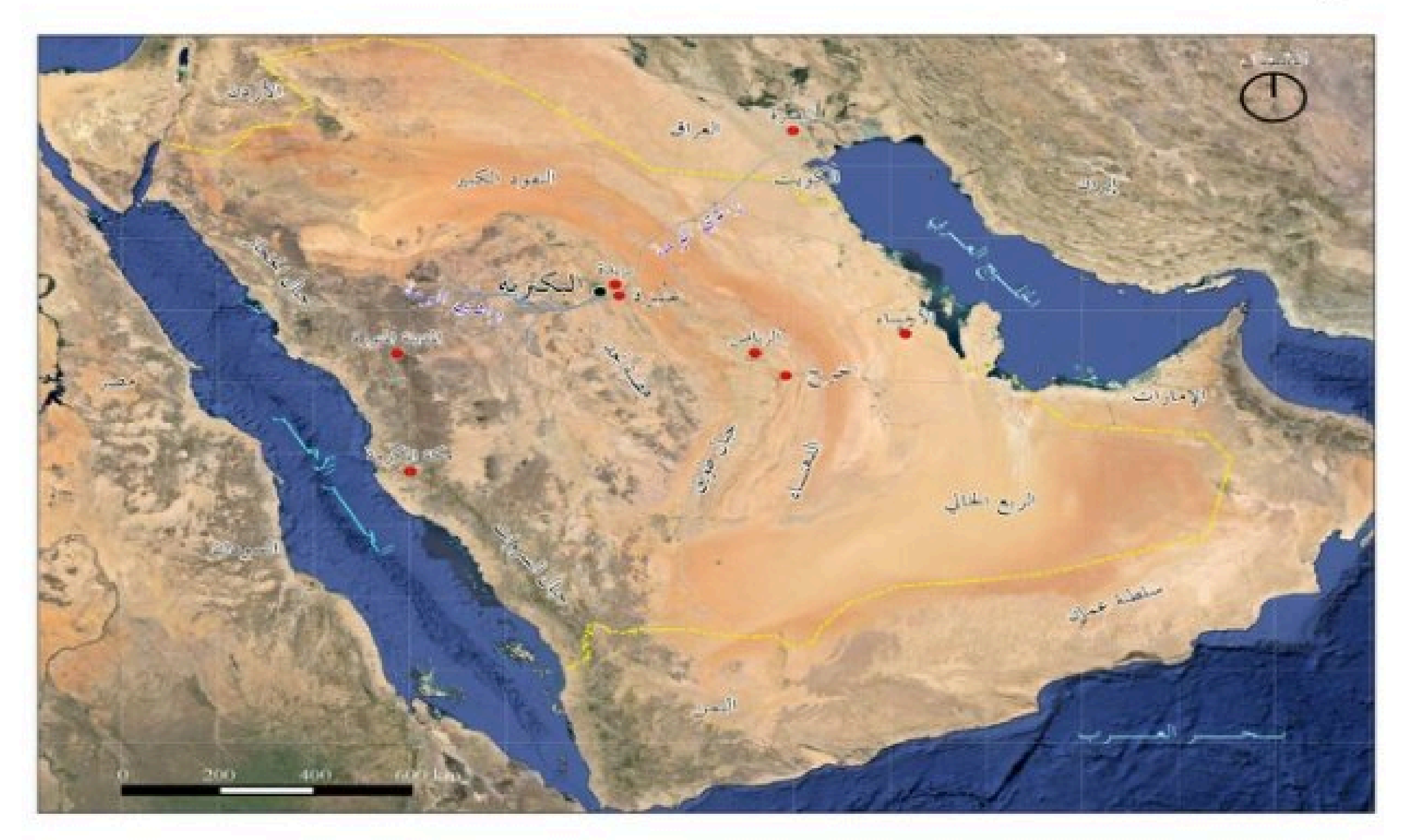
جزيرة العرب

عند ذكر جزيرة العرب أول ما يتبادر إلى الذهن الصحراء، وعند ذكر الصحراء يقفز إلى الذهن صورة بحار من الرمال تمتد مساحات واسعة في جميع الاتجاهات يندر فيها الماء، وبالتالي يندر فيها النبات. ولذلك تعتبر الصحراء مكاناً شديد القسوة للحياة. وغالباً ما تأتي كلمة الصحراء مميزة بـ "قاحلة" مع انه لا يخطر على البال صحراء غير قاحلة.

ويرى الجغرافيون أن هناك شبهاً كبيراً بين أعالي البحار (أواسط المحيطات) وأواسط الصحاري الكبيرة من حيث عدم الملاءمة للحياة. ففي أعالي البحار تزداد الأعماق وينعدم الضوء وبالتالي تشح الموارد الضرورية لحياة الكائنات الحية البحرية. وفي الصحراء نرى الشيء نفسه، مناخاً قاسياً وشحاً في المياه ينتج عنه شح في النباتات والأشجار وتضيق فرص الحياة على كثير من أجناس الكائنات الحية.

والصحراء العربية جزء من حزام صحراوي واسع عظيم يقع على جانبي مدار السرطان يمتد من المحيط الأطلسي ويغطي معظم الشمال الأفريقي مروراً ببلاد العرب وإيران ووسط آسيا إلى شمال الصين.

وقد حدث أخدود عظيم قبل ملايين السنين نتج عنه البحر الأحمر، ومثله وبدرجة أقل طولاً وأقل عمقاً، الخليج العربي، فتكونت بينهما جزيرة العرب أو شبه الجزيرة العربية. وهي صحراء قاحلة شحيحة الموارد، يقول عنها المؤرخ البريطاني المعروف أرنولد توينبي: إن سكان جزيرة العرب باستثناء اليمن، كانوا في جوع دائم منذ ألآف السنين، قبل استخراج النفط. ويعزو توينبي انتشار العرب في هذه الرقعة الواسعة إلى أن الهضبة (هضبة نجد) بيئة صحية، وقديماً قيل "قال الجوع إني لاحق ببلاد العرب (الصحراء) قالت الصحة وأنا معك" كما عزا توينبي التغلغل التدريجي للمدنية وسط جزيرة العرب إلى استخدام الجمل.(*) فهو الحيوان الوحيد القادر على قطع المسافات الطويلة داخل الصحراء، وقد استحق بذلك تسمية سفينة الصحراء.



صورة رقم (١). موقع البكيرية في جزيرة العرب.

(*) توينبي: تاريخ البشرية، ص ٨٢.

وتغطي هضبة نجد الجزء الأعظم من وسط جزيرة العرب. ويمكن تقسيم جزيرة العرب من حيث شح الموارد وقسوة الحياة إلى ثلاث درجات. فالمرتفعات الجنوبية الغربية والأودية المتفرعة منها شرقاً وغرباً هي الأفضل نسبياً من حيث وجود الموارد المائية وانخفاض المعدل السنوي لدرجات الحرارة، أما صحراء الربع الخالي، وصحراء النفود الشمالية هي الأشد شحاً وقسوة لحياة الاستقرار والتحضر.

وتعتبر الهضبة الوسطى (هضبة نجد) متوسطة القسوة نسبياً، حيث يوجد فيها بعض البؤر (الواحات)، وفيها بعض الأودية وبعض الواحات التي يرتفع فيها منسوب المياه الجوفية فوق سطح الأرض (العيون الجارية في الخرج والإحساء، والقصيم والأفلاج... وغيرها) أو قريباً من سطح الأرض بحيث يسهل استخراجه بحفر آبار غير عميقة.

بلاد القصيم

والقصيم جزء من الهضبة النجدية، ويشكل جزءاً كبيراً من وسطها، شمال غرب منطقة الرياض (الإدارية حالياً). وسبب تسميته بالقصيم هو نوع النباتات المنتشرة فيه. فمثلاً يقال غابات الخيزران، وغابات الزان، والسنديان ... الخ. والنباتات التي كانت منتشرة في القصيم هي من النوع الذي كانت تسميه العرب بـ (القصيمة). وهي أنواع منها الغضى، والارطى، والطرفا، والسلم، وأهمها الغضى. وسبب وجود هذه الأشجار في هذه المنطقة هو ارتفاع منسوب المياه الناجم عن اعتراض نفود الثويرات، شرقي القصيم، لمجرى وادي الرمة واحتجاز مياهه الغزيرة فتغذي المياه الجوفية، لدرجة أنها أحياناً ترتفع فوق سطح الأرض على شكل مستنقعات وعيون متفجرة.

وادي الرمة

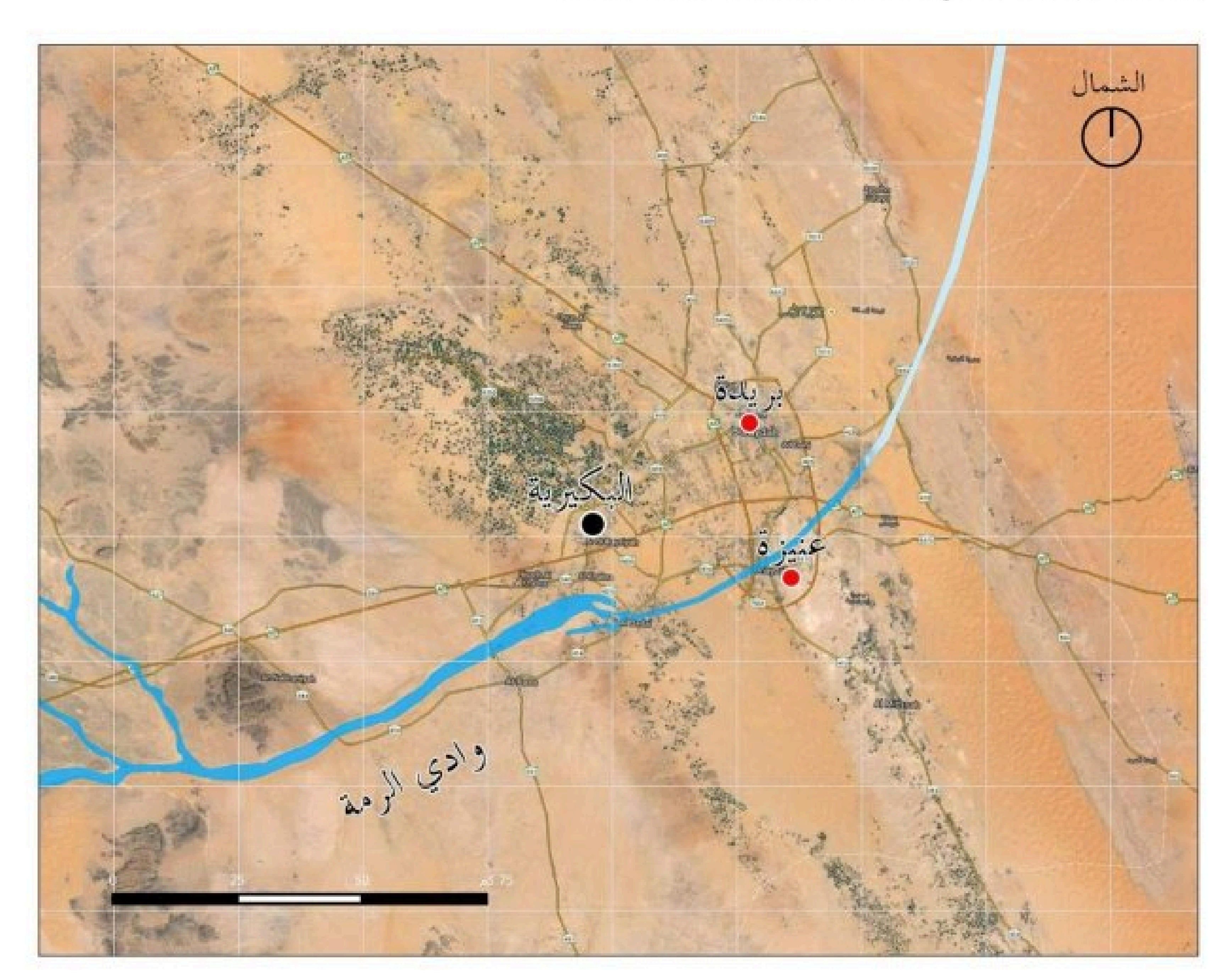
وادي الرمة هو أحد أكبر فحول الأودية في جزيرة العرب وهو أطولها على الإطلاق. وهو يمتد من حرة المدينة المنورة ويتجه شرقاً إلى القصيم ثم ينحرف شمالاً، فإذا اجتاز نفود الثويرات في القصيم وامتداد عروق الدهناء المتجهة إلى صحراء النفود الشمالية، فإنه يشكل وادي الباطن الذي يتجه إلى جنوب العراق. وهناك أسطورة حول جبل صغير قرب البصرة يقال له (سمحان أو سحبان) وأنه من جبال حرة المدينة المنورة، وقد هاجر إلى العراق، وأن هذا الوادي هو الطريق الذي شقه هذا الجبل من المدينة المنورة إلى العراق!!!

القصيم "هبة وادي الرمة"

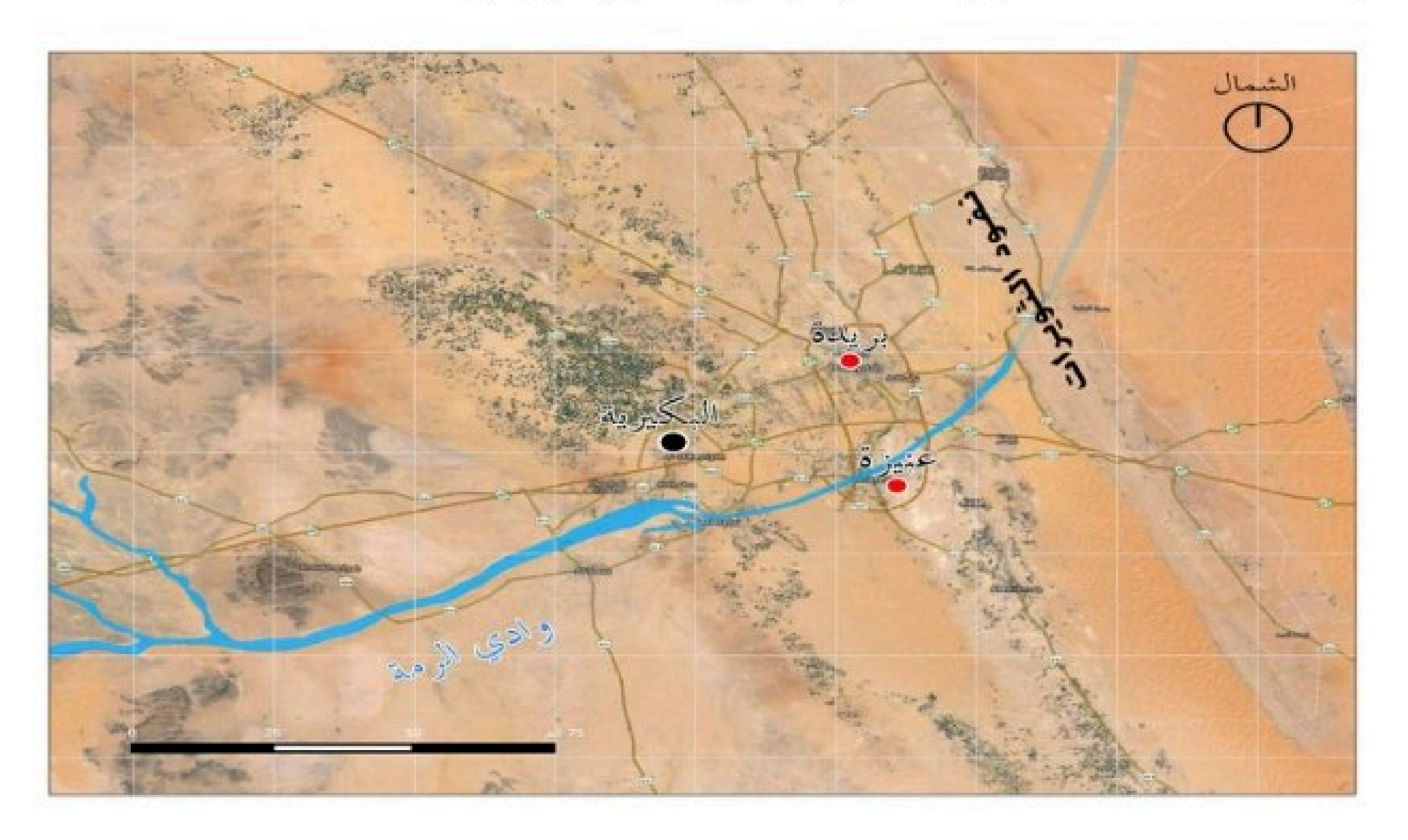
إذا قبلنا مقولة المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت "مصر هبة النيل" فإنه يمكن القول بأن القصيم هبة وادي الرمة، وهذه العبارة لا يكتمل قبولها إلا إذا أخذنا بالاعتبار دور نفود الثويرات الذي يعمل في بعض الحقب التاريخية كالسد العظيم الذي يحبس مياه وادي الرمة في القصيم وكأنه يقول قف هنا، ففي العراق ما يكفيه من الماء وهو ليس بحاجة إليه فليبقى الماء هنا في القصيم.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مشروع، وهو: لماذا لم تقم في أرض القصيم تجمعات حضرية كبيرة مستقرة تدوم قروناً طويلة؟، أي لماذا لم تقم هناك دولة في أي فترة من فترات التاريخ؟. لا أملك إجابة يقينية، ولم تصادفني إجابة على هذا السؤال، وقد تكون الإجابة موجودة عند الجغرافيين أو الاجتماعيين أو المؤرخين أو علماء الآثار أو غيرهم. ولكن يمكن أن يكون هناك أكثر من سبب. ومن أهم الأسباب المعقولة هو عدم انتظام جريان وادي الرمة. فقد تمر سنين طويلة متتالية دون أن يزود وادي

الرمة المنطقة بقطرة ماء واحدة. وقد يكون من الأسباب أيضاً غياب السلطة السياسية الفاعلة المستمرة المستقرة لفترات طويلة. وهذه يمكن النظر إليها على أنها سبب ونتيجة في الوقت نفسه، وذلك لغياب إنتاج زراعي كبير مستمر يغري الحكام بالاهتمام بالإقليم. وقد قيل قديماً ذهب الخصب إلى وادي النيل فقال الذل وأنا معك، بمعنى أن الخصب مطمع للسلاطين فيستعبدون الفلاح ويقهرونه ويذلونه ليأخذوا أكبر قدر من جهده، وهذا ليس خاصاً بوادي النيل فقط. وقد قيل أيضاً ذهب الجوع والشقاء إلى الصحراء فقالت الصحة وأنا معك.



صورة رقم (٢). وادي الرمة وروافده.



صورة رقم (٣). نفود الثويرات يحبس مياه وادي الرمة ويغذي المياه الجوفية في القصيم.

ولكن وجود السلطان، حتى لو كان مصحوباً ببعض الجور والظلم، فإنه يخلق بيئة سياسية واجتماعية وأمنية تسمح بقيام قطاع زراعي مستقر دائم يستطيع التعايش مع جور السلاطين، حسب الظروف. ولكن غياب السلطة السياسية الحاكمة الفاعلة تجعل الزراعة والتجارة مهددة دائماً بقطاع الطرق والحنشل وغزوات النهب والسلب، فيحجم الناس عن تكبد المخاطر بتحمل تكاليف الزراعة وعنائها ثم تأتي عصابة يوم الحصاد وتنهب المحاصيل.

وليس من المعلوم على وجه اليقين بأنه قد قامت حضارات مدنية كبيرة مستقرة في القصيم لقرون طويلة، ولم يعثر أحد حتى الآن على آثار عمرانية تدل على ذلك. والذي نجده في كتب التاريخ، مجرد مراكز حضرية متباعدة لا يرقى حجمها وقوتها إلى مستوى الدولة، أو حتى إلى مستوى التجمع السكاني الحضري الكافي لتشكيل قوة تحفظ لهذا التجمع مقومات الأمن والمنعة أمام سطوة القبائل البدوية الكبيرة. ومن

هنا يمكن القول انه إذا وجدت بؤرة حضرية أو عدة بؤر في منطقة محددة في حقبة تاريخية محددة فلا بد أن تكون بتوافق ضمني أو اتفاق مع إحدى أو بعض القبائل، ولا بد أن يكون هناك نوع من تبادل المنافع. وهذا يقودنا إلى التذكير بلمحة بسيطة عن تبادل المنافع بين الاقتصاد الرعوي والاقتصاد الحضري (الزراعي غالباً، والمهني الصناعي).

الاقتصاد الرعوي

يعتبر الرعي وتربية الماشية من أقدم أشكال تقسيم العمل في تاريخ الاجتماع البشري وهو ناتج عن تطور أنشطة الصيد في المجتمعات البشرية البدائية ومن ثم تدجين الحيوانات عبر حقب طويلة من الزمن، حيث تطورت معها أدوات الصيد ومعرفة الحيوانات وأنواعها، وسلالاتها، وسلوكها، ومواسم هجرتها، وأمراضها، وعلاجها، ومختلف طرق الانتفاع بها، كالصيد والنقل ومصدر للحليب والسمن واللحم والجلود والفراء وغيرها.

الاقتصاد الحضري (الزراعي)

هذا النشاط أيضاً متفرع في نشأته وتطوره من نشاط الجماعات البدائية في جمع الثمار والجذور والحبوب وغيرها، وكلا النشاطين قد تطورا عن ما سماه الباحثون في تاريخ الاجتماع البشري بالتقسيم الطبيعي للعمل (١) (الصيد البري والبحري)، (٢) (الالتقاط وجمع الثمار والجذور والحبوب). وقد تطور من نشاط الصيد تدجين الحيوانات ورعيها ورعايتها، ومن الثاني (الالتقاط) تطور الزراعة والاستقرار. ولأنهما تطورا عن مجتمع واحد فقد كان التكامل الاقتصادي بين هذين النشاطين (الرعي

والزراعة) أهم عوامل الاستفادة من التخصص وتقسيم العمل. ومن هذا ظهر ما نعرفه إلى يومنا هذا بالبدو والحضر، وهو ما يسمونه التقسيم الاجتماعي للعمل.

ويتميز الاقتصاد البدوي بالبساطة في الأدوات والأساليب وقلة التنوع في الموارد الاقتصادية والمنتجات، وبالتالي قلة العمل (الجهد البشري المبذول في عملية الإنتاج). فعملية الرعي تقوم على وجود المرعى الذي أهم عناصره: نوعية الأرض، وهذه يبحث عنها البدوي ويذهب إليها، والعنصر الآخر هو المطر، وكل من العنصرين لا يحتاج إلى جهد من الإنسان، فالسماء تمطر والأرض تنبت والحيوانات تتكاثر طبيعياً كما كانت قبل أن يعرفها الإنسان، فأين العمل؟ يأتي العمل في حماية هذه الحيوانات من أعدائها المفترسات، وعلاجها، والذهاب بها إلى حيث الماء والكلأ. وكل هذا العمل بسيط جداً إذا ما قورن بالعمل الزراعي من حرث، وتسوية للأرض، وحصاد، ونقل، وسائر الأعمال المتعلقة بالزراعة حتى الانتهاء من جني الثمار والحبوب ووضعها في مخازنها، أو إرسالها إلى أسواقها، إذا بقي منها شيء بعدما تأخذ السلطات نصيبها، ويأخذ الممول (الدائن) نصيبه،(*) بعد اقتطاع الزكاة الشرعية، وأخذ مستلزمات وبذور الموسم القادم. ويلاحظ أن المزارع ينفق على الغذاء كميات كبيرة نسبة إلى الإنتاج. فجميع العاملين (الأعمال الشاقة) في المزرعة سواء من أسرته أو عمال المواسم، جميعهم يعتمدون في غذائهم على صاحب المزرعة وهي كمية كبيرة من الغذاء. وقد لخص هذه الحقيقة ضيف بدوي عابر مر على مزرعة في أحد (خبوب)

(*) هناك ممارسة شائعة هي أن الدائن يكلف شخصاً يرابط في المزرعة عند الحصاد خشية أن يختلس الفلاح بعض القمح قبل سداد الدين الذي قد لا يكفيه كامل نصيب الفلاح من المحصول. وتروى قصص كثيرة عن الصدامات التي تحدث بين الفلاح والشخص المكلف بالرصد والمراقبة، ومن هذه القصص ما ينتهي باستخدام العنف.

بريدة، ورأى مزرعة نشطة ومزدهرة فيها نخيل وبعض الحبوب، ورأى أن هذه المزرعة تنتج خيراً وفيراً ورأى المزارع وأولاده نشطين في عملهم، وبعد غروب الشمس وصلاة المغرب أحضروا العشاء بصحن ضخم تحسبه "طشت غسيل" وبسرعة أتوا عليه بكامله فقال الضيف والله يا أخي ما شاء الله عليكم "تحصلون خير تسثير (كثير) لكنكم تأكلونه كله".

لذا يرى البدوي أنه قد أحسن الاختيار في حياة البداوة، ففيها الحرية، والبساطة، والصحة، والراحة من العمل الشاق. وليس صحيحاً ما يعتقده البعض بأن البدوي يعمل أكثر من الحضري. وهناك مثل يردده الحضر دلالة على الشيء الذي ليس له حاجة ملحة حاضرة دائماً. فيقولون هذا الشخص أو هذا الشيء "مثل المسحاة عند البدو"، إشارة إلى أن الفلاح والبناء والصانع والنجار والعامل، والحضري عموماً لا يستغني عن المسحاة (والمسحاة أهم أدوات العمل) فهو يحتاجها يومياً بينما البدوي قد يمر عليه الأسبوع والشهر دون أن يحتاج المسحاة أي أن العمل ليس جزءاً كبيراً من نشاط البدوي.

والحضري يرى أن البدوي في شقاء دائم فمنزله ضعيف القدرة على الوقاية من المطر ومن البرد، وزاده مقصور على عدد محدود جداً من أنواع الطعام، وأخطار التيه في الصحراء، والحيوانات المفترسة والأفاعي، وخطر العطش والبعد عن أماكن العبادة وغيرها، كل هذا يجعل حياة البدوي، في نظر الحضري، إنها دائماً عند الحدود الدنيا في كل شيء مادياً ومعنوياً. ولا يتمنى الحضري أن يعيش حياة البدو، ولا يحدث هذا في الواقع إلا نادراً جداً جداً، مع أن حدوث العكس أمر شائع جداً. فكثيرة هي الحالات التي يجنح البدو فيها إلى حياة الحضر. والحقيقة أن معظم الحضر في وسط الجزيرة هم من قبائل الجزيرة العربية فضلوا حياة الاستقرار والزراعة والتجارة.

تطور الحياة الحضرية في القصيم

تمت الإشارة في الصفحات السابقة إلى أن الاستقرار الدائم وقيام مجتمع زراعي يستمر لفترات طويلة، يلزمه توفر شرطين ضرورين هما:

(١) توفر الأرض والماء اللازمان للزراعة كماً ونوعاً بشكل دائم. وقد قالت العرب قديماً "لا تبنى المدن إلا على الماء والمرعى والمحتطب" ولا يقصد بالمدن هنا إلا التحضر والاستقرار وليس تمييز حجم المدينة عن القرية.

(٢) وجود سلطة تنظم النشاط الاقتصادي للجماعة، وتؤمن الحماية من العدوان الخارجي، وأهم وأول مسألة يتم تنظيمها هي مسألة الملكية، اي ملكية أهم عناصر الإنتاج (الأرض غالباً). ثم تحديد كيفية الانتفاع بالموارد الأخرى بما يضمن رفع الإنتاجية وعدالة توزيع الناتج والاستغلال الأمثل للموارد. وقد درجت القبائل العربية على حل مشاكل شح الموارد بأساليب عديدة، منها الترحال وراء الخصب والمرعى، ومنها الهجرات (فرادى وجماعات) إلى المناطق ذات الموارد الوفيرة. ويمكن ملاحظة أن الهجرات من وسط الجزيرة العربية كانت إلى العراق والشام، خاصة قبائل عنزة وشمر، أما بنو تميم فقد كانت هجراتهم نحو العراق والتمدد إلى سواحل الخليج العربي الشرقية داخل بر فارس (إيران حالياً) . كما نرى قبائل بني عطية وغيرهم في الأردن وسيناء، ونجد قبائل عبرت البحر الأحمر إلى شرق مصر والسودان، ناهيك عن التمدد إلى شمال أفريقيا (الهجرة الهلاليه الشهيرة). أما قبائل الجنوب فمن خلال بحر العرب ارتادت سواحل شرق أفريقيا غرباً وباكستان والهند واندونيسيا شرقاً.

والملاحظ أن هذه القبائل عندما تهاجر فإنها غالباً لا ترحل بقضها وقضيضها كاملة دون أن يبقى لها بقايا فـي مواطنها داخل الجزيرة العربية، بل أنها تـحافظ علـى

سيطرتها حتى بعـد هجرتها. وفـي الغالب تكون هجرة القبيلة جزئية وليست كاملة، إذ يهاجر بعض أفخاذ القبيلة ويبقى فروع من القبيلة داخل جزيرة العرب.

هذه القبائل داخل الجزيرة العربية لها سطوة قـوية على البؤر الحضرية التي قد تنشأ في مناطق حماها. وإذا حدث أن استمرت سيطرة أحدى القبائل على منطقة واسعة لمدة طويلة (قرون) فهذه المنطقة فـي الغالب تـحوي مناطق واحات صالحة للزراعة والاستقرار بدرجـة ما، وكذلك مراعي واسعة، وطرق حج أو تـجارة أو غيرها.

هذه السيطرة لهذه القبيلة أو تلك قـد يسمح بظهور مـجتمع زراعي في الأماكن الصالحة للزراعة. إما باستقرار أسر من نفس القبيلة، أو من أسر أخرى بموافقة القبيلة، وتنشأ المنافع المتبادلة. فإذا استمرت الظروف الطبيعية والسياسية ملائمة لفترة طويلة كافية لقيام مـجتمع حضري زراعي فإنه ينمو ويزدهر، كما حدث في القصيم على جانبي وادي الرمة، خاصة الجزء الشرقي من منطقة القصيم (الإدارية المعروفة حالياً). ومع زيادة السكان تظهر الحاجة إلى مزيد من الموارد الطبيعية (خاصة الأرض الصالحة للزراعة) التي يوجد فيها الماء بتكلفة معقولة. وهذا ما حدث في القصيم. فقد تكاثرت البؤر الزراعية المحيطة ببريدة حيث تـحولت لاحقاً إلى سوق لجميع هذه القرى الزراعية. وقـد تطور عن ذلك قيام سلطة مدنية تقوم بجميع وظائف الحكومة، وهـذا بدوره شجع علـى التمدد فـي كل الاتجاهات أينما توفرت الموارد الطبيعية. وقد كان نشوء البكيرية جزءاً من هذا التوسع الحضري الناشئ عن قيام سلطة حضرية تقوم بدور الحكومة التي هي الشرط الضروري الثاني لقيام مجتمع زراعي مستقر.

نشأة البكيرية

مثل ما أن كل شخص بالغ قد كان طفلا، وقبلها لم يكن شيئاً مذكوراً، فإن كل مدينة في أي مكان في العالم كانت قرية وقبلها لم تكن شيئاً يذكر. وكل تجمع حضري استوطن بقعة محددة من الأرض، إنما تم اختيارها قصداً دون غيرها ويكون ذلك لأسباب موضوعية.



صورة رقم (٤). البكيرية: صورة جوية منتصف ثمانينيات القرن الهجري الماضي.



صورة رقم (٥). رسم يدوي دقيق للبكيرية عام ١٣٨١هـ / ١٩٦١م (رسم المرحوم/ محمد بن يوسف الدخيل الله)، هذه الصورة وضعت هنا للمقارنة مع الصورة الجوية في الصفحة المقابلة وملاحظة الدقة من ناحية، ومن ناحية أخرى ملاحظة درجة التطور البطيء خلال ١٥ عاماً.

ولكل قرية ومدينة من مدن العالم وقراه قصة يعرفها أهلها في أغلب الأحيان. وقصة أي بلدة، تحكي تاريخها، والآباء المؤسسين لها، وسبب اختيار المكان، ومن أين جاء هؤلاء أول مرة، وربما سبب مجيئهم. والبكيرية ليست استثناء. بل إنه نظراً لحداثتها فإن أغلب المعلومات عنها معروفة على درجة عالية من اليقين.

تقع البكيرية في وسط الصحراء العربية، في وسط منطقة القصيم، وتحديداً بين خطي الطول شرق جرينتش ٤٢,٣٠ – ٤٣,٤٥ ودائرتي العرض شمال خط الاستواء ٢٦,٠٥ – ٢٧,٢٠. وأصلها إقطاع (منح قطعة أرض – غالباً زراعية –

لشخص لكي ينتفع من غلتها)(*) من أمير عنيزة لشخص يدعى محمد البكيري (بسكون الباء) وقد أحياها وحملت اسمه (البكيرية) وعرفت به. لكن البكيري باعها للأخوين محمد وعلي أبناء عثمان بن عمران بن سويلم عام (١١٨١هـ).(**) وسبب قدومهم وشرائهم البكيرية هو اضطرارهم لترك مزارعهم في الضلفعة (٢٢ كم شمال شرق البكيرية) نظراً لنضوب كثير من الآبار هناك وقد هجرها كثير من أهلها خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري. وهذا أحد أهم الأسباب الرئيسية المعروفة قديماً لازدهار المكان وعمرانه أو اندثاره والرحيل عنه وهجرانه.

وتعتبر البكيرية روضة (بمقاييس الصحراء)، صغيرة المساحة، إذ تتكون من منخفض بين مرتفعين يمتد طولاً ثلاثة كيلومترات من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي وعرضه لا يزيد عن كيلومتر واحد في وسطه ويضيق كلما اتجهنا إلى الأطراف.

هذا المنخفض تنحدر إليه مياه الأمطار حاملة معها الطمي والمواد العضوية عبر السنين مما كون أرضا طينية جيدة الخصوبة صالحة للزراعة. يضاف إلى هذا أيضاً غزارة المياه الجوفية الناجمة عن تغذية وادي الرمة.

ومن العوامل الإضافية الهامة التي تساعد على الاستقرار في البكيرية، أن:

(١) مستوى المياه الجوفية فيها مرتفع (عمق آبارها أقل من سبعة أمتار) ولا يتأثر بالأمطار السنوية. فقد يشح المطر سنة أو سنتين أو ثلاث أو أكثر ولا تتأثر الآبار، خلافاً لما عليه الحال في أعالي القصيم أو وادي سدير (مثلاً) التي تعتمد على المطر كل سنة، وإذا أخلف الموسم مرة واحدة غارت المياه. ولذلك لا يتم التوسع والاعتماد على زراعة الأشجار المعمرة كالنخيل في مثل تلك المناطق.

(*) معجم الدبلوماسية والشؤون الدولية، سموحي فوق العادة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٩م.

(**) سلالتهم أسر البكيرية المعروفين، السويلم، العمير، الخضير، الدخيل الله.

(٢) الأرض الطينية لهذه الروضة سهلة المعالجة للحرث والحفر والتسوية للزراعة الحقلية. أما ما يتعلق بحفر الآبار فإنهم في وسط الروضة (البكيرية) يضطرون للحفر في الصخر من رأس البئر إلى قاعه، صخرة واحدة يتم النحت فيها حتى يخرج الماء. إلا أن الطبقة الصخرية في البكيرية هي من النوع الأحمر الذي تتراوح صلابته بين القابل للتفتيت، إلى متوسط الصلابة لكنها ليست من الحجر الصلد، إلا أنه يمكن أن ينحت منه ألواح صخرية بأحجام كبيرة (١٥٠×٧٠×١٠ سم) أو أكبر حسب إمكانية التحميل والنقل على البعير، ولها استخدامات كثيرة هامة. وإذا ابتعدنا عن الوسط يكون الجزء السفلي للبئر منحوتاً في الصخر والجزء العلوي مبني بالحجارة لمنع الرمال (مَطوي).

(٣) توافر الشروط "الكلاسيكية" لقابلية المكان للاستيطان وهي الماء، والأرض الزراعية، أو الرعوية، أو كليهما معاً، وتوافر الحطب وهي جميعاً متوفرة بدرجة مريحة جداً في البكيرية مقارنة بغيرها.

(٤) هناك ميزة أخرى لموقع البكيرية فهو قريب نسبياً من الكتلة الحضرية الكبرى في القصيم، فهي تتوسط المثلث المكون من كبريات مدن القصيم بريدة وعنيزة والرس وغيرها من الحواضر الصغيرة في مختلف الاتجاهات. وهذه ميزة يمكن النظر إليها من عدة زوايا اقتصادية، واجتماعية، وأمنية.

(٥) تنوع طبيعة الأرض في البكيرية، فبالإضافة إلى المنخفض الطيني الموصوف في الصفحات السابقة، هناك مرتفع رملي على شكل هلال يحتضن البكيرية (خاصة المزارع) من الشرق وجزء من الشمال والجنوب. هذا المرتفع الرملي ليس من الرمال الناعمة المتحركة بل هي مساحات من الأراضي اللينة الثابتة المتماسكة بسبب انتشار الشجيرات الدائمة المثبتة للرمال وينمو فيها كثير من الحشائش الموسمية التي تتحول إلى

مراعي ممتازة في أواخر الشتاء وأول الربيع. كما أن هذه المرتفعات الرملية تمتد بعيداً إلى بريدة وعنيزة وهو ما يسمى بـ (الغميس). وبين هذه التلال الرملية هناك منخفضات طينية تسمى بـ (النقَع) جمع نقعة، وهي منخفض طيني تحيط به مرتفعات رملية من جميع الجهات فيكون المنخفض ارضاً صالحة للزراعة إذا كانت واسعة بالقدر الكافي.

وفي المناطق الرملية الشرقية يكثر الغضى الذي يعتبر مصدراً هاماً، ليس للحطب فقط، ولكن أيضاً لاستخدام أخشابه في بناء المنازل والاستخدامات الأخرى. أما المرتفع الغربي فهو أيضاً يحيط بالبكيرية من الغرب ويحتضنها على شكل هلال صخري لا يرتفع كثيراً عن سطح الأرض، وأحياناً لا يظهر على سطح الأرض، وهو من نوع الصخور ذات اللون الأحمر الداكن، يعتقد أنه غني بمعدن الحديد. وهذه الأرض لا تعتبر معادية للزراعة إلا من حيث قساوة الأرض للمعالجة والتسوية والحراثة والحفر، خاصة مع تخلف المعدات المناسبة، وكذلك وجود أراضي بديلة أيسر مؤنة للزراعة.

هذا الحزام الصخري المميز باللون الأحمر والمميز بطبيعته الوسطية بين الصلابة الشديدة والليونة، جعله مادة نافعة للبناء وتحصين الآبار والأحواض والبرك. فهو سهل التشكيل، ويمكن الحصول منه على ألواح كبيرة جداً بقدر ما يمكن نقله على البعير من المنجم (المحجر) يسمونه (مَقطَع) إلى مكان الاستخدام (المزرعة أو المنزل). وهذا المرتفع الصخري ليس عسيراً على الارتياد أو العبور وليس أرضاً قاحلة. ففي الربيع يعتبر من أجود المراعي ويوجد فيه أشجار أو شجيرات موسمية وحشائش متنوعة، خاصة العرفج يجمعه بعض الناس في الربيع ويخزنونه علفاً للإبل، وهذا (المرتفع الصخري) يعتبر "إجمالاً" مصدراً اقتصادياً هاماً، كما أنه يزود روضة البكيرية بالماء والطمي، فجميع أمطاره تنحدر إلى المنخفض الذي تشكلت فيه روضة البكيرية.

الآباء المؤسسون

رغم أن المكان قد عرف واشتهر بنسبته إلى البكيري، إلا إن المصادر التي تروي تاريخ البكيرية لم تبين ما إذا كان محمد البكيري كان يزرعها أو أجزاء منها بصورة مستمرة أم لا، ولا مدة تملكه لها، ولا تذكر هذه المصادر موقع بئر البكيري، إن كان قد قام فعلاً بحفر بئر فيها. ولذا يكون أبناء عثمان بن سويلم هم مؤسسوا بلدة البكيرية. ويبدو من سلوكهم أنهم يميلون إلى الجدية والجوانب العملية للأمور ولا يكترثون كثيراً للشكليات. فمثلاً لم يهتموا بإعطائها اسماً جديداً يختارونه هم يحمل اسم أسرتهم أو عشيرتهم مثلاً. لكنهم من الناحية الفعلية عملوا بجدية وحزم على تثبيت ملكهم فيها نظامياً من إمارة بريدة، وعملياً بتحديد حدوها، وذلك بحفر آبار في أطرافها الجنوبية والشمالية لتحديد حدودها مع الأملاك المجاورة، إذ لا خطر من الاختلاف على الجهات الشرقية والغربية فحدودها طبيعية.

ومن ناحية أخرى فقد رحبوا وشجعوا من توسموا فيهم الجدية والصلاح بحيث منحوهم أراضي من أملاكهم للزراعة والسكن. وهذا ما عجل بنموها، وتقاطر الناس عليها من مختلف المناطق والقبائل حتى تجاوزت قرية الهلالية المجاورة مع انها أقدم منها بقرون، تجاوزتها في عدد السكان، وحجم الإنتاج، وتنوع النشاط الاقتصادي الناجم عن زيادة السكان.

ومن الطبيعي أن يكون لأبناء عثمان بن سويلم اليد الطولى في اتخاذ القرارات المتعلقة بشئون البكيرية ما داموا مالكين للأرض ويمنحون ويمنعون حسبما يرونه يحقق المصلحة. ولذا يمكن النظر إليهم على أنهم هم أهل السلطة المحلية لهذه القرية الناشئة. وقد تم تعيين أحدهم أول أمير رسمي للبكيرية في عام ١٢١٠هـ من قبل إمارة بريدة، وبقيت إمارة البكيرية محصورة في هذه الأسرة طيلة تاريخها إلى وقت قريب.

شخصية القرية

وهنا يمكن طرح سؤال قد تحتاج الإجابة عليه مساهمة من علماء النفس والاجتماع والسياسة. والسؤال هو: بما أنه في جميع أنحاء العالم وعبر التاريخ يلاحظ المرء أن لكل أهل قرية ما يميزهم ويشتهرون ويعرفون به من بين القرى المجاورة، (بعض العادات والسلوك والنظرة إلى الأمور واتخاذ القرارات والمواقف... وغيرها) وهذه الاختلافات يلاحظها أهل الإقليم ويقولون دائماً إن أهل القرية الفلانية يتميزون بكذا (صفة أقرب إلى السلبية أو إلى الإيجابية)، وأهل القرية الأخرى على عكس ذلك، وأهل القرية الثالثة يميلون إلى كذا ... وهكذا.

والسؤال هو: هل لطبيعة شخصية المؤسسين (رؤيتهم للمستقبل، التفاؤل، الكرم، الانعزالية، الميل للمغامرة، الميل إلى التروي والمحافظة في اتخاذ القرارات وغيرها من الصفات)، وهل لظروف التأسيس (ملكية الأرض من قبل المؤسسين وبالتالي منح الآخرين أو البيع عليهم) وما ينتج عن هذا من علاقة بين الممنوح والمانح والفرق بينها وبين العلاقة بين البائع والمشتري، وهل هناك عوامل أخرى تشكل شخصية القرية.

ومن أهم الملاحظات أنه لم يحدث في تاريخ البكيرية أن أظهرت أسرة أو شخص تحدياً لأسرة آل سويلم لتولي إمارة البكيرية ما عدا محاولة واحدة، في الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري وانتهت بسرعة لم تخل من بعض العنف.

وهل يمكن الاستنتاج مما ذكر في الصفحات السابقة ما يستدل به على تفسير أو تحليل لأسباب وصف سلوك الفرد من أهل البكيرية، أو التنبؤ بموقف أهل البكيرية إجمالاً من مسألة معينة، وسبب أو أسباب أن أهل البكيرية إجمالاً يوصفون بالمحافظة بصورة عامة في النظر إلى الأمور، وفي اتخاذ القرارات، وفي تبني المواقف، كالمبالغة في

الواقعية، وعدم الإفراط في التفاؤل وعدم التسرع وعدم المبالغة في المباهاة بصورة عامة وغيرها من أشكال السلوك الذي يوصف بأنه شديد الميل إلى المحافظة. أم أن هناك أسباباً أخرى يعزى إليها تشكل شخصية أي مجتمع من المجتمعات. وعلى أية حال، هذا الكتاب لا يهدف إلى الإجابة على مثل هذه الأسئلة أو إصدار أحكام، فالهدف الأساسي هو إلقاء الضوء على أبرز المعالم الاقتصادية والاجتماعية لحواضر وسط الجزيرة العربية قبل النفط، وتأثير النفط في إحداث التحولات الاقتصادية وبالتالي الاجتماعية والثقافية. وما اختيار البكيرية إلا كأنموذج فقط.

الفصل الثاني

اقتصاد بلدة البكيرية قبل النفط

(أ) جغرافية البكيرية

كما أوضحنا في الصفحات السابقة أن روضة البكيرية عبارة عن منخفض طيني بين مرتفعين، تقدر مساحته بـ ثلاثة آلاف دونماً (ثلاثمائة هكتار تقريباً). وهذه المساحة كلها صالحة للزراعة، وماؤها صالح للشرب، ولكثير من أنواع المنتجات الزراعية، ومستوى الماء مستقر عند مستوى عمق ٦ – ٨ أمتار تقريباً ولا يتأثر هذا المستوى بانحباس المطر لعدة سنوات. وتغذيه الأمطار الشتوية، إذ أن جميع السيول على المرتفعات الغربية كلها تتجه نحو وسط البكيرية لدرجة أن الآبار في الوسط تفيض بالماء بعد السيل مباشرة. والأرض طينية سهلة الحرث والتسوية وهي خالية من الحجارة أو الحصباء على سطح الأرض.

في البداية[١] كانت هذه المساحة كافية للزراعة وبناء المساكن معاً، فقد كانت المساكن القديمة جداً مبنية على أراضي صالحة للزراعة خلافاً للحكمة التي تناقلتها الأجيال من أيام الفراعنة التي تقول "لا تبني منزلك على أرض زراعية". لكن تزايد

(١) أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر الهجري.

السكان المتسارع تطلب التوسع في الزراعة خارج البلدة، وبناء المساكن على أراضٍ غير زراعية.



صورة رقم (٦). تضاريس البكيرية (صورة جوية حديثة).

(ب) الموارد الاقتصادية

الموارد الطبيعية: (الأرض، المياه، النباتات الطبيعية)

(١) **الأرض**: مساحة الأرض الطينية الصالحة للزراعة حوالي ثلاثة كيلومترات مربعة وهي في البداية تعتبر مساحة كبيرة نسبياً في وسط الصحراء، وكذلك كبيرة بالنسبة لعدد السكان الباحثين عن أرض زراعية في ذلك الوقت، وهي كبيرة نسبياً إذا علمنا بدائية أدوات وطرق استخراج الماء من جوف الأرض (السواني) وعلمنا بدائية وتخلف الأدوات المستخدمة في الحرث والتسوية والحصاد. يضاف إلى ذلك بر البكيرية وهو مساحة واسعة جداً من ثلاث جهات (الشرق، الغرب، والشمال) وهو

لا يقل أهمية عن أرض البكيرية (البلد) من حيث أنه مورد اقتصادي هام جداً للزراعة والرعي والاحتطاب والمحاجر.

(٢) **المياه**: حالة الماء في البكيرية متوسطة، فهي ليست واحة عيونها جارية أو شبه سطحية، ولكن مياهها ليست شحيحة، وليست عميقة، وليست ذات نوعية رديئة، من حيث أنواع الأملاح الذائبة في الماء وكمية هذه الأملاح. وكما بينّا سابقاً أن الحصول على الماء يتم بحفر الآبار بعمق سبعة أمتار تقريباً ويتم الحصول على ماء كاف لزراعة بستان من النخيل والأعلاف والقمح ما يزيد عن حاجة الفلاح وأسرته للعيش الكريم حسب مستوى المعيشة السائد آنذاك. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يزيد عن قدرة التقنيات المستخدمة في استخراج الماء (السواني).

ونوعية المياه في البكيرية تختلف من بئر إلى آخر من حيث الصلاحية للشرب أو الملوحة. فقد تختلف المياه في بئرين لا يفصل بينهما خمسة أمتار(*) فهذا صالح للشرب والآخر غير مقبول في الظروف العادية.

وتتميز مياه الشرب في البكيرية بأنها صحية من حيث أنها جوفية لا تلوث بكتيري فيها، وأن أنواع الأملاح (خاصة أملاح اليود والكبريت) في المياه نسبتها معقولة من ناحية ومن ناحية أخرى، لا يظهر لها آثار سيئة على العظام. وهذا ملاحظ على أسنان الناس الذين عاشوا في البكيرية في ذلك الزمان. وقد كان الناس يعرفون القادمين من البلدات الأخرى أحياناً بنوع أثر المياه على أسنانهم، فبعضها كبريتي، وبعضها يحدث بقعاً ملونة في الأسنان. والملاحظة الأكثر أهمية هنا أن المياه تتميز بثبات المستوى ولا تتأثر بانحباس المطر لعدة سنوات. والزراعة في البكيرية كلها مروية ولا يوجد زراعة مطرية (بعل) على الإطلاق. لكن يحدث أن يغامر البعض في أحد المواسم

(*) هذا أعرفه شخصياً وهو مشهور في وقته. (قليب العمير وقليب اليوسف).

الشتوية ويزرع بعلاً (قمحاً) في روضة عنز أو روضة ساق(**) أو ما شابهها ولكن هذا لا يتكرر كثيراً.

(٣) النباتات الطبيعية: يعتبر الغضى والارطى أهم الأشجار الكبيرة التي ينتفع بها الناس في البكيرية في ذلك الوقت. فالغضى مصدر مجاني متاح للجميع، والأثل غالي الثمن. والغضى قريب جداً فهو موجود على أطراف البلدة ويستخدم كأخشاب (ليست طويلة جداً وليست مستقيمة جداً). لكنه يسد الحاجة للسقوف خاصة في المباني القديمة والحواجز وما شابه ذلك. وقد كان الغضى أهم مصدر للطاقة أيضاً فهو الوقود الأساسي نظراً لكفاءته العالية ولسهولة الحصول عليه (وشهرة جمر الغضى معروفة). ويأتي الأرطى بعده في الدرجة الثانية، وتزداد أهميته (الأرطي) كلما تقلصت مساحة الغضى بعد تكاثر السكان. أما الأشجار والشجيرات الأخرى فهناك أنواع كثيرة تستخدم للوقود وتأكلها الدواب كالعرفج والعريفجان، والحاذ، والعجرم، والرمث، والجثجاث والقتاد.

وإلى جانب هذا توجد أعشاب موسمية في الشتاء والربيع وهي مهمة لرعي الحيوانات وتنبت أنواع منها في المرتفعات الغربية (الصخرية إلى حد ما). وهذه يستفاد منها في الرعي وكذلك جمع بعضها كالعرفج والقتاد (تنطق محلياً "تستاد") وهي غذاء للإبل تجمع في آخر الشتاء أو الربيع وتجفف وتخزن، والتستاد يستحسن أن يمرر على النار، "فحتى البعير يفضل بعض علفه مشوياً".

أما المناطق الشرقية (الأراضي اللينة) فبالإضافة إلى أنها رمال مستقرة، أي أنها ليست رمالاً متحركة ناعمة، فهي تنبت أنواعاً من الحشائش الموسمية النافعة كمرعى لجميع أنواع الحيوانات. ونظراً لطبيعة الأرض السهلة فإن الأهالي لا يكتفون بما ترعاه

(**) أراضي خصبة تتجمع فيها مياه الأمطار تبعد ٢٠ – ٢٥ كم شمال غرب البكيرية.

حيواناتهم، بل أنهم يستغلون الفرصة ويجمعون هذه الحشائش في موسمها ويقومون بتجفيفها وتخزينها قبل أن تجف في منابتها وتذروها الرياح.

ويعتبر نشاط جمع الحشائش من الأنشطة الموسمية الثابتة. إذ إنه بعد هطول الأمطار وانكسار شدة البرد تكسو الحشائش جميع الأراضي المحيطة بالبكيرية من الشرق والجنوب الشرقي والشمال الشرقي. ومما يغري أنها أراضٍ لينة يسهل جمع العشب منها بمحش الفلاح أو ما شابه ذلك، إلا إنهم فوق ذلك، في البكيرية، وربما في كثير من بلدان القصيم قد صنعوا آلة بسيطة تشبه ماكينة الحلاقة القديمة (ذات شفرة من جانب واحد فقط) تسمى المِقشَعة يحلقون الحشائش بها من سطح الأرض كحلاقة الرؤوس بالموسى وهي أداة فعالة وإنتاجيتها عالية جداً ولذلك فهي منتشرة وتصنع محلياً، ولسهولة صنعها فإن النجار هو الذي يصنعها ولا حاجة للذهاب للحداد.

وفي موسم الربيع ينصب كثير من الناس خيمة ويسكن في الخلاء إذا كان العشب كثيراً ويتفرغ لجمع العشب لشهر أو أكثر حتى ينتهي العشب تماماً. وهذا العشب بعد تجفيفه وتخزينه يعتبر سلعة ثمينة جداً يرتفع الطلب عليها في أول الشتاء. ولذلك تجد بعض الناس لا يخرج لجمع العشب بل يشتريه يومياً من بعض النساء اللاتي يخرجن في الصباح الباكر لجمع العشب ويبعنه مساء نفس اليوم، فكثير منهن وفي كثير من الأوقات يكون ثمن حصيلتهن من العشب ذلك اليوم يشترى به عشاء الأسرة لنفس اليوم.

ويذكر البعض واقعة معروفة تبين أهمية العشب بسبب الظروف الاقتصادية القاسية لغالبية الناس. ففي أحد الأيام الباردة جداً تجمعت النسوة كالمعتاد، بعد صلاة

العصر في المكان المعروف (سوق الخطبة)(*) لبيع حصيلتهن من العشب الذي جمعنه من فجر ذاك اليوم. وكانت الظروف في تلك الأيام من أشد الأيام قسوة وكساداً وشحاً. وقد أوشكت الشمس على المغيب ولم يظهر أحد من المشترين الجادين، ولاحظ الأمر أحد العقلاء الذي رزقه الله قدراً من العقل والحكمة وحب الخير أكثر كثيراً مما رزقه من المال والتجارة. وكان يعلم أن كل واحدة من هذه النسوة تنتظر مشترياً لحصيلتها لتشتري بها فوراً ما تطعم به أسرتها ذلك اليوم وإلا ذهبوا جميعاً إلى النوم ببطون خاوية. وقبل غروب الشمس ذهب هذا الرجل مسرعاً إلى أحد الأثرياء (ليس أكثر أهل البكيرية ثراء ولكنه من أهل الخير)، وقال له يا أبا فلان "ها الحريّم بالخِطبة (أي في سوق الخِطبة) جاهن الليل ولا أحد سام حشيشهن، وأكثرهن عشاء أهلهن اليوم على الله ثم عليه، وهذا رزق ساقه الله لك، وأنا بارّك فيه. وعلى الفور ذهب الرجل الميسور إلى سوق الخطبة قبيل الغروب وكان منزله قريباً من مكان تجمع النسوة، وقال لهن بصوت مرتفع (اللي تبي تبيع حشيشه بكذا (ثمن أكثر من المعتاد) تشيل حشيشه وتلحقني، فلحقنه جميعاً، وعندما وصلن إلى منزله وقد أذن المغرب قال من تريد تمراً أو قمحاً بدل النقود فهو بكذا ومن تريد النقود فهي بالخيار فطلب أكثرهن قمحاً والباقي طلبن تمراً أو نقوداً.

(*) سوق الخطبة هو الشارع الذي يحد المسجد الجامع الوحيد من الجهة الغربية (القبلية) وفيه جزء مسقوف حول محراب المسجد الجامعة، وفي جدار المحراب فتحة صغيرة تخدم غرضين، أحدهما تدخل الضوء لخطيب الجامع لقراءة الخطبة، والغرض الثاني ينقل صوت الخطيب إلى النسوة اللائي حضرن خصيصاً لسماع الخطبة. والمكان خارج المسجد ووجود النساء أثناء الخطبة يغلق الشارع تماماً، وبعد خطبة الجمعة مباشرة تنصرف جميع النساء إلى منازلهن ولا مجال لأن يصلي أحد منهن مع الإمام في الشارع.

وبصورة عامة فإنه بالنسبة للنباتات الطبيعية أشجاراً كانت أو حشائش موسمية فإن البكيرية لا تنفرد عن بقية بلدات منطقة القصيم بشيء اللهم إلا أنها تجمع ما بين حافتها الشرقية الرملية وخصائصها وحافتها الغربية الصخرية السمحة وخصائصها تنوعاً نباتياً أكثر من غيرها.

(ج) حجم السكان

نقل الشيخ محمد بن ناصر العبودي في معجمه (الرائع)(*) أن أحد الغربيين الذين مروا بالقصيم على رأس القرن الثالث عشر قد قدر عدد منازل البكيرية بمائة وخمسين منزلاً. ولكن هذا التقدير لا يصلح للبناء عليه في تقديرات السكان لعدة أسباب: أولها أن صاحب الرواية قرن هذا الرقم بعدد من المعلومات الوصفية غير الصحيحة للبكيرية، ثرائها، ومنتجاتها، وعشائرها، وأهلها، وكذلك لم يبين الكاتب (الأوروبي) هل عدد المساكن يشمل مساكن المزارع أم لا. وهذا يخلق فرقاً كبيراً.

فمن حيث الثراء لم تكن البكيرية ذات ثراء ظاهر لافت للنظر في أي وقت قبل النفط. فلا يوجد قصور أو مساكن فارهة تدل على الثراء، ولا يوجد مزارع واسعة ولا يوجد سوق تجاري كبير. وكذلك فالبكيرية، كما أوضحنا سابقاً، ليس لقبيلة عتيبة أو مطير وجود في البكيرية في تلك الفترة على الإطلاق، ولم تكن منتجاتها كما ذكر، لا من حيث الكم ولا النوع. وحتى الشيخ العبودي قد لاحظ خطأ الكاتب الأوروبي. ولذلك يجب التنبيه هنا إلى أنه ليس كل ما يكتبه الرحالة الأوروبيون صحيحاً، بل يجب التحقق والتثبت فقد يكون الرحالة قد عاشوا وعرفوا عن البدو أكثر كثيراً مما عرفوا عن الحضر وذلك واضح من كثرة ما كتبوا عن البدو والقبائل مقارنة بما كتبوه عن الحضر.

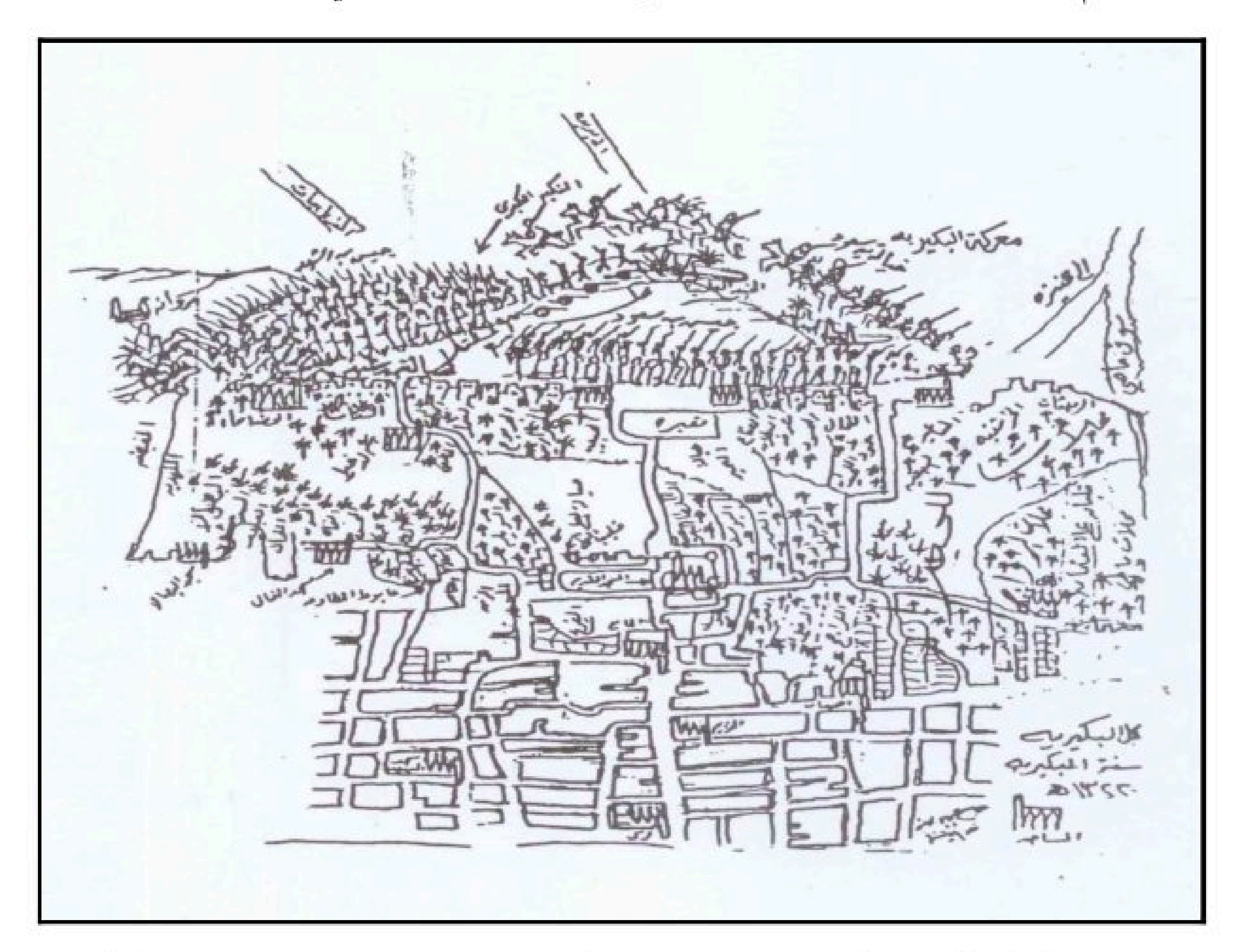
(*) مرجع سابق.

ولكن يمكن تقدير حجم البكيرية جغرافياً ومن ثم تقدير عدد السكان بالاعتماد على المعالم العمرانية التي يكون تاريخ إنشائها معروف بدقة. وأهم هذه المعالم هي المساجد إذا أن المسجد غالباً يكتب عليه تاريخ إنشائه ومن أنشأه. والمسجد يدل على أن المساكن تحيط به.

ويمكن إعطاء تقدير تقريبي لمساحة المساكن في البكيرية في نهاية الثلث الأول من القرن الثالث عشر (١٢٣٢هـ) حيث تم إنشاء مسجد الخزيم. فموقعه يدل على أن نمو البكيرية من حيث تمدد المساكن قد كان سريعاً جداً. ويمكن تفسير هذا النمو السريع للمساكن، ليس بسبب التكاثر الطبيعي، ولا بعامل الهجرة فقط وهو عامل مهم، ولكن أيضاً باستبدال المساكن القديمة القريبة جداً من المزارع وهجرها والبناء في المناطق المرتفعة القريبة، بحيث أصبحوا يطلقون على منطقة المساكن القديمة (الخراب) لأنه قد تم هجرها وأصبحت خراباً.

وفي رسم يدوي تقريبي لخريطة البكيرية لشخص يمكن الاعتماد على روايته من الناحية الفنية (نظراً لمعرفته بالرسم)، وكذلك من حيث معرفته بالبكيرية وتاريخها وتطوراتها. هذا الشخص هو أمير البكيرية الأسبق محمد بن يوسف بن دخيل الله رحمه الله وهو أحد أحفاد أحد الآباء المؤسسين، ولديه اهتمام كبير في هذا الشأن. هذا الرسم أورده في كراسة غير منشورة كتبها عام (١٤١٩هـ) عنوانها "الوثيقة وما أهمله التاريخ لمدينة البكيرية". الرسم يبين أن مساحة البكيرية عام ١٣٢٢هـ أكبر بكثير مما ذكره الكاتب الأوروبي. ويقدر الشيخ صالح الخضيري أن سكان البكيرية عام ١٣٢٢هـ حوالي ٢٠٠٠ نسمة، إلا أنه لم يفصل في ذلك من حيث المرجع أو طريقة الحساب ... الخ. إلا أنه في عام ١٣٨٠هـ أصبح عدد السكان ٤٥٠٠ نسمة، و٦٤٠٠ نسمة في عام ١٣٩٣هـ، وفي عام ١٤٠٣هـ أصبح الرقم ٨٤٠٠ نسمة، وبعد عقد من الزمان قفز الى

١٠٥٠٠ نسمة. وهذا يعني أنه خلال مئتي (٢٠٠) سنة أصبح سكان البكيرية ٥٠٠٠ نسمة، ثم تضاعف عدد السكان خلال أقل من نصف قرن (حوالي ٤٠ عاماً).(*)



صورة رقم (٧). البكيرية القديمة، كما تصورها المرحوم محمد بن يوسف بن دخيل الله في عام ١٣٢٢هـ.

وللمرحوم محمد بن يوسف الدخيل الله فضل كبير فـي أن جعـل البكيرية تنفرد عن جميع المدن والقرى فـي منطقة نجـد، بأن لها خريطة دقيقة رسمها بيده فـي

(*) صالح الخضيري، البكيرية: تاريخها – جغرافيتها – رجالاتها، الدار الصولتية للتربية،، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٦٣.

أوائل الثمانينيات من القرن الرابع عشر الهجري (١٣٨١هـ)، والخريطة هـذه موجـودة ومنتشرة ومعتمـدة فـي دقتها من الجهات الرسمية فـي ذلك الوقت، وعلى أساس هـذه الخريطة نفـذت شبكة تزويد المنازل بالمياه فـي أوائل الثمانينيات من القرن الماضي.

(د) عنصر العمل

يعاني عنصر العمل في فترة ما قبل النفط فـي حواضر وسط الجزيرة العربية من البطالة المقنعة(*) معظم أيام السنة، أي أن طاقة العمل الـموجودة تفيض عن كمية العمل المطلوب. وبما أن العمود الفقري للاقتصاد فـي القرى والبلدات وسط الجزيرة العربية هو الزراعة فإن طابع الطلب علـى العمل يتأثر موسمياً حسب نوع الإنتاج ونوع الاحتياجات المطلوبة. فزراعـة الـمحاصيل الموسمية لها ترتيبات قبلية، كالحرث والتسوية والبذار وغيرها. ولها طلب علـى العمل عند جني المحصول والحصاد والدرس وغيرها.

وفي المزرعة في الحياة اليومية الكل يعمل الرجال والنساء والصبيان والبنات. ولكن فـي موسم حرث الأرض هناك حاجة إلى رجال أشداء يقومون بحراثة الأرض لأن الحرث، يسمونه الخَتام فـي منطقة القصيم يقوم به الرجال فقط. ولا يستخدم

(*) قد لا يتطابق هذا مع التعريف الأكاديمي الضيق الذي يأخذ به الكثير من المهتمين باقتصاديات العمل. ولكن في المجمل فإن البطالة في تلك المناطق في تلك الأزمنة ليست موسمية فقط ولكنها بطالة حقيقية بدليل هجرة كل من سنحت له الفرصة من الشباب، والدليل الآخر الأكثر وضوحاً هو كثرة أعداد المسافرين من البكيرية بعد توحيد المملكة مباشرة إلى الرياض والمنطقة الغربية والمنطقة الشرقية بعدها بقليل للبحث عن عمل.

المحراث الذي تجره الحيوانات مطلقاً، وعلى الأقل في البكيرية من المؤكد أنه لا يستخدم المحراث ابداً بل تحرث الأرض بالمسحاة، حتى أنهم يزيدون في طولها عمداً لرفع إنتاجيتها، ويسمونها "الماصولة" أي الموصولة، أي مزيدة عن حجمها الأصلي بقطعة من الحديد من جنسها. وليس لدي أي تفسير لعدم اعتمادهم على الحيوانات لحرث الأرض، أهو لأن الأرض في القصيم مطواع يكفي لحرثها مجموعة من الرجال الأشداء كل منهم مزود بمسحاة كبيرة، أو لأن مؤنة حيوانات الحرث أكثر من تكلفة العمال؟.

لكنهم يعتمدون على الإبل فقط في استخراج الماء من الآبار (السواني) والملاحظ أنهم في القصيم لا يستخدمون في السواني إلا الإبل حصراً. ولذلك لا تستخدم البغال أو الحمير الضخمة القوية كالشهري والحساوي أو الخيل ولا تنتشر في القصيم. ومن المؤكد أنها لا تستخدم في البكيرية.

إذاً، في الأحوال العادية يستطيع المزارع وعائلته تشغيل المزرعة ولكن عند الحرث والبذار والحصاد والدرس لا بد من عمالة إضافية.

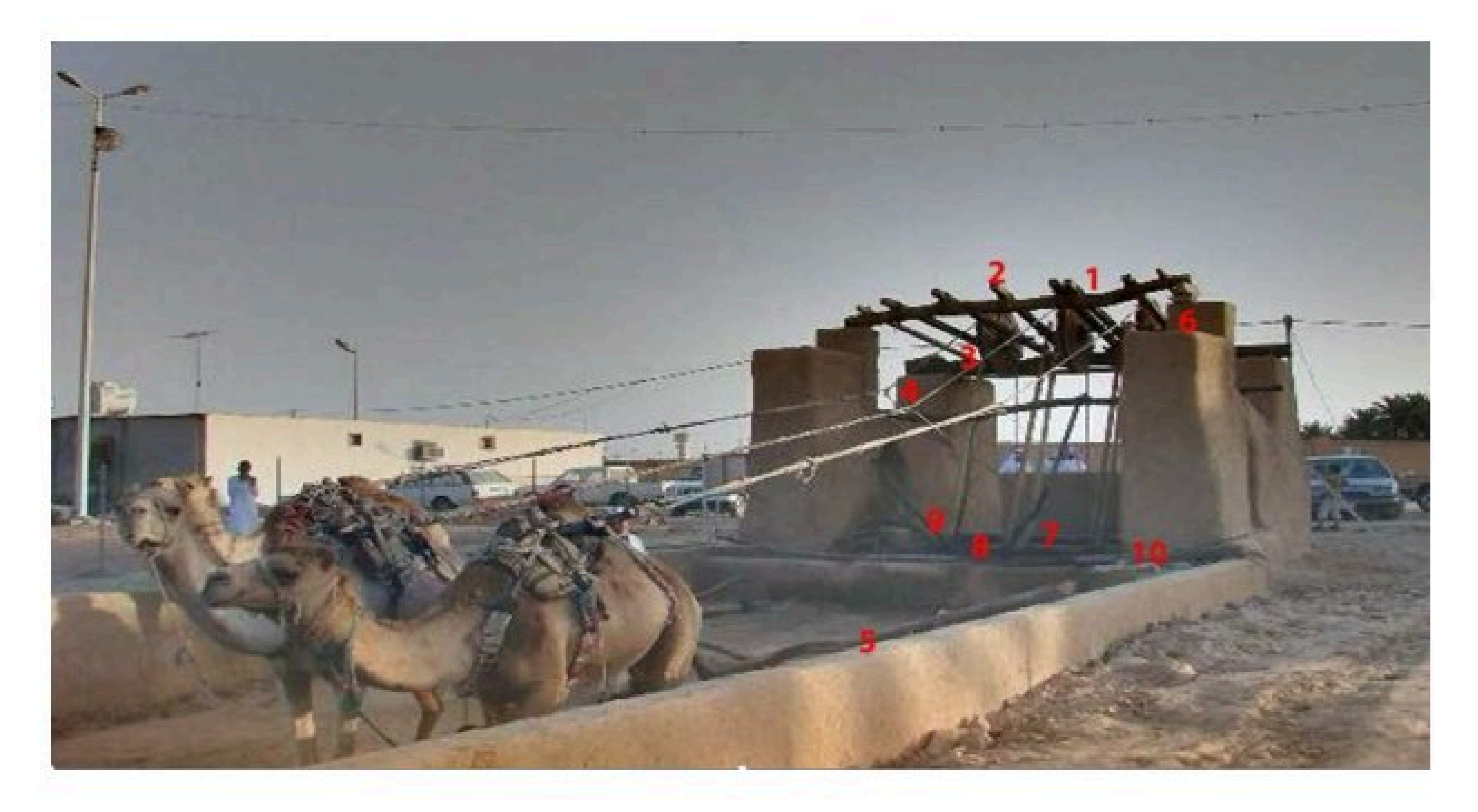
وبالنظر إلى نوعية عنصر العمل من حيث العلم والمعرفة وسعة الاطلاع نجد أن الأمية تعم جميع الناس باستثناء عدد قليل جداً جداً لا يكاد يذكر.

هذا فيما يتعلق بالأمية الأبجدية، القراءة والكتابة، ولكن لا يتوقف الأمر على هذا، فالقراءة والكتابة عملياً تعتبر ترفاً زائداً بسبب استقرار الأساليب والأدوات والمعارف الإنتاجية دون تغيير لقرون طويلة، أي أنه لا يوجد علاقة قوية بين التعليم والإنتاجية في القطاع الرئيسي (الزراعة). فالأدوات المستخدمة وطرق استخدامها وأنواع المنتجات الزراعية محدودة جداً، ولذلك لا علاقة لها بالتعليم، بل يتم تعلمها بالممارسة.

ويمكن القول إن مستوى المعارف الإنتاجية متدن جداً، وأهم جانب يمكن ملاحظته في هذا المجال، جهلهم بكثير من المنتجات الغذائية النافعة والتي لا تكلفهم شيئاً على الإطلاق رغم حاجتهم الماسة لأي مصدر إضافي من البروتينات والنشويات، مثل بعض البقوليات، والخضروات التي يمكن زراعتها على حواف مجرى الماء، حتى تلك التي يعرفونها ويزرعونها كاللوبيا مثلاً، لا يتوسعون فيها رغم أن التكلفة الإضافية لمضاعفة إنتاج اللوبيا تساوي صفراً تقريباً، وهي (مصدر هام للبروتين والنشويات). وهذا ناتج عن جهلهم بالقيمة الغذائية لكثير من المحاصيل المعروفة في بعض البلدان العربية بل وحتى في بعض المناطق في الجزيرة العربية. ولكن كما هو معروف أن المناطق الداخلية تكون (شبه معزولة) وتتميز بالانغلاق المعرفي نظراً لقلة الاحتكاك بالثقافات الأخرى، وهذا ينعكس سلباً على درجة تقبل الجديد من الأساليب والأفكار بصورة عامة، ومقاومة التغير أياً كان هذا التغير.

هذا لا يعني أنهم لا يزرعون خضروات أو فواكه، بل يوجد أنواع من القرع، والباذنجان، واللوبيا والبطيخ والبصل وبعض الأعشاب الطبية (كالكمون، والكزبرة، والحبة السوداء، والحلبة والرشاد وغيرها. ولكن نظرتهم إلى هذه المنتجات أنها مكملات أو زوائد أو لكي يزيد من الكمية المطبوخة كالقرع والبصل بإضافته إلى المرقوق والقرصان، أو النظر إليها على أنها منتجات علاجية تزرع لأغراض طبية فقط.

كذلك من الملاحظ أنهم لا يتوسعون بتربية بعض الحيوانات والدواجن في مزارعهم التي لا تضيف تكاليف تذكر لتربيتها كالأرانب والدجاج بل حتى الأغنام رغم أن غذاءهم كان غالباً عند حد الكفاف كماً ونوعاً. وهذا يذكرنا بمثل برازيلي يقول "إن الفلاح لا يأكل الدجاج إلا إذا كان أحدهما مريض الدجاجة أو البرازيلي".



صورة رقم (٨). السواني (العدة): (١) الدامغة، (٢) المحالة، (٣) الرشاء، (٤) السريح، (٥) المنحاة، (٦) الزرنوف، (٧) الدراجة، (٨) اللزاء، (٩) الكافة، (١٠) المعلف.

وعند مناقشة عنصر العمل يتبادر إلى الذهن قوة العمل وهي تعتمد على حجم السكان والتركيبة السكانية. وحجم السكان يعتمد على توفر الحاجات الضرورية للحياة (الأمن والغذاء)، وهذان العنصران يمكن القول بأنهما يتوفران، في البكيرية، بدرجة مقبولة للبقاء على قيد الحياة.

ولكن عدد السكان يحكمه ما يمكن تشبيهه بـ"الانتخاب الطبيعي"، فالثقافة الصحية متخلفة جداً جداً والمؤسسات الصحية غير معروفة على الإطلاق، وكذلك الأدوية الصيدلانية الحديثة لا يعرف منها شيء ابداً. ولكن مما يساعد على نمو السكان، ربما لأن الصحراء بطبيعتها تعتبر بيئة صحية، وربما نتيجة لمحدودية الانتقال بين المراكز السكانية وتدني الاتصال بالعالم الخارجي، وتطرف المناخ، هذه كلها عوامل تحد من الانتشار السريع للأوبئة. ومع ذلك فإن الأمراض ووفيات

الأطفال جزء من حياة الناس، ولكن رغم كل ذلك فإن موارد منطقة نجد لا تستطيع مواكبة التكاثر الطبيعي للسكان. ولهذا تعتبر منطقة وسط الجزيرة العربية تاريخياً منطقة طرد سكاني في مختلف الاتجاهات. وهناك قول مشهور (نجد تالَد ولا تغَذَى).

هذه البيئة القاسية والموارد الشحيحة والمعارف المتدنية ساهمت في بناء مجتمعات يتميز أفرادها رجالاً ونساءً بالإيمان والصلابة والعزيمة والإصرار والصبر وتحمل المشاق لتحصيل العيش بكرامة وإباء وفخر واعتزاز، ولم يعرف أن سوء الأحوال الاقتصادية أو حتى المجاعات في هذه المجتمعات قد قادت إلى انتشار الرذيلة مثلاً، وهو ما يحدث في حواضر بعض المجتمعات في العالم.

(هـ) رأس المال

ويقصد برأس المال هنا الأصول المنتجة، التي أنتجها الإنسان للاستعانة بها في عملية الإنتاج، وليس المقصود المال بصورته النقدية. وربما كان سبب الخلط بين رأس المال، والنقود، هو أن النقود أسرع شيء يمكن تحويله إلى رأسمال منتج، فمن أراد مكينة أو أداة حفر بئر أو تسوية أرض أو أي شيء من مستلزمات الإنتاج، وكان يملك النقود، عندها يسهل عليه شراء ما يريد أو استئجاره ولا يواجه أي مشكلة.

وإذا نظرنا إلى رأس المال المتاح وسط جزيرة العرب قبل النفط (أي الآلات والمعدات وغيرها)، وإذا أخذنا البكيرية كمثال فإننا نجد أن رأس المال المنتج (الأدوات والمعدات والآلات) متدني المستوى، بدائي جداً.

ففي الزراعة وهي النشاط الاقتصادي الرئيسي للسكان فإنه إذا تم الحصول على الأرض تملكاً أو مزارعة أو إيجاراً فإن أعظم شيء من حيث التكلفة هو حفر البئر

وملحقاتها (المنحاة، اللزاء، الزرانيق، والسواقي، والبركه)، ثم العدة، وتتكون من (الدامغة، والمحّال، والرشاء، والغروب، والدراج، والسريح).

والملاحظ أن البئر بعد حفرها طبعاً، وجميع ملحقاتها والعدة كلها لا يدخل فيها أي نوع من المعادن اللهم إلا سيخ حديدي صلب سميك غير قابل للثني يثبت في طرفي الدراجة فقط. ولإيضاح ما تعنيه هذه المفردات لمن لا يعرفها فهي:

- **المنحاة**: وهي مسار ينحدر كلما ابتعدنا عن البئر، عرضه بعرض البئر أو أعرض قليلاً وطوله يتناسب مع عمق البئر. وهذا المسار تتردد فيه حيوانات السواني (الإبل) التي تجذب الماء من قاع البئر إلى المصب، فإذا كانت الإبل عند المصب فالدلاء (الغروب) فـي قاع البئر، وإذا ذهبت الإبل إلى أقصى المسار (المنحاة) صبت الدلاء (الغروب) ماءها فـي اللزاء. وكون المنحاة منحدرة فـي الاتجاه بعيداً عن البئر لكي تساعد البعير فـي الذهاب (منحدراً) والغروب مـملوءة بالماء، وتكون صعوداً والدلاء (الغروب) فارغة وهي أيضاً تساعد البعير في صعوده والغروب منحدرة إلى أسفل البئر.

- **الزرانيق**: أعمدة مبنية بالحجارة وعددها أربعة على جانبي البئر لكي يحمل كل زرنوقين متقابلين دامغة واحدة.

- **اللزاء**: مصب الماء من البئر.

- **المعلف**: مكان يجلس فيه الشخص المناط به إعلاف البعير أثناء العمل، يعطيه لقمة كل مرة يذهب ويعود والمعلف قريب من اللزاء، وهذا الشخص غير الصبي الذي يسوق الإبل ذهاباً وإياباً طوال فترة التشغيل، والصبي وجوده ضروري أثناء السواني وهو لا يترك العمل حتى ولو دقيقة لأنه إذا ترك الإبل فسوف يتوقف كل بعير في مكان مختلف عن مكان البعير الآخر، ومن هنا جاء المثل الدارج (غروب ليل)

يقال للأشياء غير المتزامنة. لأن الصبي قد يشعر بالتعب أو النوم أو الانشغال بأمر ما فيترك الإبل وتتوقف عن التردد أو تسير بسرعات مختلفة فيكون غرب في قاع البئر وغرب في منتصف المسافة والثالث في المصب، وهكذا.

- **الساقي**: جمعه سواقي هو مجرى الماء من اللزاء إلى البركة (الجابية) أو الأحواض المزروعة.

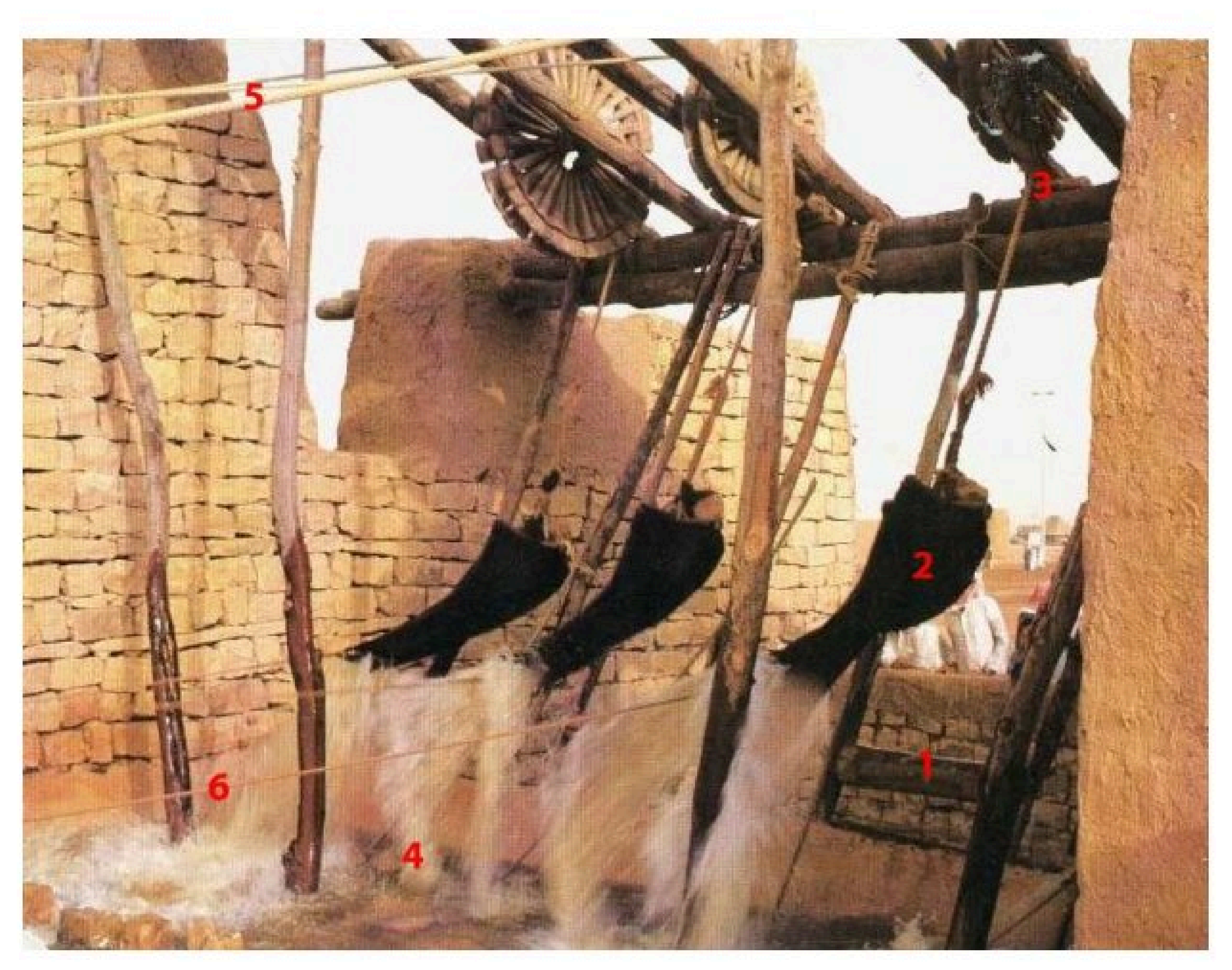
العدة

- **الدامغة**: عمود ضخم قوي من خشب الأثل حصراً، يمتد من رأس الزرنوق إلى رأس الزرنوق الآخر ماراً فوق البئر. والدوامغ اثنتان تقومان بحمل عوارض خشبية تحمل المحور الذي هو بدوره يحمل المحّالة.

- **المحّالة**: جمعها محّال وهي عجلة قطرها حوالي متر تقريباً أو دولاب مصنوع كله من قطع خشبية من الأثل فقط أهمها القب، والأسنان والمحور. وهي تعتبر تحفة هندسية رائعة تمتاز بدقة القياس والاتزان. ولا تستخدم فيها المعادن ولا المسامير ولا الغراء مطلقاً، بل يشدها دقة القياس في المقام الأول ثم خاصية تماسك الخشب (تنشيب) وتثبيتها وشدها بحبل مسرّح من جلد البعير غير المدبوغ (القِدّ)، وتنطق القاف كحرف منحوت من دمج الجيم والزاء.

- **القب**: أسطوانة ضخمة من خشب الأثل قد يصل قطر مقطعها ٣٠ سم أو أكثر وطولها ٢٠ سم تقريباً مخروقة من مركز مقطعها خرقاً يكفي للمحور الذي يحملها وتدور حوله. وتثبت أسنان المحالة في القب بقياس دقيق حتى تكتمل عجلة كاملة.

- **المحور**: عود من خشب الأثل قوي طوله حوالي ٥٠ سم وسمكه (قطر مقطعة) حوالي ٧ سم يحمل المحالة متكئاً على عوارض خشبية تحملها الدامغتان. وللمحور وظيفة أخرى وهي أن التحكم بسماكته يجعله يصدر صوتاً مع حركة المحّالة يتنوع هذا الصوت حسب السرعة والوزن والوقوف غير التام واتجاه حركة البعير (صادر أو وارد).



صورة رقم (٩). عدة السواني: (١) الدراجة، (٢) الغروب، (٣) الدامغة، (٤) اللزاء، (٥) الرشاء، (٦) السريح.

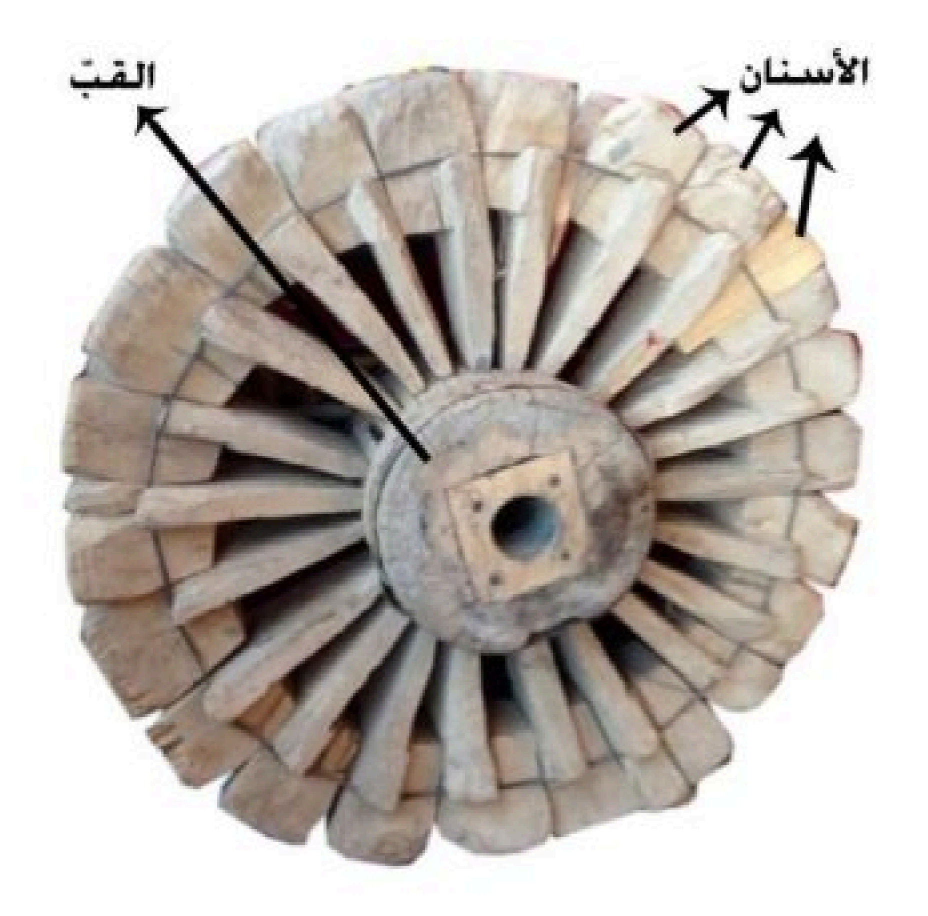
وصوت السواني من المحالة وكذلك من الدراجة يحدث أنغاماً متنوعة فيها من تنويعات موسيقى الجاز من حيث عدد الآلات إلا إنها لا تحمل خاصية تنغيمة النفخ

ولا يصاحبها إيقاع الدف أو الطبل. وقد كانت أنغام السواني محل جدال من بعض المتشددين باعتبارها موسيقى محرمة فيقومون بإزالة "المنكر" بإجراء تعديلات على المحور بحيث تكون الأصوات الصادرة غير منغمة. ويعتقد البعض أن الإبل تنسجم مع بعض أنغام السواني فيحسن أداؤها، والصبي الذي يسوق إبل السواني متهم غالباً في أنه يتعمد وضع أجسام في المحالة تجعلها تصدر أصواتاً منغمة يطرب لها. ونظراً لقرب مزارع البكيرية من بعضها(*) (خاصة وسط البلدة) فإن تداخل أصوات السواني من مختلف المزارع المتقاربة يحدث خليطاً موسيقياً قويا مميزاً خاصة في هدأة الصباح الباكر تشبه أوركسترا صاخبة بدون مايسترو. هذه الصورة الصوتية مطبوعة في ذاكرة كبار السن من سكان البكيرية. وهذه الصورة الصوتية ليست موجودة في كثير من البلدات وسط جزيرة العرب.

– **الرشاء**: حبل غليظ قوي جداً طويل مصنوع من عذوق النخيل وأليافها فقط. ولا يوجد في البيئة المحلية ما يضاهيها قوة ومتانة.

– **الغرب**: دلو ضخم مستطيل له فتحتان يأخذ شكل "البنطلون" النسائي، أعلاه واسع عريض، يثبت في فتحته العلوية الواسعة عودان غليظان نسبياً متصالبان يسمونها عِرقاة لإبقائه مفتوحاً ويوضع فوقهما قطعة من الحجر لضمان غمره بالماء بسرعة. وله فتحة سفلى تشبه فتحة البنطال الرجالي عند القدم، يندلق منها الماء من فوق الدراجة مباشرة في المصب (اللزاء).

(*) أكثر من ١٥ سانية في دائرة ربما لا يزيد قطرها عن ٥٠٠ متر.



المحّالة



صورة رقم (١٠). المحّالة صورة جانبية.



صورة رقم (١١). الغرب: هو الأداة الوحيدة المستخدمة للري الزراعي قبل النفط.

- **الدراجة**: أسطوانة خشبية مصمته قطر مقطعها حوالي ٢٥ سم وطولها حوالي ٤٠ سم محمولة على عمودين خشبيين فوق "الكافة" (لوح حجري قد يزيد طوله عن ١,٥ متر وعرضه ٧٠ سم وسمكه أكثر من ١٠ سم يوضع على حافة البئر ليكف عنها أي شيء، ماء أو تراب مثلاً، وتحمل القوائم التي تحمل الدراجة). هذه الكافة تكون على حافة البئر عند المصب (اللزاء) وفي أطراف الدراجة "سيخان" معدنيان قويان غير قابلة للثني تدور عليها الدراجة حسب حركة السريح وعليها يندلق الطرف السفلي من الغرب ليصب الماء في اللزاء. وتصدر الدراجة نغمات موسيقية أقرب ما تكون إلى أصوات الأوتار الدقيقة في "الكمنجة" ونظراً لاختلاف سرعة دوران الدراجة بين لحظة وأخرى وتنوع النغمات وتتداخل مع النغمات الصادرة من المحالة فتخرج تلك الصورة الصوتية المنوعة.

- **السريح**: هو حبل قوي مسرح من جلد البعير قبل دبغه وهو يبقى ليناً فإذا كان جافاً سمي (القِدّ) وينطقون القاف هنا وفي ألفاظ أخرى وكأنها دمج حرفي الجيم والزاء. وقد يتعرض السريح بأن يأكله حيوان جائع جداً كالثعلب والذئب، بل قد يأكله شخص يكاد يقتله الجوع في بعض الحالات.

ثم يأتي بعد ذلك تسوية الأرض وهذا تتوقف تكاليفه على طبيعة الأرض ونوع التقسيمات المطلوبة حسب المنتج الزراعي المطلوب. ثم يأتي بعد ذلك من حيث التكلفة ثمن البعير، وتعتبر إبل السواني ثاني أهم عناصر التكاليف بعد حفر البئر. وتحتاج المزرعة إلى بعيرين أو أكثر. والبعير غالي الثمن[*] ويعتبر مرض البعير أو موته

(*) يذكر الشيخ صالح الخضيري أن تكلفة حفر البئر ٦٠٠ ريال فرنسي وأن ثمن البعير الواحد ١٥٠ ريال فرنسي، ص ٧٤، (الفرانسي عملة فضية وزنها حوالي ٢٨ جراماً تقريباً).

من الكوارث القاسية على الفلاح، وبعض الآبار تكون كبيرة جداً بحيث يكون فيها سواني من جهتين متقابلتين.

بعد ذلك تبقى البذور والعمل اليومي العادي (الشد على الإبل في الصباح الباكر (السواني)، والرايس الذي يروس الماء يوجهه من جزء إلى جزء من المزرعة، وبقية الأعمال الروتينية، وهذه غالباً يقوم بها الفلاح وأهل بيته وقد يستعين بصبي أو رايس كعامل دائم، أجرته شهرية (قد تكون عينية وقد تكون نقدية).

وبقية أدوات الإنتاج المستخدمة بسيطة جداً، المسحاة، والمدمثة، والفأس والمخلب (المنجل أو المحش) والكَرّ، وهو حزام واسع يلفه الرجل حول جسمه وساق النخلة معاً ليصعد النخلة.

أما أعمال الصيانة فالنجار والخراز والحداد المختص يتعامل مع عدد من الفلاحين يستدعونه عند اللزوم مقابل كمية من التمر أو القمح متعارف عليها عند الحصاد.

الفصل الثالث

القاعدة الاقتصادية لبلدة البكيرية

كل قرية أو مدينة في العالم لابد أنها قامت في البداية على قاعدة اقتصادية محددة، فهذه قامت لأنها كانت مورد (ماء)، وأخرى كانت محطة على طريق، وثالثة كانت مرفأً مناسباً للمراكب البحرية، ورابعة كانت حول منجم من المناجم أو مصنع ... وهكذا. والقاعدة الاقتصادية التي قامت عليها البكيرية هي النشاط الزراعي في المقام الأول.

والنشاط الاقتصادي في حواضر وسط الجزيرة العربية في الغالب هو نوع من الاقتصاد الزراعي "الطبيعي". أي النشاط الاقتصادي المعيشي الذي يهدف إلى سد الحاجات فقط وليس التطلع إلى تنمية ومراكمة رؤوس الأموال والمكاسب. فحشد رأس المال لإقامة المشروع (مزرعة أو نشاط أخر) كحرفة أو دكان أو غيرها يهدف في المقام الأول إلى تحصيل عيش كريم لأسرته ولا يتطلع إلى مراكمة رأس المال المستثمر في المشروع وفتح فروع أخرى. وهذا هو الفرق بين النشاط الاقتصادي الطبيعي، والنشاط الاقتصادي التبادلي (الموجه أساساً للبيع أي السلعي) من حيث الهدف من الإنتاج.

والاقتصاد في البكيرية كما في جميع قرى وسط جزيرة العرب، أهدافه الأساسية تحقيق مستوى معيشي معقول. ويمكن ملاحظة ذلك على سلوك الآباء المؤسسين

لبلدة البكيرية في منح الآخرين أهم عناصر الإنتاج (الأرض الزراعية) مجاناً ما دامت زائدة عن حاجتهم.

ويجب ملاحظة أن ما سميناه الاقتصاد الطبيعي لا يمنع من أن يكون جزء من الإنتاج موجهاً للسوق، وذلك لمبادلته ببقية السلع التي يحتاجونها، كالأواني، والملابس، والأدوات، واحتياجات ومستلزمات الإنتاج الأخرى، وهذه أشياء لا غنى عنها ولا يمكن إنتاجها جميعاً في المزرعة. هذا المستوى من التبادل يمكن أن يندرج تحت ما يسمى بالاقتصاد السلعي البسيط أو التبادلي البسيط.

ويتركز الإنتاج في البكيرية على محصولين رئيسين هما التمر والقمح. وهذان المحصولان هما الجزء الأعظم من جميع ما تنتجه البكيرية لأن معظم الكمية المنتجة من التمر والقمح تصدر خارج البكيرية. وهما المصدران الأساسيان للنقود التي تصل إلى البكيرية من خارجها.

كمية الإنتاج

يقول أحد أعيان البكيرية وهو فلاح عريق ومن أهل النظر(*) أن إنتاج البكيرية من التمر، واستناداً إلى الأرقام التي يأخذونها من لجان خرص التمر للزكاة يصل إلى ٣٥٠ ألف وزنة. مع الاختلاف في المواسم زيادة أو نقصاً وهو ما يقارب ٥٠٠ طن من التمور، ويقول أيضاً أن البكيرية لا تستهلك نصف هذه الكمية. أما بالنسبة للقمح فيقدر إنتاج البكيرية من القمح بكمية تتراوح بين ٩٠ ألف و١٢٠ ألف صاع، أي حوالي ٣٠٠ طن قمح. ويؤكد أن أغلب هذه الكمية تصدر إلى بريدة تحديداً. أما التمر فإن المشترين يأتون وقت الحصاد أو الصرام ويسمونه في القصيم (الجِداد) (جِداد

(*) حديث شخصي: مع المرحوم العم على العبد الله السديس (علي العبود).

النخيل) وغالبيتهم من البدو، ويصدر جزء منه إلى مدينة الرس والباقي يشتريه تجار التمر في البكيرية ويخزنونه ويأتي البدو أو غيرهم بعد عدة أشهر مرة ثانية وثالثة إلى هؤلاء التجار ليتزودوا بالتمر حتى يأتي الموسم التالي.

والتمر المنتج في البكيرية أغلبه من نوع الشقراء، وإذا قيل تمر دون ذكر النوع فهو شقراء، أما إذا كان غير الشقراء فلا بد من تسميته، سكري، مكتومي، أم خشب ... الخ. ولكن كل هذه الأنواع مجتمعة لا تشكل ١٥ – ٢٠٪ من مجموع التمر في أي مزرعة في البكيرية في ذلك الوقت. وكان التمر من نوع السكري غير مرغوب للكنز وخاصة البدو، ويعتقد أن السبب هو أن النوى كبير ويؤثر على الوزن. والموجود من السكري وهو قليل يجفف ويسمى يبيس ويعتبر فاخراً في هذه الحالة.

أما القمح المنتج في البكيرية فهو محصور غالباً في نوع المعَيّة (الصمّاء) وهي أصلح الأنواع للمرقوق والقرصان، ولا يزال هذا النوع موجوداً ويسمونه "معَيّة القصيم"، وأحياناً ينسب إلى نفس البلدة (الشيحية، الخبراء، وغيرها). أما اللقيمي القاسي فهو مخصص للجريش.

ويجدر هنا ملاحظة الأهمية الاقتصادية للتوسع في زراعة القمح في البكيرية ليس فقط للاستهلاك المحلي، ولكن باعتباره أهم الصادرات على الإطلاق، أي أهم مصدر لجلب النقود. ولذلك اتـجه مزارعوا البكيرية إلى استصلاح الأراضي بعيداً خارج البكيرية (فـي بر البكيرية)، خاصة في الاتجاه الشمالي والشمالي الشرقي. وأغلبه في منطقة ما يسمى بـ (أمهات الذيابة). وقد أصبح معظم إنتاج البكيرية من القمح يأتي من تلك المزارع الخارجية. وتتناثر هذه المزارع خارج البكيرية على مساحة واسعة تبدأ من مسافة تبعد أقل من نصف كيلو متر عن البكيرية إلى مسافة تزيد عن تسعة كيلو مترات. هذه المزارع الخارجية يسمونها "القصور" رغم أنها ليست قصوراً وقد

يكون فيها قصر أو قصرين (كبير ومحصن البناء ضد الحنشل) مثل قصر السداسا. أما الباقي فمزارع كبيرة ومساكنها صغيرة ومؤقتة وكل واحدة منها تحمل أسماً مميزاً، إما اسم صاحبها، أو العائلة، أو المكان، أو أي لقب مثل (العوادية، البصيلية، الراجحية، العقيلية، أو مليحة، عرقانه، أم نثيلة، أم رمث، الروضه، أم طليحة) وغيرها كثير. هذه الأسماء مفيدة جداً لتحديد المواقع لجميع الأغراض، (مثل تحديد مكان إبل ضائعة، أو تحديد مكان الجراد، أو تقدير مسافة ما وغير ذلك من الأغراض).

هذه "القصور" أو المزارع خاصة بالمحاصيل الموسمية وليس لزراعة الأشجار (كالنخيل). وهذه القصور تقوم على أراضٍ صالحة للزراعة، واسعة غالباً يمكن زراعة جزء منها وترك الجزء الآخر ليزرع في موسم آخر (تحييل الأرض) وقد أصبح اسم الجزء من المزرعة الذي يزرع أحياناً ويترك أحياناً أخرى اسمه "الحيالة"، (تزرع حولاً وتترك حولاً)، وبعضها مساحة صغيرة (نِقعة) تزرع دائماً وقد تترك سنة أو أكثر. ويلاحظ أن المساكن في هذه المزارع متواضعة جداً لأنها لا تزرع دائماً.

وكثيراً ما يلاحظ أن بعض المزارعين الأقوياء مادياً يزرعون داخل البكيرية لإنتاج التمر وفي نفس الوقت يزرعون في "القصور" الخارجية لإنتاج القمح وقد يسهل ذلك عليهم أن زراعة القمح شتوية والنخل لا يحتاج إلى عمل كثير في الشتاء. وكما أسلفنا فإن معظم إنتاج القمح يتم في المزارع الخارجية. وقد اشتهرت بلدة الشيحية (حوالي عشرة كيلو متر شمال شرق البكيرية) بالتخصص في زراعة القمح الجيد وعدم زراعة النخيل.

وتتميز زراعة القمح بالمرونة، فمزارع القمح الخارجية تشبه الشقق المفروشة، يمكن زراعتها موسماً واحداً وتركها دون تكاليف كبيرة، بخلاف زراعة النخيل التي تحتاج إلى رعايـة دائمة. وإنتاج القمـح (مقارنة بإنتاج التمور) أكبر مـخاطرة لأن

القمح يتعرض للآفات وقد يتلف من العواصف والأمطار المصحوبة بالبَرَد والجراد، وغيرها.

ولكن البرد الشديد والجراد قد لا يضر القمح إذا كان عند بداية الإنبات، بل يعتقد المزارعون إنه ينفعه، فيقولون "يا الله مبرود وإلا مجرود" والمقصود أن يتعرض لبرد شديد أو جراد يأكل أوراقه القليلة الأولى لأنه سوف يتسبب بتقوية الجذور مما يفيد النبات فينمو قوياً وينتج محصولاً وفيراً.

والتمر اقل عرضة للأمراض ويندر جداً أن يتأثر تأثراً كبيراً بحالة الطقس. أما عبارة "قُبالة" أو "قُفاة" الشائعة جداً للتعبير عن الغلة الوفيرة أو القليلة من التمور. وهي تتكرر كثيراً لأن فرق كمية محصول التمر واضح جداً من سنة لأخرى. قديماً قالت العرب (أهل البصرة) النخلة تقتل نفسها سنة وتقتل صاحبها سنة أخرى وربما كان السبب هو أن الحمل الثقيل هذه السنة سوف ينعكس سلباً على قدرة النخلة ونتاجها في السنة التالية. وقد يكون بسبب اعتدال الصيف في بعض السنوات مما يسبب تأخر نضوج التمر ويتأخر الجداد (صرام النخيل) فيكون استعداد النخلة للعام القادم أضعف من السنوات الأخرى وتكون غلتها اقل. والمعروف إنه إذا كان الصيف معتدلاً أي اقل حرارة من المعتاد فإن العذوق لا يكتمل نضجها ويبقى جزء منها (يبقى حوالي ربع إلى ثلث الشمراخ) على شكل بسر ولا يصل إلى مرحلة تمر مكتمل النضج.

وفي حالة كهذه، الملاحظ أن أهل عمان والخليج العربي يأخذون البسر ويجرون عليه عمليات تجعله قابلاً للتخزين والاستهلاك الآدمي، يسمونه (خَلال) بتفخيم اللام، أما البكيرية والقصيم وربما نجد كلها فإنهم يتركونها علفاً للحيوانات، ويلاحظ أيضاً أن البرد الشديد يندر أن يتلف محصول التمر لأن نضوج التمر لا يكون إلا في

آخر الصيف. وكذلك لأن الجراد والدبا والخيفان، لا يأتي إلا في الشتاء وتكون عذوق النخل صغيرة جداً والثمر لم يمض عليه وقت طويل بعد عقد الثمار، ولذلك فإنهم يقومون بتكميم العذوق (أي يلفون ويغطون) بنبات بري محلي (إذا توفر) يقال له (الجثجاث). وهذا النبات ذو رائحة طيبة نفاذة يكرهها الجراد والدبا، رغم أن المشهور عن الجراد أنه لا يعف عن شيء، حتى الأثل لا يسلم من الجراد أحيانا. وإذا لم يوجد الجثجاث فإنهم يكمون العذوق بالليف حتى يزول خطر الجراد الذي هو عادة لا يطيل البقاء.

هذان النوعان من المحاصيل (التمر والقمح) هما ما تصدره البكيرية وتحصل منه علـى بقية ما تحتاجه من سلع أخرى مثل الملابس والأواني والحيوانات أو المنتجات الحيوانية الأخرى (كالسمن والجلود والأصواف) والأقط ويسمونه في القصيم (البقل). وتقتصر أنواع الحيوانات علـى الإبل والغنم فقط، فبادية نجد لا تربي البقر.

وتصدر البكيرية العمل فـي حالة وجود طلب على العمل فـي أي مكان. فهناك أعداد تسافر مع العقيلات وأعداد تسافر إلى المدينة المنورة أبان العهد العثماني وأعداد تذهب باتجاه الخليج العربي. ولكن جميع هذه الأعداد ليست كبيرة مما يجعل اعتبار عنصر العمل خارج البكيرية (قبل النفط) من مصادر الدخل المتدنية وسبب قلة عـدد العمال الذين يسافرون من البكيرية طلباً للرزق هو شح المعلومات عن الفرص، وضيق ذات اليد، وتـخوف الأهالي من سفر أبنائهم للمجهول!!. إلا أنه بعد أن استقر الأمر للملك عبد العزيز وظهور فرص العمل والتعليم فـي الرياض ومكة وجدة فإن أعداداً كبيرة من الرجال اتجهت إلى الرياض وحاضرة الحجاز للعمل وطلب العلم هناك.

ولكن الهجرات الجماعية بحثاً عن العمل من البكيرية قبل النفط ليست ظاهرة تلفت النظر، وما عدا ذلك فلا تصدر البكيرية شيئاً يذكر.

وقد عثرت أثناء بحثي هذا على رواية لأمير البكيرية الأسبق محمد بن يوسف الدخيل الله (رحمه الله)، فيها مصادفات ليس من السهل قبولها، رغم قناعته هو وتأكيده على أنها موجودة في سجلات بريدة والرياض. على أية حال تقول الرواية: إن محصول التمر في البكيرية في سنة من السنين (قديماً، لم يحددها) ثلث إنتاج القصيم وإن إنتاج القصيم ثلث إنتاج نجد وإن إنتاج نجد ثلث إنتاج الإحساء وإن إنتاج الإحساء ثلث إنتاج العراق من التمور!!(*)

أما المنتجات الأخرى من السلع والخدمات فهي محدودة جداً وموجهة للاستهلاك المحلي، فالإنتاج الزراعي للأعلاف مقصور على البرسيم والدخن يسمونه (الشامية). أما الذرة والشعير والمليساء (نبات له بعض الشبه بالدخن وليس بدخن ولكنه رديء وسيىء جداً وإذا اضطر الإنسان إلى أكله دون خلطه مع شيء آخر فإنه يسبب المأ وعسراً في البول)، حبوبها كلها غذاء للآدميين وليست للحيوانات.

أما الأرز والذرة الصفراء والعدس والفول والحمص فغير معروفة في البكيرية في ذلك الوقت وسبب ذلك الجهل بهذه الأنواع وفوائدها الغذائية. والمعروف من الخضروات القرع وأكثره من الأنواع (النجد، الشامي (الدُبّاء) والمصري الأصفر) والبصل، أما الطماطم والبطاطس فلم يكن معروفاً في ذلك الحين. ويزرع الباذنجان بكميات قليلة وكذلك اللوبيا بكميات قليلة جداً، رغم أن بعض الخضروات يمكن أن يزرع دون تكلفة على الإطلاق بل على مجرى الماء فلا يأخذ حيزاً ولا يحتاج

(*) محمد بن يوسف الدخيل الله في "الوثيقة وما أهمله التاريخ لمدينة البكيرية"، ص ١٢، غير منشور، ١٤١٩هـ.

إلى ري، لكن الفلاح في ذلك الحين ينطبق عليه القول بأن (ذلك مبلغه من العلم في هذا المجال).

وبالنسبة للفواكه ورغم سهولة وإمكانية زرع العنب والحمضيات فليس منتشراً، بل أكاد أقول معدومة، رغم إنها معروفة لديهم، إلا أنهم يجهلون قيمتها الغذائية. ويقتصر إنتاجهم للفاكهة على البطيخ (الحبحب ويسمونه "جِحّ"، والمعروف منه النوع الكروي المقلم، لبه ذو لون أصفر عندما ينضج يشبه لون لب الأناناس، وليس الأحمر فهو غير معروف. والشمام ويسمونه الجِرِو وجمعه جراوة. وأذكر بستاناً واحداً فقط فيه شجرة عنب واحدة، ومزرعة أخرى فيها شجرة ترنج واحدة ومزرعة ثالثة فيها شجرة تين واحدة. أما الرمان فهو موجود ومشهور في ذلك الوقت في بعض قرى الرس على ما أعلم. وبالإضافة إلى ذلك تزرع الأعشاب الطبية كالرشاد، والحبة السوداء ويسمونها سميرا (بتسكين السين وتفخيم الميم) والحلبة والكراث وغيرها.

إذاً اقتصاد البكيرية قبل النفط إجمالاً يمكن القول بأنه اقتصاد طبيعي، أي أن النشاط الاقتصادي موجه لسد الحاجات المعيشية الأساسية فقط عن طريق إنتاج فوائض من بعض السلع (التمر والقمح) لتصديرها واستيراد ما يحتاجونه من سلع أخرى لا ينتجونها كالأقمشة والأواني والحيوانات وبعض منتجاتها.

من هذا كله يتضح أن الحياة بسيطة ومستلزماتها قليلة وكثير منها عند حد الكفاف الأدنى لكثير من الناس.

والخيل والبغال غير معروفة في البكيرية وقطاع النقل يعتمد على البعير للأحمال الثقيلة والمسافات البعيدة، أما انتقال الأفراد والأحمال العادية فيستخدم لها الحمير. والحمار المنتشر في القصيم هو من النوع الأبيض متوسط الحجم، (كثير الظهور في

الأفلام المصرية القديمة) وهو أصغر من الشهري الشهير بحجمه وقوته وكذلك الحساوي، ولكنه أكبر من الحمار الأسود الصغير الحجم، (يظهر كثيراً في المسلسلات السورية) يحقرونه بتسميته (رسيمي) بتسكين الراء وفتح السين.

ولا يستخدم البقر لغير الحليب والاستيلاد، اللهم إلا عند درس القمح لاستخراج الحب من السنابل ويسمون هذه العملية (الدياسة)، (من داس يدوس). وفيها إذا جف القمح نشروه في مكان الدوسة حول عمود قائم مثبت في الأرض بشكل جيد وفيه حبل قوي طويل تقرن فيه عدد من الحيوانات ذوات الأظلاف والحوافر (الحمير والبقر فقط). أما ذوات الخف (الإبل) فإنها وإن كانت ثقيلة الوزن إلا أن الخف ليست له فاعلية كالحافر أو الظلف في استخراج الحب من سنابل القمح. أما الغنم فإن أظلافها غير صالحة لأن وزنها لا يكفي لإخراج الحب من السنابل خصوصاً أن نوع القمح هو (المعية الصماء). وتدور الحيوانات حول هذا العمود وتدوس القمح بأظلافها وحوافرها حتى يخرج الحب من سنبله. والباقي من القمح الذي يستعصي على حوافر الدواب يجمع ويؤخذ إلى مكان يقال له (المِدقِة) وهي حجر واسع مسطح توضع عليه فلوس القمح وتدقها النساء بالكابون (الكابون أسطوانة خشبية قطرها من ١٠ – ١٥ سم وطولها في حدود ٢٥ سم مخروقة من وسطها لوضع يدلها مثل يد المطرقة).

وتعتبر البقرة كنز لمن يملكها فهي استثمار للفلاح كمصدر غذائي، ليس الحليب فقط، ولكن أيضاً السمن المستخرج من الزبدة، فالسمن من أهم وأغلى السلع ثمناً، نظراً لندرته، يأتي بعده الودك كبديل في بعض الاستعمالات (إدام للطبخ ويستخدم لإضاءة السراج وتشحيم محور محالة السواني) وهو شحم حيواني مذاب ومصفى لكي لا يفسد. والسمن أهم سلعة يجلبها البدو للحواضر. والبقرة عند

الفلاح، كما أسلفنا، لا تعمل فهي معززة مكرمة مثل ملكة النمل أو ملكة النحل، ويبدو أن أهل القصيم أخذوا حكمة المثل الشعبي العراقي الذي يقول "كل شيء يجي بالحظ إلا ثلاث، دليلتك، ونخيلتك، وصخيلتك، أنطيها تنطيك" (أعطيها وهي تعطيك)، إلا أن أهل القصيم بدلوا السخله (العنزة) بالبقرة.

والبقرة عند غير الفلاح لها مكان مخصص في المنزل وبعض الفقراء يملك بقرة، لأهمية الاعتماد عليها لدرجة أن العامل أو امرأته يذهب للعمل عند أحد المزارعين مقابل علف لبقرته فقط. وليس للبقر في البكيرية رعاة، فأكثرها تخرج بالنهار تجوب الأسواق وكأنها في الهند وتعود في المساء وبعضها لا تخرج.

والبقرة التي تخرج وتجوب الشوارع. وتأكل كل شيء تقريباً معرضة لخطر أن تأكل خرقه فيها إبرة، وهذا يحدث كثيراً لأن النساء إذا انتهت من الإبرة غرزتها في قطعة من القماش (خرقة) لكي لا تضيع، ولكن أحياناً تضيع الخرقة كلها مع الإبرة، فإذا أكلت البقرة هذه الخرقة مع الإبرة تمرض وتموت. ولذلك يعتبرون من أكبر العيوب في البقرة إنها تأكل الخرق، حتى انتشر هذا العيب ليطلق على كثير من أنواع السلوك السيئ لبعض الناس فيقال فلان يأكل الخرق بمعنى أنه يمارس سلوكاً غير شريف مالياً أو أخلاقياً كالارتشاء والاختلاس وما شابه ذلك أو حتى السلوك الأخلاقي المشين أو غير ذلك. أما الغنم فتملكها شائع عند الناس في منازلهم وليس عند المزارعين. ويلاحظ أن البقر والغنم التي لا تخرج تطول أظلافها لدرجة العجز عن المشي، لذلك فهم يحتاجون إلى أن يأتي النجار أو الحداد ليقص أظلافها من آن لأخر.

والغالب أن الناس يأخذون أغنامهم إلى حوش الراعي يومياً كما نأخذ أطفالنا الآن إلى المدارس عند طلوع الشمس. ويذهب بها الراعي إلى الخلاء لترعى ويعود بها

عند الغروب. ويذهب أحد أفراد العائلة عند الغروب لاستلامها كما نذهب لأخذ أبنائنا من المدارس الآن. فإن كان في الخلاء من العشب ما يكفي لإشباعها وإلا أكمل أصحابها إعلافها وحلبوها. وإذا كانت لا حليب فيها فإنهم إما أن يستمروا على إخراجها يومياً مع الراعي أو أن يسلموها إلى راع يذهب بها إلى الخلاء لشهر أو شهرين أو أكثر ولا يحضرها إلا عندما تلد. يسمون المشوار اليومي للغنم السرح، أما المدة الطويلة فيسمونها "إطلاع" الغنم لفترة طويلة.

وفي هذه الحالة يحرصون على أن يكون الراعي الذي يطلعون الغنم عنده أنه ثقة ومعروف بالأمانة لكي لا يدعي أن الذئب أكلها مثلاً أو أنها ولدت ميتا أو ولدت جدياً أو حملاً واحداً ذكراً رغم انتشار التوأم في الأغنام. ومن هذا جاء المثل الذي يقول "اللي ما يحضر عنزه تجيب تيس" أي يقال له عنزك ولدت تيساً واحداً فقط بينما هي في الحقيقة ربما تكون قد ولدت سخلتين أو ثلاث.(*)

ويلاحظ في هذا المجتمع المغلق أن سلالات البقر والحمير والغنم ثابتة والتشابه كبير بين أفرادها وأحجامها وألوانها، فالضأن من نوع النجدي المعروف حالياً أما الماعز فهو من النوع الكامل السواد. وتشابه الأغنام أحياناً يصعّب عملية التعرف عليها عند أخذها في المساء من حوش الراعي بعد غروب الشمس والنور غير كافٍ، وقد يستدل الشخص على عنزته أو شاته من صوتها أحياناً أكثر من تحديد معالمها. وهذا يذكرنا هذه الأيام بنغمات الجوالات، ففي المجالس كل يعرف أن الرنين يعنيه أو لا يعنيه من النغمة التي أختارها هو أو هي.

(*) السخلة أغلى من التيس، والانثى من الحيوان دائماً أغلى، وقد درج الناس على أنه إذا ولدت البقرة ثوراً ففي الغالب يذبحونه في الأيام الأولى لكي لا يشاركهم في حليب البقرة، أما إذا ولدت البقرة أنثى (عِجلة) فإنهم يربونها ويحرصون عليها بل ويدللونها، وإذا كبرت تباع بثمن مرتفع.

والغالب على استخدام أهل القصيم للحليب هو المخيض (اللبن) ونادراً ما يستخدم الحضر الحليب دون ترويبه، بخلاف البدو فهم يشربون الحليب قبل ترويبه. ويلاحظ أن اللبن ليس سريع التلف مقارنة بالحليب، وربما كان هذا أحد أهم أسباب تفضيله لدى الحضر.

والحياة في البكيرية قبل النفط في الغالب الأعم حياة كفاف، فليس في البكيرية ثراء كبير، ويظهر هذا من النظر إلى المنازل القديمة، فليس هناك قصور أو دور ضخمة تدل على ثراء كبير. وقد يعود هذا إلى فلسفة الآباء المؤسسين الأوائل في نظرتهم للنشاط الاقتصادي وأهدافه، وقد يعود هذا إلى أن البكيرية صغيرة نسبياً مقارنة بالبلدات الأكبر منها كثيراً مثل بريدة وعنيزة والرس وهذا لا يترك مجالاً لنشوء سوق تجاري كبير في البكيرية يشجع على توجيه الإنتاج لسوق البكيرية.

هذا هو الواقع المعاش في البكيرية، يغلب عليه الكفاف، فالملابس مثلاً تلبس حتى تتمزق وبعد ذلك لا ترمى، بل تعطى باقي الأسمال للفلاح يلفها على الرشاء ليقيه من أن تأكله المحالة بسرعة، أو الرشاء يأكل المحالة. ويندر لبس الحذاء والسراويل للرجال والصبيان. وتعتبر الأواني النحاسية سلعاً قيمة كالقدور والصواني، والصحون الكبيرة والدلال، وكانت الأواني الخشبية منتشرة كالمغرفة والموقعة (ميقعة) والصحاف الخشبية. وكانت القهوة والشاي ترفاً لا يحصل عليه إلا قليل من الناس حتى أنه كان مقبولاً عندهم أن يعاد طبخ القهوة مرة أخرى، يقولون لها (ثنوة). وكان استخدام روث الإبل (الجلة) للوقود أمراً شائعاً. والجلة من السلع التي تعبأ في أكياس كبيرة وتجلب وتباع في السوق، وهي تعتبر من النواتج الثانوية لمربي الإبل، وإذا كانت منتشرة على قارعة الطريق فهي حق لمن وجدها يجمعها ويذهب بها إلى بيته. وجمع الجلة أمر سهل ولا يحتاج إلى مهارة أو عناء،

ولذلك أشتهر تحقير أداء الشخص بقولهم للذي لا يحسن أداء العمل: "اترك، (رح جِلّ أحسن لك) باعتبار أن جمع الجلة لا يحتاج إلى أي درجة من المهارة". لكنهم لا يمكن أن يستخدموا روث الحمار إطلاقاً ولذلك يقولون عند تحقير أمر يكتنفه علتان أو فيه عيبان، "جرذي ومشوي بصون" (الصون هو روث الحمار)، أي لا يكفي أنه جرذ لا يصح أكله بل وفوق ذلك مشوي بروث حمار وهو يصدر رائحة غير مقبولة عند إحراقه. وهذا يختلف عن مثل آخر يستخدمه البعض خطأً لنفس المعنى وهو "نفسٍ شينة وجلدٍ مِروِح"، ومعناها الصحيح شخصين أو شيئين أو شخص وشيء متنافرين بشدة.

وكانت الوجبة اليومية في الصباح إما عصيدة أو خبز أو ما شابه ذلك. ووقت الضحى وجبة الغداء من التمر فإن كان مصحوباً باللبن فهذا هو الكمال، وأما العشاء فالغالب أنه مرقوق فيه بصل أو قرع الغرض منه زيادة الحجم وليس القيمة الغذائية وهذا يكون قبل المغرب لبعض الناس، وبعد المغرب لأكثر الناس كالمزارعين وأصحاب السوق وغيرهم. والرز ليس شائعاً في البكيرية قبل سبعينيات القرن الهجري الماضي ليس جهلاً بوجوده لكنه سلعة مستوردة غالباً من العراق وأكثر الناس لا يستطيع شراءها، وهي على أية حال لا تعرض في سوق البكيرية.

وبالنسبة للمساكن فهي في البداية كانت امتداداً للمزارع ولذلك كانت تقام كجزء من المزرعة ثم أقيمت منازل مجاورة لها وعلى أرض زراعية أيضاً للحفاظ على التقارب. ونوع البناء من الطين الزراعي يؤسس له تحت الجدران بالحجارة وتسقف بخشب الغضى في البداية للمساحات القصيرة. ولكن الغالب في السقف بخشب الأثل وجريد النخيل أما الأبواب فهي من خشب الأثل حصراً.

ويعتبر خشب الأثل من أغلى السلع لأنه لا يوجد له بديل يقوم مقامه باستقامته وطوله وقوته. ويمكن القول إن خشب الأثل هو أكثر عناصر بناء المنزل تكلفة بعد عنصر العمل.

وعلى سبيل المثال يروي أحد الأهالي وهو من أهل النظر(*) أن أباه قد تشارك مع شخص آخر في شراء صف من الأثل "خَو" طوله ٥٠ متراً تقريباً أو أقل بمبلغ ثلاثة آلاف ريـال. كان ذلك في أواخر الستينيات الهجرية من القرن الماضي. فإذا علمنا أن ثلاثة آلاف ريـال سعودي فضة في ذلك الحين يمكن أن تشتري منزلين كاملين متوسطي الحجم في مقاييس البكيرية، وأن شخصاً واحداً لم يستطع شراء الأثل لوحده علمنا عظم أهمية الأثل في حياة أهل القصيم والبكيرية خاصة.

والأثل في البكيرية وفي كثير من بلدات القصيم يزرع كمصدات للرياح حول المزارع وإثبات حدود الملك هذا طبعاً إضافة إلى أهميته وقيمته العالية كمصدر وحيد للمنتجات الخشبية. وهو لا يحتاج إلى سقي وهو شجر أناني لا يحب أن يجاوره نباتات أخرى، فنادراً ما يتطفل عليه نبات آخر لأنه يغرق الأرض من حوله بدرجة عالية من الملوحة فلا يعيش فيها نبات آخر.

ونظراً لسلوك مؤسسي البكيرية وأحفادهم في التساهل وترغيب القادمين إلى البلدة بغرض الزراعة فقد تزايد سكان البكيرية بشكل سريع وأصبح يفد إليها أناس ليسوا مزارعين، بل عمال وحرفيين. وكان توسع البناء السكني قد اتخذ اتجاهاً معاكساً لاتجاه التمدد الزراعي. فالمزارع أخذت تمتد شرقاً وشمالاً وجنوباً والمساكن أخذت تمتد غرباً وشمالاً وجنوباً ولكن المساكن لا تستطيع مجاراة المزارع في امتـداد المساحات

(*) الأستاذ صالح السليمان البصيلي (أول رئيس لنادي البكيرية الرياضي، أول رئيس لبلدية البكيرية).

فأصبحت المزارع ابعد شمالاً وجنوباً بحيث أصبحت تشكل هلالاً يحتضن هذه الكتلة من المساكن المتلاصقة.

وهذا مكن البكيرية من إقامة سور لحماية المساكن. وكذلك مكنها من منع الكوارث التي يسببها الجراد عندما يضع بيضه قريباً من البلدة ويخرج الدبا (صغار الجراد قبل أن يطير). فقد حفر أهل البكيرية خندقاً حول البلدة يسمونها (الزبية) الجمع زُبى يحيط بمساكنها ومزارعها جميعاً لمنع الدبا من دخول البلدة. وقد حدث هذا مرتين على ما أعلم، مرة لا أذكرها لأنها حدثت قبل أن أبصر النور بعقود، أما الثانية فأذكرها جيداً وكثيرون ممن هم في سني أو أكبر يذكرونها أيضاً، وقد كانت طريقة فعالة جداً. وفي المرة الأولى يقال إن الأمير عمير هو الذي نفذها، وفي المرة الثانية الأمير عبد الله بن محمد بن سويلم هو الذي نفذها بحيث قسم طول المحيط على أهل البكيرية وكلف كل واحد بنصيبه وأن ينجزه في فترة وجيزة، ومن لا يستطيع العمل يستأجر من ينجز نصيبه، ومن كان عاجزاً مالياً وجسدياً فهو معفى.

وبعد أن توسعت البكيرية وتمددت غرباً عثروا على نوع من الطين مختلف عن الطين الزراعي، فهو يوجد على شكل عروق في المنجم الطيني (المطينة)، وهو من النوع الذي يصلح لصناعة الأواني الفخارية. ولا يصلح للبناء إلا بخلطه بكثير من التراب. وهذا الطين يمكن الحصول عليه أيضاً على شكل قطع يمكن تشكيلها على شكل شرائح ملساء يشبه ملمسها ملمس بودرة "التلك". يسمونه طلو (أي الطلاء) وهو شديد البياض بحيث يمكن أن تؤخذ القطع البيضاء وتنقع بالماء وتعطي طلاء أبيض يمكن غسله بالماء، وكان يستخدم في طلاء اللوح الخشبي الذي كان يستخدمه الصغار الذين يدرسون عند المطوع في المسجد. فيكتب لهم كل على لوحه الخشبي الصغير، فإذا انتهوا غسلوه بالماء وطلوه بهذا الطين الأبيض الناصع وكتبوا عليه مرة أخرى وهكذا. كذلك هذا النوع من الطين كانت النساء تنقعه بالماء وتغسل شعرها فيه.



صورة رقم (١٢). جزء من سور البكيرية وعرضه عند القاعدة أكثر من ٩٠ سم وعمره حوالي ٢٠٠ عام.



صورة رقم (١٣). هذا الجدار مبني بطريقة العروق وعمره حوالي ٨٠ عاماً وهو مبني بالطين الصلصالي، ويلاحظ أن السنين والأمطار وجميع عوامل التعرية لم تحدث فيه تغييراً يذكر رغم أنه لم يخضع للصيانة مطلقاً.

وهذا الطين من أقوى أنواع الطين مقاومة للأمطار، فعندما توالت الأمطار في سنة ١٣٧٦هـ الموافق ١٩٥٦م (يسمونها سنة الهدم)(*) تهدمت معظم المنازل في كثير

(*) في تلك السنة كانت الأمطار شاملة لمناطق المملكة وكانت غزيرة جداً بحيث أن وادي الرمة قد استمر في الجريان لمدة تزيد عن الشهر بحيث لم تستطع السيارات اجتيازه من جنوب القصيم الى شماله، وفي ذلك الموسم أصبح الناس يستغيثون ويصلون ويطلبون ربهم بأن يوقف المطر، فقد توالت الأمطار والسحب واحتجاب الشمس تماماً لمدة شهر كامل تقريباً.

من البلدات في القصيم خاصة، ما عدا بلدة البكيرية لم يتهدم فيها شيء أبداً ما عدا بعض منازل المزارع التي كان بناؤها من الطين الزراعي. وقد كان أمراً ملحوظاً انتشار الخيام التي أرسلتها الحكومة كمساعدات عاجلة لأهالي القصيم وغير القصيم. وقد انتشرت الخيام داخل المنازل في بريدة وكافة المدن والقرى ما عدا البكيرية حتى شبه أحدهم كثرة الهدم في بريدة بأنها بور سعيد، فقد كان ذلك الشتاء هو الذي تم فيه العدوان الثلاثي على مصر خاصة مدينة بور سعيد. فلم تنصب أي خيمة في باحة منزل في البكيرية، اللهم إلا بعض الخيام القليلة في بعض المزارع التي كانت مبانيها قديمة من الطين الزراعي وليست من الطين الفخاري الجديد.



صورة رقم (١٤). هذه قطعة من الطين الصلصالي (الطلو) الأبيض موجودة في أحد الجدران وقد مضى عليها نحو ٨٠ عاماً وهي بحجم راحة اليد أو أقل قليلاً ويظهر عليها أثر الزمن على شكل صدوع وتشققات نتيجة للجفاف.

التمويل

في اقتصاد تلك الأيام تعتبر المزرعة من المشاريع الكبرى التي تحتاج إلى تمويل وتكتنفها مـخاطر كثيرة، وقد قيل قديماً للزراعة ألف آفة، أعظمها جور السلطان. وكان موضوع الدين والإفلاس وانقطاع الملك (العقار أو الأراضي الزراعية) بالرهن أمراً شائعاً. وفي البكيرية كما في غيرها، يكثر تحول الملكية إلى الممولين بسبب تراكم الديون. فالفقر يعتبر أمراً حاضراً دائماً. وكان المستوى المعيشي للفلاح يعتبر أفضل من المستوى المعيشي للعامل، فهو يشبع هو وأسرته، ولكنه في الغالب يرزح تحت عبء جبال من الديون.

ومصادر التمويل بعضها محلي (في البكيرية) وأكثرها خارجي (غالباً من مدينة عنيزة). وكثير من الملكيات في البكيرية انتقلت إلى ممولين من عنيزة عن طريق الانقطاع بالرهن بعد العجز عن السداد.

والتمويل المحلي ليس كبيراً لعدم وجود السيولة الكافية في البكيرية لأن البكيرية كما أسلفنا ليست بلدة ثرية، ولا يتوقع منها أن تكون كذلك، خاصة لانخفاض مستوى النشاط التجاري بسبب وجود أسواق كبيرة في بريدة وعنيزة والرس الأمر الذي لا يترك مجالاً لازدهار النشاط التجاري في البكيرية.

ونظراً لقلة السيولة في البكيرية ترتفع تكلفة الدين (أي يطلب الممول فائدة أعلى) أو يرفض تمويل الفلاح لأسباب أخرى. وعدد التجار الذين يقومون بالتمويل في البكيرية ليس كبيراً وقدراتهم المالية محدودة. ولذلك يذهب كثير من الفلاحين إلى عنيزة طلباً للتمويل لأن عنيزة أكبر مركز تمويلي في المنطقة، أكبر حتى من بريدة. ولذلك فالفلاح في البكيرية يتمول من عنيزة ويبيع محصوله في بريدة. وسوق بريدة التجاري يعتبر في ذلك الوقت من أكبر الأسواق التجارية ليس في القصيم فحسب بل ربما في وسط جزيرة العرب كلها.

والاقتراض لمشروع المزرعة يختلف في حالة الزراعة لأول مرة في ملك كان مهجوراً أو الزراعة المستمرة. فالمزارع إذا كان جديداً فهو يـحتاج إلى إكمال (العدة)، جميع أدوات استخراج الماء من البئر، وكذلك الإبل للسواني، والبذور، ومبلغ نقدي لبعض المشتريات المتفرقة وأجور عمال أو حرفيين. وقد يبالغ الفلاح الجديد في التجهيزات بسبب حماسه وجهله، ولذلك يقولون في المثل "بشَرّ النخل بفلاحٍ جديد".(*) ويتم الدين بطريقة السلَم للقروض الصغيرة أو بطريقة الإقراض التي تتم بطريقة التورق أي أن يبيعك الممول بضاعة تبيعها أنت فـي الحال لزبون جاهز دائماً لكي تـحصل على النقد (التورق). ولكن جميع وسائل التمويل تكون في الغالب مجحفة بحق المقترض.(**) وتنتهي بتجريده من ممتلكاته (أراضي زراعية أو مساكن)، وأحياناً يضطر المدين لتزويج أبنته زواجاً غير متكافئ لكي يـحصل على إعفاء من دينه أو من بعضه.(***)

ومع ذلك يرغب الناس بتزويج بناتهم للفلاح (سواء كان مالكاً لمزرعته أو مستأجراً لها)، وذلك لأنهم بهذا يضمنون أنها سوف تعمل فـي المزرعة وسوف تشبع ولن تذهب إلى النوم بمعدة خاوية وزواجها سوف يسقط عن أهلها طعامها وكسوتها

(*) أصبح هذا المثل يقال عندما يتولى شخص إدارة مشروع أو رئاسة مصلحة أو وزارة ويظهر حزماً وإنفاقاً واستعراضاً مبالغاً فيه. أي أنه سيبالغ في النشاط في البداية وسوف يكتشف لاحقاً أن الأمور أكثر تعقيداً مما تصور لأول وهلة.

(**) قد يصل سعر الفائدة في ذلك الوقت في بعض الحالات إلى ٤٠٪ أو ٥٠٪، وإذا عجز عن السداد أقرضوه مرة أخرى لكي يسدد دينه فيستمر يرزح تحت عبء الدين حتى يعجز نهائياً وتنتقل ملكية مزرعته للدائن وهذا يحدث كثيراً. لكن سعر الفائدة في حدود ٢٥٪ يعتبر من المعدلات الشائعة كثيراً.

(***) درج الناس على أن يدعو الشخص الذي يمول المزارعين وغيرهم بـ "العم".

وبقية مؤونتها، لأن المزارع كما أسلفنا يشبع يومياً رغم تراكم الديون عليه، أما العامل ففي بعض الأحيان يذهب هو وأسرته إلى النوم وبطونهم خاوية، وهذا ليس أمراً نادراً وسط جزيرة العرب قبل النفط.

المهن

هذا ما يتعلق بالنشاط الاقتصادي الأساسي (الزراعة) ولكن هناك أنشطة اقتصادية أخرى كثيرة ومتنوعة. والحجم الاقتصادي لسوق البكيرية صغير جداً لسببين، أحدهما عدد السكان ليس كبيراً، والثاني انخفاض مستوى الدخل. ولذلك نجد في البكيرية وفي غيرها من البلدات المشابهة لا توجد سوق لكثير من المهن الضرورية، كالخياطة والحلاقة والخباز، والطحان وغيرها.

الخياطة

لا يوجد خياط ذكر متفرغ للعمل فـي الخياطة في البكيرية، فالخياطة مقصورة على النساء، غالباً داخل الأسرة الواحدة، ولكن يحدث أن يرسل بعض الموسرين أقمشتهم إلى بعض النساء المشهورات بمعرفتهن بالخياطة. والطلب على الخياطة ليس كبيراً بما يكفي ليتفرغ له أحد يقوم به رجلاً كان أو أمراة. وعندما بدأ بعض الرجال باستخدام ماكينة الخياطة (حوالي ١٣٧٥هـ) في دكانه كان نشاطاً ثانوياً.

المطاحن

لا يوجد أحد متفرغ لعملية طحن الحبوب (القمح والذرة وغيرها). وهذه أيضاً لا يقوم بها الرجل مطلقاً بل تقوم بها النساء. وكثير من الأسر تذهب المرأة إلى

مكان فيه رحى وتطحن ما معها من حبوب، وهو عادة قليل جداً ربما لوجبة واحدة فقط، ومن هنا أتى التشبيه الشعبي للشيء القليل جداً بقولهم، من كُمّه (أي كُمّها) للرحى. أي أنه قليل جداً لدرجة أن المرأة تضع كل ما معها من الحب في فم الرحى مرة واحدة لقلته وتقوم بطحنه.

ويلجأ بعض المزارعين لبعض النساء لتطحن لهم الحبوب في المواسم حيث إن لديهم عمالاً كثيرين ويستهلكون دقيقاً كثيراً. ولكن أجرة الطحن دائماً ضئيلة ولذلك تستخدم للتهكم، فيقال من أين لفلان أن يمول مشروعاً، "من طحانة أمه"؟ أي أنه لا يملك مالاً إلا أجرة أمه الطحانة وهو مبلغ لا يذكر وغالباً ليس مبلغاً بل كمية قليلة من الطحين.

ويجدر بالذكر هنا أن بعض المنازل فيها رحى تكون في غرفة قريبة من الشارع يستخدمها أهل البيت لحاجتهم وكذلك إن كلفهم أحد بالطحن له بأجر، ولكنها أيضاً مفتوحة ومتاحة مجاناً لمن أرادت أن تقوم هي بطحن ما معها في هذه الرحى، وهي منتشرة في البلدة. والناس أهل خير ويلتمسون الأجر والثواب، وهي باب من أبواب الصدقة القليلة الكلفة يقدمها بعض الفقراء (الذي يملك رحى) ويجعلها وقفاً لله (سبيل) وينتفع بها أهلها أيضاً.

وينتشر في البكيرية من الأعمال الخيرية الهامة وقليلة الكلفة في نفس الوقت وضع قربة ماء سبيل في المسجد المجاور أو في زاوية ظليلة في أحد الشوارع، ويقوم أهلها بتعهدها أكثر من مرة في اليوم، بملئها بالماء كل ما قاربت على الانتهاء. وهذا السبيل عادة تقوم به امرأة من الفقراء الخيرين تحتسب به الأجر عند الله.

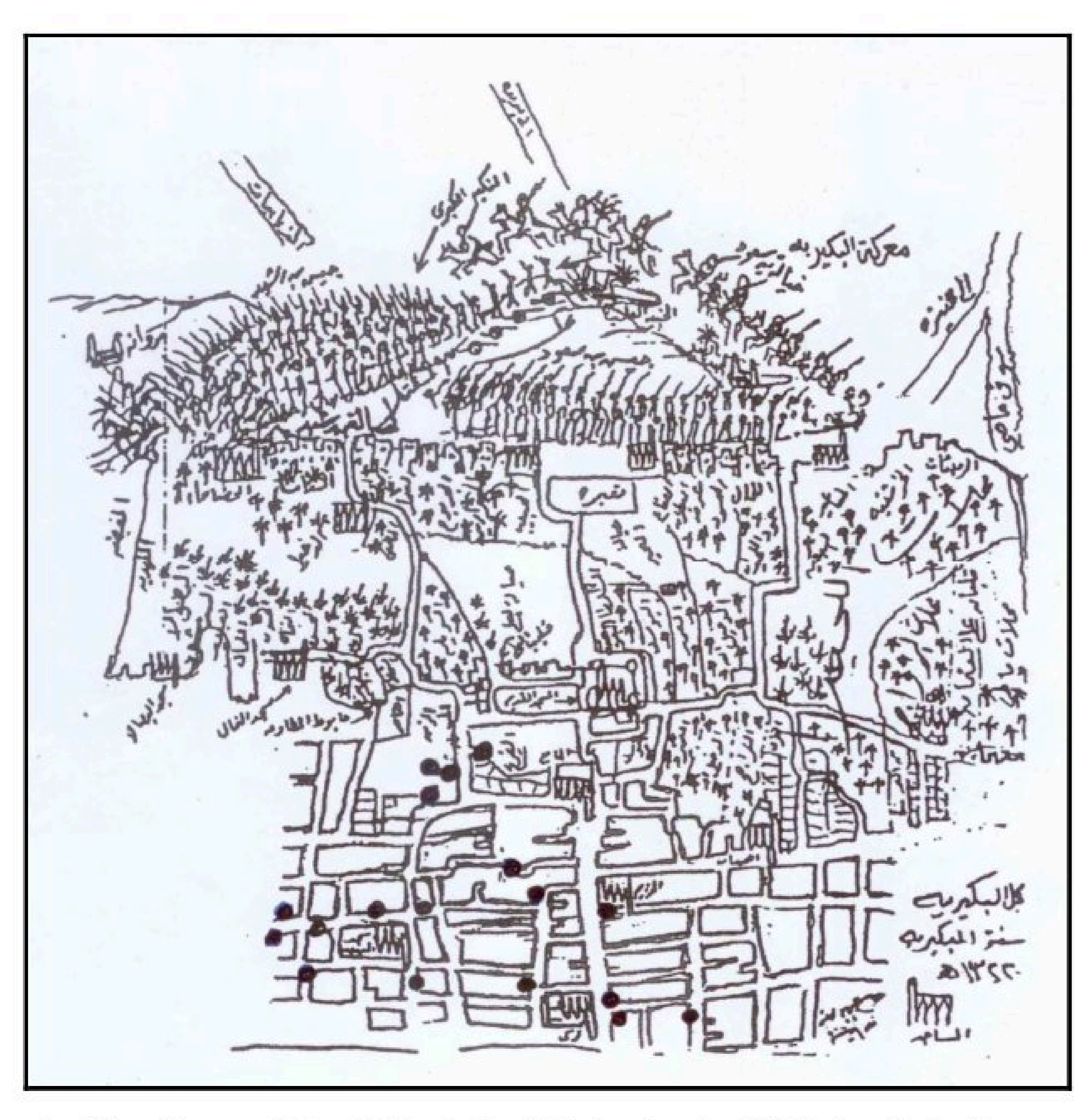
جلب الماء للمنزل

وعلى ذكر الوقف والسبيل يلاحظ في البكيرية أن جلب الماء إلى المنزل، وهي حاجة يومية، بل ربما أكثر من مرة في اليوم، أن هذا العمل اليومي في البكيرية منوط بالنساء فقط، ولا يعرف أن رجلاً يقوم بجلب الماء لمنزله ولا يوجد ما يعرف في بعض الحواضر بـ (السقاء). وأعتقد أن هذا في جميع بلاد القصيم خاصة (الحضر).

والأداة الوحيدة التي تستخدمها النساء لنقل الماء إلى المنزل هو القدور النحاسية الكبيرة، فلا تستخدم القربة على الظهر أو أي وسيلة أخرى. وربما كان هذا سبب انتشار "الحساوة" جمع "حِسو" في البكيرية أكثر من غيرها.

والحسو بئر صغيرة في طرف المنزل من جهة الشارع وله باب على الشارع وباب إلى داخل المنزل. ويقسم الحسو على الشارع إلى قسمين مستقلين كاملين بمدخلين منفصلين، أحدهما للنساء والآخر للرجال. وكل قسم فيه كامل العدة محالة ورشاء ودلو، وقَرو منخفض للوضوء والتغسيل، وقرو آخر مرتفع لمن أراد الاستحمام، والقرو إناء كبير منقور من حجر يصب فيه الماء إذا استخرج من البئر، وفيه فتحات صغيرة كفتحة الحنفية تسد بخرقة. وفي الحسو أيضاً مصلى صغير يكفي لأربعة أو خمسة رجال فقط.

هذه (الحساوة)، بسكون الحاء، منتشرة بكثرة لدرجة إنها أحياناً تكون متقاربة لا يفصل الواحد منها عن الآخر خمسين متراً وكلها سبيل مشرعة للجميع. هذه الحساوة تستخدمها النساء لجميع أغراضها كما تتزود منها بالماء لجميع حاجات المنزل ما عدا الشرب. فماء الشرب يجلب من آبار خاصة تتميز بأن طعم الماء فيها مقبولاً للشرب، يحتسب أهل هذه الآبار فعل الخير فيفتحون "حابوطاً" يخرج من المزرعة على الشارع لتسهيل وصول النساء إليه دون عناء.



صورة رقم (١٥). خارطة للبكيرية سنة معركة البكيرية عام ١٣٢٢هـ كما تصورها أمير البكيرية الأسبق المرحوم محمد بن يوسف بن دخيل الله.

* النقاط السوداء تبين كثرة وتقارب الابار الصغيرة (الحساوة).



صورة رقم (١٦). الدلو المستخدم في استخراج الماء من الحسو.

ولا أعرف أصلاً لكلمة حابوط أو اشتقاقها، ولكن الحابوط حوض مستطيل غالباً يقتطع من المزرعة ويكون مفتوحاً بكامله على الشارع، لكنه داخل عن الشارع بمسافة مريحة جداً وهو مغلق بالكامل عن المزرعة، يخرج الماء من البئر مباشرة إلى هذا الحوض من أحد جوانبه وهذا المخرج يسمى "الكعمة" بسكون الكاف والعين، ويملؤه بالماء ويعود الفائض من الماء إلى المزرعة من فتحة أخرى بعيدة عن الفتحة الأولى لضمان عدم اختلاط الماء النظيف المتدفق من البئر مع الماء الذي تعرض لأي نوع من اللمس بأي شيء. وهذا يعني أن ماءه يتجدد باستمرار إلى أن تتوقف السواني عن العمل. ويرتاد الحابوط هذا كل ذي حاجة إلى الماء لكافة الأغراض بما فيها الوضوء والاغتسال وحمل الماء للبناء وكذلك أصحاب الدواب الذين يسقون دوابهم منه.

ويوجد حابوط للنساء وحابوط للرجال وهي بعيدة عن بعضها وربما في شارعين مختلفين. وهو أساساً أنشئ لكي يخدم المنازل القريبة منه لمختلف الأغراض. وهناك حوابيط (جمع حابوط) وضعت عمداً على المخارج الرئيسة للبلدة (تسمى شِريعة) لخدمة الداخلين والخارجين من وإلى البلدة وكذلك المسافرين والأجانب. هذه كلها أوقاف لوجه الله. وفي البكيرية يندر أن يكون الحسو داخل المنزل غير مفتوح على الشارع.(*) بعكس ما نراه في المدن مثل بريدة وعنيزة يكون الحسو داخل باحة المنزل لاستخدام الأسرة فقط.

مهن أخرى

وبالمثل فلا يوجد حلاقون متفرغون أو خبازون أو مطاعم. وفيما يتعلق بالحلاقة فهي مشهورة تاريخياً في كل بقاع العالم ودور الحلاق في الجراحة والعلاج معروف، والبكيرية في هذا ليست استثناء، فالحلاق لا يدعى حلاقاً لأنه ليس متفرغاً لها ولكنه يملك الأدوات اللازمة ويجيد استعمالها، وغالباً يقوم بهذه الخدمة مجاناً ولكن يوجد من يطلب قرشاً أو قرشين على الرأس الواحد، ارتفعت إلى ربع ريال أواخر الستينيات الهجرية. والحلاق غالباً يقوم بعملية الطهار (الختان) للأطفال الذكور فقط، أما ختان البنات فغير معروف في المنطقة كلها ومستغرب جداً، وعندما يسمعون أن هناك مجتمعات تقوم به تصيبهم الدهشة ويسخرون ممن يفعل ذلك. وكذلك لا يوجد في البكيرية مشاطات محترفات متفرغات بل تتعاون نساء الأسرة على إصلاح شعر بعضهن فلا يوجد "كوافيرات".

(*) لا أعرف سوى اثنين فقط أما الباقي فجميعها سبيل مفتوحة على الشارع.

وكذلك من البديهي أنه لا توجد مغاسل للملابس أو غسالون وحتى الصابون غير معروف قبل النفط رغم أنه كان معروفاً في العصر العباسي. وكانت المادة الشائعة الاستخدام في تنظيف الملابس هو الاشنان "الشنان"، وهو نبات محلي شجيراته صغيرة يسحقونه ويضيفونه إلى الماء فيساعد على تنظيف الملابس، ولكنه يبقى في الثياب أجزاء صغيرة تجعل الثوب أكثر خشونة من شعر الماعز. وفي اليوم الأول بعد الغسل يشعر من يلبسه بوخز في جلده يضطره لحك جلده باستمرار.

ومن المناظر المألوفة رؤية امراة تغسل ثوبها أو ملابس بعض أفراد أسرتها في الحابوط أو تغسل الأواني المستخدمة في الطبخ، وهي غالباً مجرد قدر وصحن ومغرفة فقط. وحتى في الولائم الكبيرة تكون الأواني مقصورة على قدر ضخم (حجِري) بسكون الحاء، وصحن كبير جداً يسمونه صينيه لها قاعدة ترفعها عن الأرض. أما المعصاد أو المغرفة فهي من الخشب فقط.

صناعة الجلود

أهم استخدامات الجلود هي غروب السواني ودلاء الحساوة (الآبار الصغيرة) والقِرب في المنازل لتبريد الماء أو القرب الصغيرة للبن (تسمى السقا أو الصِميل) يخض فيه اللبن لاستخراج الزبد ويحفظ فيه للتبريد، كذلك حفظ السمن ونقله غالباً يكون في قرب كبيرة وصغيرة وهذه غالباً مع البدو، تسمى "عِكّة".

ورغم الحاجة الدائمة والمتنوعة لصناعة الجلود (خاصة الدباغة) فإنه لا يوجد في بلدة في حجم البكيرية أحد متفرغ لهذه المهنة الضرورية كما هو الحال في بريدة وعنيزة، وربما كان السبب أن البادية تقوم بذلك، فيشتري الحضر القِرب من البدو، وهي من المنتجات الحيوانية التي يعتمد عليها البدو في مبادلاتهم مع الحضر. وعلى اية

حال فإن الاستخدام المنزلي لا يشكل طلباً كبيراً على صناعة الجلود مقارنة بالمزارعين، فالقربة تعتبر من السلع المعمرة وكلما قدمت القربة وأصبحت (شنّه) كلما تحسن تبريدها، ولذلك للمبالغة في وصف الماء البارد جداً يقولون "أبرد من ماء شَنّه بشمالي المسجد" ولكن الفلاح يحتاج الغروب لسقي الزرع. وأحياناً يوجد على نطاق ضيق من يقوم بدباغة الجلود في البكيرية وما شابهها من البلدات. ولكن هذه لا يقوم بها الرجال مطلقاً، بل تقوم به النساء فقط، ونساء الحضر لا يحسنّ هذه الصنعة، ولكن النساء من أصول بدوية حديثة العهد بالبداوة يقمن بدبغ الجلود وخرزها.

وفي المجتمع الزراعي لا بد من وجود الخراز، فالخرازة وصيانة الغروب موجودة ويقوم بها رجال أهل خبرة متفرغون لهذه الصنعة ويلحقها خرز القرب والأحذية وما شابهها، رغم أن الانتعال كان مقصوراً على شريحة قليلة جداً من الناس. والنعال تصنع من جلد البعير تحديداً. فذبح البقر ليس شائعاً في البكيرية والقصيم عموماً.

ويلاحظ أن النعال تخدم طويلاً رغم أن المشي هو أساس الانتقال اليومي للناس وليس الركوب. ويبدو أن السبب هو أن الجلود متينة جداً لأن البعير لا يذبح في سن مبكرة بل في الغالب يكون متقدماً في السن قاسي اللحم والجلد، والسبب الآخر ربما، لأن الأرض لينة إذ لا وجود للاسفلت ولا للبلاط.

وتعتبر النعال من الكماليات الغالية الثمن، ويعكس هذه الحقيقة المثل الشائع الذي يقول "شوي والا بالنعلة" أي كادت الضربة أن تصيب النعلة ولكن الله سلم. إذ أن الضربة اقتصرت على قدم صاحب النعلة الذي كان رد فعله وهو يرى الدم يسيل من قدمه أن قال الحمد لله شوي والا بالنعلة. والمعنى أن القدم سوف تبرأ بعد فترة دون دفع تكلفة بينما لو أن الضرر وقع على النعلة فسوف تحتاج إلى ثمن يدفع للخراز.

كذلك لا يوجد دكان لحام أو جزار منتظم لأن اللحم لا يوجد يومياً ولا حتى أسبوعياً وذلك بسبب تدني المستوى المعيشي (لضيق ذات اليد) لغالبية الناس. ولكون المصدر الأساسي للحوم هو لحم الإبل فلا يستطيع الجزار أن يجازف ويذبح بعيراً وهو لا يضمن تصريفه في نفس اليوم لضعف الطلب بسبب الفقر وليس عزوفاً عن اللحم. وكذلك عدم وجود ثلاجات لحفظه عدة أيام. ولذلك كل عشرة أيام أو أكثر أو أقل حسب الظروف يتشارك عدد من الناس بتدبير وترتيب من القصاب (الجزار). فإذا ضمن القصاب عدداً من الشركاء لمعظم كمية اللحم، يتكفل هو بعرض الباقي للبيع في دكانه وتصريفه على حسابه. ومن هنا جاء تسميتهم اللحمة (مَشرَك) بسكون الشين. ويكون تقسيم البعير بالكميات (أسهم) دون اللجوء إلى الوزن رغم انتشار الموازين ومعايير الوزن. لكن الوزن في هذه الحالة لا يحقق العدالة لأن نوعية اللحم، ومن أي جزء من البعير، وحجم العظام وغيرها. هي التي ترجح كمية على أخرى.

وليس من المستغرب أن يعاد طبخ العظم أكثر من مرة للتأكد من استخراج كل ما به من دسم، وكان الشحم في ذلك الوقت أغلى من اللحم، واللحمة الممتازة هي اللحمة الدسمة جداً. ويقولون في المثل في ذلك الزمان "شبرٍ من ذنب الخروف ولا بوعٍ من ذنب الثور" (البوع أطول من الذراع).(*) والآن إذا اشترى الواحد منا لحماً قال للجزار نظفه من الشحم.

ومعيار الوزن المعروف هو الوزنة ونصف الوزنة وربع الوزنة وهكذا. وهي أكثر من الكيلو جرام (حوالي كيلو ونصف) وهي منتشرة في المنطقة الوسطى كافة

(*) ومنه أنه لا يزال كثير من الناس إذا قيل له "على رأسي أو على خشمي" بمعنى الموافقة، يرد ويقول عليه الشحم. وقول العرب "ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء فحمة" باعتبار أن قطعة الشحمة من أغلى الأشياء والفحمة عديمة القيمة تقريباً.

دون المنطقة الشرقية فلهم موازينهم (الرطل، والربعة)، وكذلك المنطقة الغربية لها موازين مختلفة عن الوسطى وعن الشرقية، ففيها الأقة والأوقية.

ومثل ذلك يقال عن المقاييس، فقد كان شائعاً في المنطقة الوسطى الذراع ولا يعرفون المتر أو الياردة. وكذلك المكاييل فهي الصاع ونصف الصاع وثلث الصاع وهناك مقاييس صغيرة (نصيف وربيع وثمين) وهي منتشرة في القصيم، وهي مختلفة عما هو شائع في المنطقة الغربية والشرقية.

الحدادة

الحدادة صنعة لا غنى عنها منذ أن أخذت المعادن مكانها وحلت محل الحجر والعظم والخشب والفخار. وخدمة الحداد يحتاجها الفلاح ويحتاجها الناس في منازلهم، ولكن نظراً لأن كثيراً من الأواني تستورد جاهزة يصبح دور الحداد منصباً على الصيانة مع بعض الأشغال المهمة والصناعات الصغيرة.

وفي البكيرية قبل النفط كان هناك حداد واحد متفرغ يقدم خدماته للمزارعين وللأهالي. وقد كان الحداد يصون الأسلحة والفؤوس والسكاكين والمساحي (جمع مسحاة) والمحماسة والمقرصة والملقاط، والقدور النحاسية ودلال القهوة بطلائها بالقصدير (يربها) تجنباً لكربونات النحاس الخضراء التي تؤثر على طعم الطعام والقهوة. ويقوم الحداد كذلك بصناعة القدور وبعض الأواني النحاسية مختلفة الأشكال، يفصلها كما يريد وذلك بقصها من ألواح نحاسية كبيرة مستوردة وتشكيلها وزخرفتها على الصورة التي يريدها.

وعملية صيانة الأواني النحاسية يقوم بها أحياناً جماعات رحالة يدعونهم (الصلَب)، يدعونهم في بعض الدول الغجر أو النور. يجوبون البلدان وينصبون

خيامهم خارج البلدة ويدورون على المنازل يعرضون خدماتهم بترديد العبارة "عندكم شيء يرب وإلا يشَرّط" أي هل عندكم أواني نحاسية تحتاج إلى طلاء أو أواني خشبية تحتاج إلى تشريط (خياطة الأواني الخشبية "مواقع وصحـــاف" جمع موقعة ينطقها البعض ميقعة، خياطتها بأسلاك نحاسية). كما أنهم يبيعون السكاكين والملاقط أو المناقيش وغيرها ويرحلون بعد أسابيع قليلة.

النجارة

حجم الطلب على خدمات النجار يفوق كثيراً حجم الطلب على خدمات الحداد رغم ضرورة كل منهما. ولذلك كان حداد واحد يكفي البكيرية وخمسة نجارين مستقلين عن بعضهم متفرغين لتقديم خدماتهم للمزارعين والاحتياجات المنزلية. وأهمية الطلب على النجارين سببها الأهمية العظمى لدور الخشب في الحياة الاقتصادية للحضر. ففي الزراعة كما أوضحنا سابقاً أن كامل عدة السواني لا وجود للمعادن فيها أطلاقاً، اللهم إلا محورين صغيرين للدراجة وكذلك (المخلب) والمسحاة والفأس (الفاروع والتسزمة) وبقية الأدوات اللازمة لسير الأعمال في الزراعة. وفي ذلك الوقت كان الاعتماد الكلي على الخشب (خشب الأثل فقط).

ويقوم النجار عادة بالذهاب إلى المزارع ومعه أدوات العمل ويلتزم بأنه يكون تحت الطلب طوال الموسم. وفي نهاية الموسم يعطى أجره وهو غالباً مقدار من التمر أو القمح. وبالإضافة إلى حاجة المزارع للنجار فإن الأهالي يحتاجون النجار خاصة لصناعة وصيانة أبواب المنازل وهي من خشب الأثل الصلب، أما النوافذ فهي ليست شائعة. ويصنع من خشب الأثل أيضاً بعض الأواني المنزلية مثل (الموقعة والصحفة والمغرفة)، ولها أشكال وأحجام وأعماق مختلفة وهي قوية جداً.

البناء

بناء المساكن في بداية نشأة البكيرية يعتمد على الطين الزراعي وخشب الغضى للسواكف والسقوف الضيقة. والأسلوب الشائع هو بناء الجدار على شكل عروق، ولكن نظراً لأن الطين الزراعي لا يقاوم الأمطار عبر السنين فإنهم يعتمدون زيادة سماكة الجدران. ولكن بعد اكتشاف الطين الفخاري الذي مر ذكره في الجزء السابق فإن عروق الجدران لا تزال موجودة إلى يومنا هذا، رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان على بعضها. وكان اسلوب البناء على شكل عروق هو المعروف ولم يدخل البناء باللبن إلا أواخر الستينيات الهجرية من القرن الماضي. وكان أشهر من أدخل البناء باللبن إلى البكيرية هو "الستاد" المرحوم حمد السدراني. وانتشر بعد ذلك بسرعة لأن البناء باللبن أكثر استقامة وضبطاً وأجمل شكلاً من الخارج. ومع ذلك فإن الإقبال على البناء باللبن لم يكن كبيراً في البداية فقد كانت هناك بعض التحفظات والشكوك حول قوته (هذا ديدن المجتمع المغلق التشكيك بكل شيء غير مألوف، وما أكثر غير المألوف للمجتمع المغلق). أما البناء بالعروق فيندر أن يضبط (الستاد) العروق باستقامة دقيقة، ولذلك يعرف الناس من شكل العروق وعرضها واستقامتها من هو الستاد الذي بنى هذا الجدار مثلما يعرف المختصون خطوط العلماء في الكتابة في ذلك الوقت، هذا خط الشيخ فلان وهذا خط كتبه فلان، فليس من العسير على كثير من كبار السن أن يشير الى بعض الجدران ويقول هذي عروق الزغيبي وتلك عروق بن عمرو وذلك الجدار عروق القنيّ.

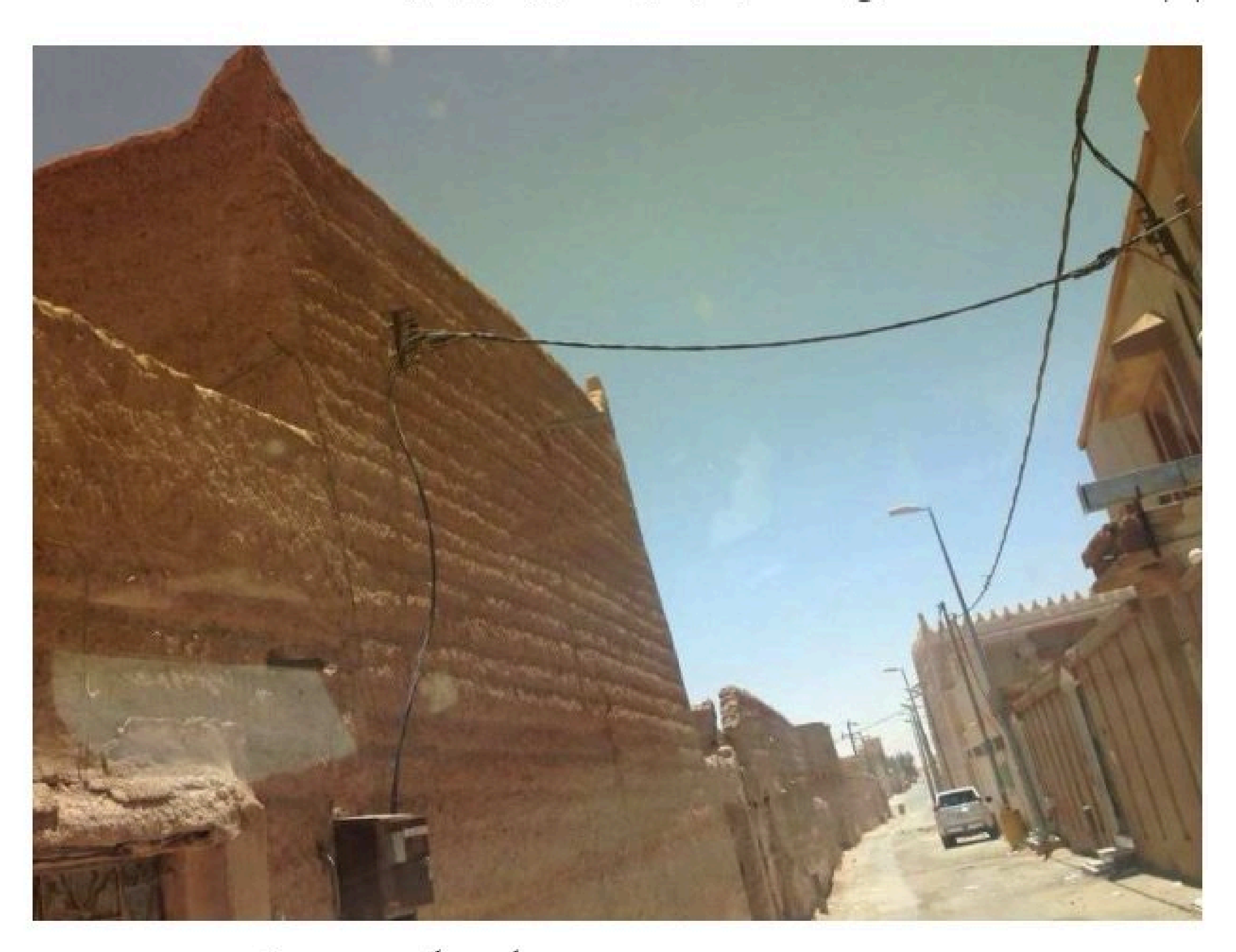
وبناء المنزل في البكيرية مثل غيرها من البلدان يعتبر من أكثر الاحتياجات تكلفة، رغم أن الأرض ليست مشكلة، وأن الطين ليس مشكلة إلا في جلبه إلى المكان، وتنحصر أهم عناصر التكلفة في الآتي:

(١) عنصر العمل (الستاد ومعاونيه). والستاد هو المهندس والمصمم، والمقاول وهو المهني المنفذ، والغالب أن يكون الغداء يومياً على صاحب المشروع (البيت).

(٢) خشب الأثل للسقوف والأبواب والسواكف فهو سلعة مرتفعة الثمن لعدم وجود بديل محلي، ولأن استيراد البديل أكثر تكلفة. ولأن شجرة الأثل التي تقطع اليوم تحتاج إلى سنوات لتنمو مرة أخرى.

(٣) الحجارة للأساس والجوانب السفلية للجدران الخارجية وكذلك جريد النخل والسعف الذي يوضع فوق الخشب لكي يفرش عليه الطين. وهذه الأشياء ليست مكلفة بل قد تأتي على سبيل الإعانة وهو أمر شائع.

ويتكون المنزل العادي من فناء في مقدمته يسمى الحوش، ومجلس للرجال يسمونه القهوة لأن (القهوة) تعد فيه ويتم تناولها فيه سواء من أهل البيت أو الضيوف. وقد يكون مدخل (القهوة) منفرداً وقد لا يكون. ويتكون المنزل من المقدمة (وهي ردهة صغيرة خالية من أي فرش أو أثاث) تتصل بها القبة (الصالة) التي تتوزع على جوانبها الغرف (الصفاف) مفردها (صُفّة) بضم الصاد وتشديد الفاء. والصفة صغيرة جداً بمقاييس يومنا هذا ٢×٣ متر أو أقل. ومساحة المنزل كاملة تتراوح ما بين ٤٠ إلى ٨٠ متراً مربعاً وهو خال من أي فرش ما عدا القهوة (عند قليل من الناس) والغرفة التي ينامون فيها، ويحرص الناس على فرش أرضية داخل المنزل بالرمل الصحراوي الأصفر النظيف يسمى (سِهلِة) بسكون الهاء، وتجدد السهلة بعد كل فترة، فهي غير مكلفة لأنها قريبة من البلدة وهي الفرش الشائع لجميع المنازل والمساجد، فلا يعرف في المسجد أي فرش أو سجادة بها في ذلك المسجد الجامع الوحيد في البلدة، وحتى المحراب مصلى الإمام ليس مفروشاً.



صورة رقم (١٧). هذا المبنى صامد رغم مرور ٨٠ عاماً تقريباً دون إجراء أي نوع من الصيانة الخارجية، وهو مسكون في الوقت الحاضر ولا يظهر على الطين أثر الزمن لأنه من الطين الصلصالي الذي اشتهرت به البكيرية. ويلاحظ أن العروق لا تزال بارزة بوضوح، كما يلاحظ أن "الستاد" الذي بنى هذه العروق ليس بارعاً جداً فبعض العروق بارزة في النصف السفلي من الجدار ومعظم النصف العلوي عروقه منبعجة إلى الداخل.

وإذا لاحظ الناس أن حماراً يتردد على أحد المنازل يحمل (سهله) فهو قد يكون مؤشراً على أن هناك مناسبة سعيدة ستحدث في هذا المنزل (زواج ابنتهم مثلاً).

ولا يوجد أي نوع من الإضاءة في البيوت أو المساجد اللهم إلا سراج بدائي صغير مكون من علبه يخرج منها فتيل، والطاقة ودك من شحم الحيوان. والفرش عامة من الحصر المنسوجة من خوص النخل (خِصاف) وكذلك المفارش والزنابيل بأحجامها المختلفة، الكبيرة جداً والمتوسط يسمى زِبيل، والأصغر يسمى محِدِرة بسكون الحاء، والصغير جداً يسمى مطحن وكلها من خوص سعف النخل.

ولا يفعل الناس فـي المنازل شيئاً لتوقي الحر والبرد فهم فـي الحر ينامون ليلاً في سطح المنزل (الطاية)، أو في أفنية المنازل المكشوفة (الحوش). وفـي النهار يتأقلمون مع الأمر الواقع، أما في الشتاء ففي الليل في داخل الصفة، والطين من أفضل مواد البناء عزلاً للحرارة، ويتقون البرد بالأغطية وكلها صناعة مـحلية ويندر وجود المستورد وهي غالباً من صوف الغنم أو شعر الماعز. وأبواب المنازل صغيرة والمنازل متلاصقة رغم أن المساحة (الأرض) ليست مشكلة. ولكن ربما يكون هاجس الأمن يدفع الناس إلى الاقتراب من بعضهم. والشوارع ضيقة غير مضاءة ليلاً ولكنها في البكيرية مستقيمة إلى حد ما مقارنة بغيرها من البلدات. ولكن معظم شوارع البكيرية حتى القديم جداً منها لم يشكل عائقاً كبيراً لدخول السيارات عندما وصلت السيارات البكيرية.

ومن التجهيزات الأساسية لكل منزل (الجصة) وهي مخصصة لكنز التمر بما يكفي طوال العام، وهي فـي البكيرية تقام فـي غرفة داخل أعماق المنزل وتبنى بألواح حجرية مستطيلة وتسقف بلوح من الحجر وتفرش بمثله وتتماسك هذه الألواح ببناء من الجص وهو سبب التسمية. وللجصة باب مرتفع جداً وهو صغير جداً يكفي لدخول شخـص رشيق، غير بدين، (في ذلك الزمان نادراً ما يوجد شخص غير رشيق) وهذا الباب يغلق ويفتح بمفتاح لضبط الاستهلاك. وتجهز الجصة بـ (مدبسة)

وهي إناء ملاصق للجصة مصنوع من الجص يتصل بأسفل الجصة بأنبوب يسرب الدبس من الجصة إلى المدبسة ومستوى المدبسة منخفض عن مستوى قاع الجصة لكي يتسرب الدبس إليها بفعل الجاذبية. والحجم المتوسط للجصة هو حجم ثلاجة متوسطة الحجم وهناك جصة مصغرة تسمى "مقعدة" وهي إناء ضخم مبني من الجص لكنه يمكن نقله من مكان لآخر وشكله بيضاوي فتحته تشبه فتحة فرن مخبز التميس (المعروف).

وفـي الجصة يكبس كامل "السقمة"(*) (وهي كامل كمية التمر التي تكفي الأسرة إلى الموسم القادم). وهي تقريباً تسعة أشهر، أما الأشهر الثلاثة الباقية فهي بداية موسـم الرطب. والهدف من كبس التمر هو تفريغه مـن الهواء لحمايته من التسوس.

وقـد جرى العرف في البكيرية في ذلك الوقت أنه قبل بداية الرطب بقليل يتم الإعلان في السوق بأن الحراج يوم غدٍ سيكون فـي نخل آل فلان وبعد انتهاء الحراج يعلن أن الحراج غداً في نخل آل فلان وهكذا.(**) وفـي الحراج يشتري كل رب أسرة نخلة يتردد عليها طوال الصيف كل يومين أو ثلاثة ويلتقط منها ما هو صالح للأكل رطباً أو "مناصيف". وفـي هذه الفترة يتوقف جميع الناس عن أكل التمر وينصرفون إلى الاستمتاع بأكل الرطب، وهم يحسدون العصفور لأنه يبدأ بأكل الرطب قبلهم. ولا أحد يأكل التمر في وجود الرطب إلا البدو، فمن يفضل القديد (القفر) إذا حضر اللحم الطازج!!.

(*) تستهلك الأسرة الصغيرة في حدود ٢٠٠ وزنة في السنة باستثناء فترة الرطب.

(**) وثمن النخلة المتوسطة من نوع الشقراء في منتصف الستينات الهجرية يتراوح ما بين ٨ – ١٠ ريالات حسب موقع المزرعة من حيث المسافة ونوع الثمرة وسماحة الفلاح أو جلافته.

وإذا كان قد بقي شيء من تمر العام الماضي فهو يترك إلى حين انتهاء موسم الرطب. وبهذا يكون قـد حال عليه الحول ولذلك يسمونه (حَويل). ويسمون التقاط الرطب خلال الصيف (خَـراف) ويسمونه (المقيض) لأنه يكون فـي فترة القيض وهو الاسم الشائع للصيف. أما كلمة الصيف فهـي تطلق علـى فترة الربيع، (شهر مارس وأبريل).

وبعد انتهاء الرطب ونضوج التمر نضجاً كاملاً يحصد النخل كاملاً في يوم واحد ويسمون هذه العملية "الجداد" وفي بعض المناطق يسمونه صرام النخل. والأسرة المتوسطة تستهلك حوالي ٥٠٠ كيلو جرام من التمر خلال العام إضافة إلى ما تستهلكه من الرطب.

ولما كان (جداد النخل) غالباً يتم في يوم واحد فإن، ذلك اليوم يكون معروفاً للناس على نطاق واسع فيقال "آل فلان مشرعين" بتشديد الراء. ويقال "المرار حامي" (المرار حبل قوي طويل مفتول من عذوق وألياف النخل وقد يكون من عصب البعير الممتدة من رأسه إلى ذنبه مروراً بظهره وهو يستخدم في إنزال العذوق من رؤوس النخيل بدلاً من قذفها. ويقال المرار حامي لاحتكاكه بجريد النخل عند انزال العذوق والمعنى هنا أن العمل على أشده، وأصبح التعبير يطلق على اي عمل قائم على قدم وساق.

وإلى جانب المعنيين، (الفلاح وذويه، والدائن، والذين لهم شراكة في الملك، وهم كثيرون بفعل الانتقال بالتوريث، والزبائن الذين يشترون التمر من بدو وحضر)، إلى جانب كل هؤلاء فإن المكان مشرع لمن أراد أن يأتي ويأكل ويشارك في العمل البسيط جداً الذي لا يتعدى تفريط التمر من الشماريخ في الزنابيل الضخمة جداً (يسع الواحد ما يقرب من ١٤٠ كجم). وهذه الزنابيل تذهب إلى بيوت أهلها مباشرة.

وفي يوم الجداد، ولأن المكان مشرع للجميع، فإن بعض السائلين يأتي ويعطى ولا يرد، بل أن رد السائل في مثل هذا الموقف يعتبر امراً معيباً تتناقله الألسن من باب ثلب هذا التصرف (رد السائل يوم الجداد) ويقال (يوم الجِداد كلٍ كريم). وإذا حدث هذا (رد السائل) من أحد فإنه يكون حديث الناس من باب الشماتة والسخرية. ومن كثرة ترديد الحديث عن مثل هذه المواقف يزاد في الحكايات غير ما فيها حتى تصبح ضرباً من الأساطير.

فمن الحكايات التي تروى أن شخصاً يقال إنه اصر على شريكه أن يصرموا نخلهم ليلاً لئلا يأتي شحاذون، وأناس يأكلون مجاناً. وتقول الحكاية أن الشريك استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ورفض أن يقوم بعمل مشين كهذا، مما أضطرهم إلى اقتسام الثمر في رؤوس النخل قبل صرامه. فقام الرجل وصرم نصيبه ليلاً وبعد أيام قليلة شرّع شريكه نهاراً واجتمع الناس وصرم نخله، وبعد أن أكل من أكل، وأعطي من سال، واختلس من الصبيان من التمر ما اختلس، وبعد كل هذا وزن تمره فوجده يفوق تمر شريكه بنسبة كبيرة. وأصبحت الرواية تروى كدليل على البركة في العمل الطيب. وفي التراث الشعبي حكايات كثيرة شبيهة بهذه الحكاية.

واختلاس الصبيان لبعض التمر في يوم الجداد أمر معروف، ويكون ذلك بأن يلبس الصبي ثوبين، رغم شدة الحر، فوق بعضهما ويربط حزاماً على الثوب الداخلي على بطنه مكوناً "مِجْثل"، ويقوم برمي التمر من فتحة جيبه (وهو يوهم من حوله أنه يرفع يده نحو فمه) إلى الداخل بين جلدة بطنه وثوبه الداخلي ويذهب ويدفنه ليأكله في وقت آخر أو يبادله في السوق بشيء أخر، بطيخة أو ما شابه ذلك، أو عظام مطبوخة لفترة طويلة لاستخراج كل دسمها، ويكون عليها بعض الأجزاء الجلاتينية حول المفاصل وهذا ليس لحماً ولكنه يمت إلى اللحم بقرابة بعيدة.

النقل

انتقال الأفراد رجالاً ونساء داخل البلدة بما في ذلك المزارع وكذلك "القصور" القريبة خارج البلدة يذهبون إليها مشياً، حتى لو كانوا يحملون معهم بعض الأمتعة. وإذا لزم الأمر يستعير الناس دابة (حماراً) من أحد المزارعين.

ونقل الأحمال من المزارع إلى المنازل أو من القصور إلى البلدة أو بين القرى القريبة أو بين المنازل كل هذه في الغالب يستخدم لها الحمار، وفي الغالب أما أن يكون حمار الفلاح نفسه أو أن يكون بالإعارة إذا كان لمرة واحدة أو مرات قليلة. والحمار الأبيض متوسط الحجم (يظهر كثيراً في الأفلام المصرية القديمة) هو المستخدم في المنطقة كلها وليس البكيرية فقط. وسبب الاكتفاء بهذا الحمار وجود الجمل.

أما نقل مواد البناء من خشب أو حجارة أو نقلات الطين أو الحطب أو الأحمال الثقيلة إلى البلدات الأخرى أو المدن والمسافات الطويلة فكل هذا يستخدم له البعير.

وهناك نشاط اقتصادي مهم قائم على النقل على الجمال يسمى الجماله بتفخيم الميم. ويدعى الشخص الذي يمتهن مهنة النقل باستخدام الإبل يدعى الجمّال. وهذه المهنة غالباً يقوم بها رجال أشداء لهم خبرة واسعة، وحصافة، وقدرة على التصرف، ومعرفة بالطرق، وطباع الجمال، ومخاطر الطرق، من البشر وغير البشر. وهم في حركة دائمة بين البلدان ومعروف عنهم انهم لا يلتزمون بالمواعيد نظراً لأن الجمّال قد يصادف طلباً مغرياً يحول بينه وبين الموعد المسبق (خاصة إذا كان قليل الأهمية) ولذلك يقول المثل "إذا واعدت جمّال واعد عشرة".

والجِماميل (جمع جَمّال) ينقلون الناس للمسافات البعيدة بريدة وعنيزة والرس حائل وغيرها. وكذلك ينقلون البضائع الثقيلة للمسافات القريبة والبعيدة، مثل خشب الأثل، وجريد النخل، وأحمال القمح والتمر خارج البكيرية، وألواح الحجارة

(يسمونها فروش، مفردها فَرش) (بسكون الراء) للبناء. ويقوم الجماميل بنقل الرسائل والأخبار بين البلدات، خاصة اسعار السلع في المدن والنقل الثقيل لمسافات طويلة مكلف جداً قد يصل إلى أكثر من ٣٠٪ من قيمة البضاعة.

وفي البكيرية عدد من الجماميل معروفين، بعضهم لديه جملين وبعضهم لديه أكثر وبعضهم يشتغل على جمل واحد. والملاحظ أن مهنة الجمال غالباً لا تؤدي إلى الثراء مثل غالبية المهن، فهو نشاط معيشي فقط وهو شاق ولا يخلو من مخاطر مختلفة، وهذا ما جعل أحد الجماميل يتمنى أمنيته الشهيرة المعروفة (يا رب تقلب ها لنفود كله عيش "قمح" لآل فلان "أحد الأسر الثرية" وأنا أنقله كله). ولو حدث هذا لأصبح ثرياً من هذه المقاولة الضخمة وحدها، ولكنه لم يطلب من ربه القمح بل طلب أجرة النقل فقط. وهذا يذكر بدعاء أحد البسطاء الذي ذهب إلى الممول لكي يستدين منه مبلغاً، فقال له: ليس عندي الآن شيء (نقود) إذا رزقني الله دينتك، فذهب الرجل البسيط يدعو ربه بأن يرزق فلان لكي يقرضه "يا رب ارزق فلان يدينن".

ويتميز الجمّال بسعة الاطلاع مقارنة بغيره، لأنه كثير الاحتكاك بالآخرين من مختلف المشارب ويتعرض لمختلف أنواع المواقف مع البشر الخيرين والأشرار، البدو والحضر، المنافس والزبون، وكذلك الظروف الطبيعية والمفاجآت والحوادث المختلفة.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية في البكيرية قبل النفط

في الفصلين السابقين (الثاني والثالث) تم التعرف على كثير من تفاصيل الحياة الاقتصادية في البكيرية قبل النفط. ثم التعرف على المستوى الاقتصادي العام، وأهم الأنشطة الاقتصادية، وأهم الأدوات المستخدمة والكميات والصادرات و التمويل والنقل وغيرها.

وقد اتضح من العرض السابق أن الحياة الاقتصادية كانت إجمالاً حياة كفاف ضعيف المستوى محصور تقريباً في الضروريات (طعام، سكن، ملبس) وفي الحدود الدنيا لغالبية الناس.

وسيكون هذا الفصل مكرساً للتعرف على تفاصيل مفردات الحياة الاجتماعية الناجمة والمصاحبة لتلك الحياة الاقتصادية الشحيحة. وسوف يتم التعرف على مدى الترابط الوثيق والعلاقة الطردية بين المستوى الاقتصادي من جهة، وبين الظروف الاجتماعية (الصحة والتعليم والثقافة ومختلف العادات والتقاليد والمناسبات وغيرها من مفردات الحياة الاجتماعية والثقافية) من جهة أخرى.

الصحة

صحة الناس في ذلك الوقت (قبل النفط) تعتمد إلى حد كبير على المناعة الطبيعية لكل فرد، وليس معروفاً أن للسلطات أي دور تفعله للتعامل مع الأمراض والأوبئة.

والبيئة الصحراوية عموماً أكثر نقاء واقل تلوثاً وأقل انتشاراً للأمراض الوبائية نظراً لتطرف الجو (الحرارة والجفاف والبرد القارس) وعدم انتشار المستنقعات، أو المياه المتسربة أو الراكدة، التي هي في العادة تشكل حاضنة ممتازة للحشرات والبكتيريا. ومع ذلك فإن الأمراض جزء من حياة الناس ولكنها أقل بالمقارنة مع بيئات أخرى، ولكل بيئة أمراضها المستوطنة، ولكن الصحراء قاسية على مستوطنيها من الحيوانات والنباتات والبشر، ومن باب أولى الحشرات والمكروبات. ويلاحظ أن الأمراض المرتبطة بالمستنقعات كالملاريا ومرض العيون (الرمد خاصة) ليست ظاهرة في البكيرية والقصيم عموماً بشكل ملحوظ بسبب غياب المستنقعات. ونظراً لوجود المستنقعات حول بلدة قصيبا فقد اشتهرت (حمى قصيبا).

وبما أن الحياة في الصحراء دائماً تلامس حد الكفاف فهي تطبيق طبيعي لمقولة "الصحة بأطراف الجوع"(*) أو مقولة "ذهب الجوع إلى الصحراء فقالت الصحة وأنا معك"، والبعض يقول أن العبارة هي "ذهبت الحرية إلى الصحراء، فقال الجوع وأنا معك". وكلا العبارتين يصعب رفضهما بشكل مطلق.

وأخطر الأمراض المعروفة في جميع حواضر وسط جزيرة العرب وأشدها فتكاً هي الأوبئة العالمية المشهورة كالجدري والحصبة والحميات الخطيرة، وأكثر ضحاياها من الأطفال، ربما لأن بعض الكبار لديهم مناعة اكتسبوها من الفترات السابقة.

(*) المقولة كاملة هي: "الصحة باطراف الجوع والمرجلة باطراف الهبال".

وقد انتشر الجدري في البكيرية وسائر حواضر جزيرة العرب وبواديها، وإن بدرجة أقل، وكان ذلك سنة الجدري الشهيرة في أواخر الخمسينات الهجرية وقد أهلك خلقا كثيراً وشوه كثيرين من الناجين خاصة في الجلد والعيون. وقد كان دخول الجدري لهذه البلدات مثل غزو الجراد أو جيوش المغول والتتار تجتاح وتدمر وتقتل وتفسد وتخرب وتذهب دون ذنب سبب الغزو ودون مقاومة له. وقد عاد الجدري مرة أخرى بعد عقد من الزمان ولكن ضحاياه كانوا أقل كثيراً من المرة السابقة ربما لتطور المناعة لدى كثير من الصغار والكبار من آثار المرة السابقة وفي ذلك الوقت ظهر التطعيم ضد الجدري وجاءت فرقة تطعيم الناس مجاناً ومع ذلك وكما هو متوقع فقد وجدت هذه النعمة العظيمة (التلقيح ضد الجدري) من يرفضها ويقاوم ويشكك، وهذا ديدن المجتمعات المغلقة. فالناس أعداء ما جهلوا، والمجتمع المغلق يجهل الكثير.

وأما الأمراض غير القاتلة عادة كالزكام والصداع والأمراض الباطنية وغيرها فهي لا تشكل قلقاً كبيراً للناس ويقولون "اللي يعود ما يكود" أي أن المرض المعروف بأنه يتكرر ويصيب معظم الناس ولا يقتلهم فهو أمر سهل. ولذلك يقولون عن السعال والزكام وما شابهها "مرض الرخوم" أي لا يعتبره الأشداء من الرجال والنساء مرضاً ولا يمنعهم من العمل.

وهناك الأمراض العارضة المعروفة والأمراض العارضة غير المعروفة. فالمعروفة كالسل مثلاً ليس لديهم له علاج ولكن انتشاره ليس كبيراً، فقد يذكر حالات ليست كثيرة وقد يكون هذا بفضل البيئة غير الملائمة لانتشاره إلا عن طريق عدوى قوية بسبب احتكاك مباشر.

أما الأمراض غير الشائعة وغير المعروفة وحتى المعروفة بشكل غير دقيق كالحميات لا يميزونها عن بعضها، هذه الأمراض يبذلون قدر استطاعتهم في البحث

عن دواء لها. وبحثهم للاستشفاء يتجه إلى بعض كبار السن المعروفين بفراستهم وخبرتهم في تحديد أنواع الأمراض واقتراح الدواء وما يجب فعله من احتجاب أو تناول بعض الأعشاب كدواء. هؤلاء المتمرسين في التعامل مع الأمراض ليسوا مشعوذين (وليسوا مثل بعض عطاري هذا الزمن)، وهم من أهل المروءة ولا يأخذون مقابل ولا يقدمون دواء ولكنهم يصفونه وهم من الرجال والنساء. والرجل قد يعالج أو يشخص المرأة ولكن المرأة تعالج النساء فقط أياً كان نوع المرض.

وأكثر وصفاتهم الكي في مناطق مختلفة من الجسم حسب الأعراض. والملاحظ أنه يحدث الشفاء لبعض الحالات، وفي غياب البديل فلا مفر من الاعتماد على هؤلاء خاصة أنه لا يساور أحد شك في صدقهم مع أنفسهم وأن نصيحتهم هذه تحوز على الثقة وذلك لغياب المصلحة الشخصية.

ومن مناطق الجسم المشهورة بالاستهداف بالكي مؤخرة الرأس أعلى الرقبة (العلباة) يعتقدون أنها مجمع عروق وأعصاب كامل الجسم، ومن أنواع الكي الناجح جداً، كي ما بين الأضلاع لما يسمونه (جنب) يقال أن الرئة تلتصق بالأضلاع وأن الكي يحررها فوراً فيشعر المريض بالشفاء في نفس اللحظة.

ومن الممارسات الطبية الشائعة تجبير الكسور وهناك أناس معروفون بمهارتهم في تجبير الكسور لكن مهارتهم فيها تقتصر على الجانب الميكانيكي فقط، ولذلك إذا كان الكسر مصحوباً بجروح ففي كثير من الأحيان يلتهب وتتفاقم المشكلة وقد يصل الأمر إلى بتر العضو أو الوفاة. ولدى بعضهم اعتقاد بأن التمر لا يأكله من به كسور ويحذرونه من ذلك تحذيراً شديداً، ولكن لم يثبت الطب الحديث أصلاً لهذا الاعتقاد. ولا يوجد في أقسام العظام في المستشفيات الحديثة تحذيرات بهذا المعنى.

وفي جميع الأمراض الباطنية والعيون والنساء والولادة والصدر والجروح وغيرها، لديهم دائماً بعض الأعشاب والبهارات وبعض المركبات الشرقية كالكركم، والقرفة، والفلفل بأنواعه، والرشاد والحبة السوداء، والصبر، والـمرة، والحلتيت، والبقّم، والحلبة، والكمون، والثوم وغيرها. وكذلك خليط من هذه النباتات أو البهارات.

والاستشفاء بهذه الأعشاب قد ينجح في بعض الأحيان مصادفة لأن المريض كان سوف يشفى بها أو بدونها، وقد ينجح في حالات عرف بالتجربة أنه يعالج حالات كهذه.

ومن المعلومات الثابتة لديهم اثر الملح على الجروح ولذلك يسارعون بوضعه على الجروح وفي العيون أيضاً دون معرفة بكيفية عمله ولكنهم يعرفون النتيجة وهي غالباً إيجابية.

النحاتة (الحسد)

وبجانب هذه الأساليب للتعامل مع الأمراض فإنهم في البكيرية مثل عامة الناس في كثير من مناطق العالم وبدرجات متفاوتة وخاصة في وسط الجزيرة العربية فإنهم يعزون الأمراض إلى العين ويسمونها (النحاته) يقولون فلان نحوت أو ينحت أو ناحتُه فلان أو ناحِتّه فلانة إذا كان الناحت مؤنث. ويعبر عنها في بعض مناطق نجد بـ (نِظُول) يعني فلان نحوت. والمعنى في كل هذا إصابة بالعين. وهذا كان منتشراً على نطاق واسع. وحتى في ثقافات أخرى غير عربية يسمونها "العين الشريرة".

يلاحظ أن الأمراض الوبائية المشهورة كالجدري والحصبة وما شابهها لا تعزى إلى العين والحسد، رغم أنهم كثيراً ما يعزون الحوادث التي لها أسباب موضوعية تفسر

حدوثها مثل السقوط من النخلة أو من البعير أو الحمار أو من أعلى جدار أو سقوط شيء على شخص أو إصابته بآلة حادة كالسكين عند عدم الحذر وما شابه ذلك.

والناس في القصيم لا يستخدمون كلمة الحسد لهذا المعنى. وعلى أية حال إذا مرض أحد وكانت المؤشرات تشير إلى أن أحداً بعينه هو من أصاب مريضهم بالعين، فإنهم يحاولون الحصول على شيء من ملابسه أو أي شيء لصيق به إلى درجة أخذ بوله من الأرض مع التراب (أمر مألوف أن يبول الناس في التراب داخل حوش أو في الخلاء الواسع) وتعطى للمريض بطريقة أو بأخرى. وإذا صادف أن شفى المريض فهذا هو الدليل القاطع لديهم على أن مريضهم كان منحوتاً (محسوداً) وأن فلاناً أو فلانة هو الفاعل، بقصد أو بدون قصد.

والعين عندهم في الغالب تصيب دون قصد من صاحبها بها في ذلك امكانية أن يصيب الإنسان نفسه هو بالعين. والعينة تؤخذ منه دون علمه لأنه سيثور ويغضب لو قيل إنه "نحوت" أو إنه هو الذي نحت فلان، ولذلك يلجأون إلى الحصول سراً على شيء من ملابسه أو الإناء الذي استخدمه مثل الطاسة أو فنجان القهوة أو الشاهي أو نوى التمر التي يخرجها من فمه، يؤخذ ويغسل ويعطى للمريض الماء الذي غسل به هذا الإناء ليشربه أو يغسل بعض جسمه فيه. وليس من المعلوم ماذا يفعلون بشخص يغلب الظن على أنه هو نحت نفسه، أي أصاب نفسه بالعين!!. ويقال إن "النحوت" إذا حدث أن وجد نائماً وقام البعض بالصلاة عليه أنه يشفى ولا يصبح نحوتاً بعدها (ولا أعرف كيفية هذه الصلاة).

وفي كل بلدة صغيرة في وسط الجزيرة العربية تشير الأصابع الى عدد من الأفراد بأنهم يصيبون بالعين (نحوتين) وتحاك حولهم كثير من القصص والخوارق كايقاف الآت أو الإصابة الدقيقة المقصودة لأي انسان أو حيوان وما شابه ذلك من أحاديث

المجالس التي تلقى قبولاً وتصديقاً دون اعتراض. ولكن عند التدقيق في سلوك هؤلاء المصدقين بهذه الخوارق نجد هذا الايمان لا يصمد للاختبار. فلو اراد هذا النحوت أن يبتز أحدهم بطلب نقود مثلاً أو أن يصيبه بالعين (ينحته) لما استجاب له أحد وتلاشى ذلك التصديق والإيمان بأن فلاناً يوقف الطائرة والالة والسيارة واللقمة في حلوق الاكلين أو يسقط الطيور من السماء بمجرد نظرة أو كلمة.

وبعض الناس يصدق ما يقال عنه إنه هو نحوت فيعتاد الإكثار من ذكر الله كلما شاهد شيئاً خشية أن ينطلق منه ذلك الأثر الغامض دون علمه. ومن الشائع عند الناس أنه عند ذكر شيء من باب الثناء أو الاستحسان أن يطلب منه ذكر الله فهذا يبطل أثر العين، والقناعة بهذا واسعة جداً حتى عند أهل العلم الشرعي، وربما كان هذا أهم سبب لامتداد هذا الاعتقاد عند الناس والمبالغة فيه إلى يومنا هذا، وقد التصقت عبارة (ما شاء الله عليه) خشية أن تصيبه العين حتى عند ذكر أناس ماتوا منذ قرون، فقد يحدث أن يقول شخص "إن عنترة بن شداد "ما شاء الله عليه فعل كذا...".

"طويسات" في أبواب المسجد

وفي حالة أن الاتهام لم يكن موجهاً لشخص بعينه فإنهم يلجأون إلى أن تؤخذ العينة من أكبر عدد من الناس وذلك عن طريق إرسال عدد من الأطفال يوم الجمعة ومعهم طاسات صغيرة فيها ماء يقفون في جميع أبواب المسجد الجامع (هو الجامع الوحيد) وكل داخل أو خارج يمدون إليه هذه الطاسة لينفخ فيها أو حتى يتفل فيها، وقد يدورون على الجماعة الجالسين في الجامع قبل الصلاة قبل خطبة الجمعة وأثناءها. وبهذا يكونون قد ضمنوا أن جميع رجال البلدة تقريباً قد نفخوا أو تفلوا في

هذا الماء. ويؤخذ هذا الماء ويزاد عليه ويسقى أو يغسل به المريض. ويحدث أن يقف بالباب عدد من الأطفال كل منهم مكلف من أسرة مختلفة ومعه طاسة يستجدي بها نفخة أو تفلة، ولا يحدث أن يرفض أحد أن ينفخ فيها مطلقاً، ولذلك إذا كثر عدد الأطفال عند الباب فعلى الداخل أو الخارج من المسجد أن يوزع نفخاته أو تفلاته على الجميع ولا يترك أحداً.

ومن الشائع أيضاً للاستشفاء، الطلب من أحد الأشخاص المعروفين بالقراءة والتدين والطيبة والتقوى أن يقرأ لهم بطاسة ماء يحضرونها له ويأتون لاحقاً لاستلامها ويغسلون مريضهم فيها أو يسقونه منها. وهذا مجاني لا يدفع له أي ثمن، بل هو من فعل الخير. ويعتبر منظراً مألوفاً عند هذا الشخص القارئ أن نجد أمامه صفاً من الأواني المملوءة بالماء وهو يقرأ وينفخ فيها كلها. وهذا الشخص القارئ يقرأ من القرآن الكريم فقط وربما بعض الأدعية ولكن الغالب من القرآن.

هذا في ما يتعلق بالأمراض العضوية أما الأمراض العصبية ففي الغالب تعزى إلى المس الشيطاني. وهذا له قراء مختصون اشتهروا بالقراءة على الممسوس بالجن. وهؤلاء أيضاً لا يأخذون مقابل خدماتهم شيئاً مادياً. وبعضهم تكثر حول قدراته الروايات والأساطير وكيف أن الجني يبدأ بالاضطراب والتعهد بعدم العودة إلى هذا الشخص أن عدلتم عن الذهاب إلى القارئ المخيف للجن فلان. والروايات كثيرة في أحاديث المجالس ولكن عند التحقق لا تصمد الروايات كثيراً.

والمعروف لديهم أن الذكر تتلبسه جنيه أنثى فقط والأنثى يتلبسها جني ذكر، ومن أساليب القراء تربيط الأصابع حتى لا يهرب الجني منها (من بين الظفر واللحم) أثناء القراءة، (لكن الآذان والمناخر والفم والفتحات التناسلية والهضمية تترك كلها مفتوحة)، ويقوم القارئ بمحاصرته بالقراءة بأصوات ونفخات متنوعة وحركات

عديدة وربما استخدم الضرب والطعن باليد أو بأداة كالعصا وغيرها، ثم يقوم بتجميعه بالتدليك نحو وسط الجبهة حتى تتكون كمية من الدم تكون ظاهرة تحت الجلد فيفطرها القارئ بالسكين وينثر الدم الأسود (غير المؤكسد)!! وبهذا يكون قتل الجني وانتهى الأمر وشفي المريض. وإن عادت الحالة إلى الشخص مرة أخرى فلا بد أن جنياً آخر قد فعلها ثأراً للجني الأول أو أنه لا علاقة له بالأول. وفي بعض الحالات يتركون الجني يخرج بعد أن يتعهد بأن لا يعود إلى هذا الشخص أبداً. والجن يلابس الشخص في اعتقادهم إما عشقاً أو انتقاماً أو أنه بال على الرماد أو عثر ونسي أن يسمي أو قتل بساً (قط) متجنس (اي أنه جني تصور بصورة بس).

والمشهور عندهم أيضاً أن الجني يخاف الذئب خوفاً شديداً لدرجة العجز عن الحركة ما لم يغمض الذئب عينيه. وقد يستنجد الجني بأحد البشر أن يسعفه ويعطيه فرصة للهرب من الذئب. كل هذه الروايات يتناقلها الناس دون أن يتوقفوا ويتفكروا فيها لأنها في نظرهم خارج القوانين المادية فلا تخضع للمعقول وغير المعقول وهي من الإدعاءات غير الخاضعة للدحض أو الإثبات المادي أو الموضوعي.

والملاحظ أن هذه الممارسات وكثيراً مما ذكرناه في الصفحات القليلة السابقة أنها لا تزال تمارس في مجتمعنا في الوقت الحاضر وهي منتشرة مع الأسف وعليها إقبال كبير، وكثير منها يعتبر جزءاً من اقتصاديات الشعوذة وهو جزء لا يستهان به من حيث الحجم.

ويعتقد البعض أن بعض النصوص القرآنية أو الأحاديث وما ورد عن بعض السلف يفهم منه صحة هذه الأساليب ونجاعتها، وإذا سئل كثير من كبار طلبة العلم الشرعي أقرها ببعض التحفظ. ولكن المشهور أن كبار علماء العلوم الشرعية يحرصون على طلب العلاج هم وأسرهم في المستشفيات الحديثة وفي الدول المتقدمة ولم يذكر

أنهم يلجأون إلى تلك الأساليب أو القراء. بل إن المشهور أن طلبة العلم الشرعي، في منطقة نجد، من أقل الناس أو رجال الدين طلباً للعلاج من هؤلاء حتى قبل انتشار الطب الحديث.

ومن أمثال هذه الأمراض ما يعزى إلى السحر فيقال هذا مسحور أو موضوع له سحر فـي مكان ما أو يقولون معمول له عمل. وهذا شائع في هذا الزمان والروايات كثيرة ومتشعبة ومتنوعة وتؤخذ مأخذ الجد عند كثيرين. الا أن تفسير الأمراض بأنها سحر أقل بكثير جداً من تلك الحالات التي تعزى إلى العين. وربما يكون السبب هو أن السحر لا بد له من ساحر قد تعلم السحر وأنه عمل شرير مقصود وهذه الشروط قد لا تتوفر كثيراً فـي المجتمع القروي. أما العين فهي غالباً عمل غير مقصود ولا تحتاج إلى تعلم. ونادراً ما يتم التحقق من أي من هذه القصص. ولا نعلم أن فريقاً علمياً أو شخصاً موثوقاً بمعرفته ودقة أسلوبه في البحث العلمي قد قام بمتابعة هذه الروايات للوقوف علـى الحقيقة. وهذا الغموض الدائم يدعم ميل الكثيرين إلى عـدم تصديق تلك القصص والروايات، وأنها مـجرد شعوذة ودجل. ومما يزيد الشكوك بالممارسات العلاجية لهؤلاء أنهم يـجنون مكاسب مادية هائلة مقابل تكاليف لا تذكر، وإنهم وأسرهم يذهبون إلى المستشفيات الحديثة عند أي عارض صحي.

وأخيراً يمكن القول أن أحوال الصحة العامة فـي البكيرية وما شابهها من البلدات وسط الجزيرة العربية قبل النفط هي في معظمها أقرب ما تكون إلى إنها تشبه نتاج "الانتخاب الطبيعي". لكن مع ذلك فإنه من الواضح أن سكان البكيرية يتزايدون بمعـدل سريع ولكن ليس من السهل إيجاد وسيلة تمكننا من تمييز أو تحديد أثر الهجرة إلى البكيرية واثر الزيادة الطبيعية (المواليد – الوفيات) في تلك الأزمنة.

التعليم

قبل النفط كانت الأمية تضرب أطنابها في جميع أنحاء وسط جزيرة العرب لأسباب عديدة، أولها عدم وجود مدن كبيرة، وثانيها أن التعليم يحتاج إلى تمويل وتفرغ وهو ليس متاحاً لأهالي وسط الجزيرة العربية قبل النفط بسبب الفقر.

والحال في البكيرية تشبه أحوال بقية القرى والمدن في المنطقة، لا يوجد فوائض مالية لكي تستخدم في الإنفاق على التعليم من جهة. ومن جهة أخرى كان الناس مشغولين بالسعي وراء لقمة العيش، والتعليم ليس مطلوباً في سوق العمل. فأساليب الإنتاج في الزراعة، وهي النشاط الغالب، وفي التجارة والمهن المختلفة، لا تستلزم تعليماً أكاديمياً، بل تدريباً وممارسة عملية وبالتالي يكون التفرغ للعلم ترفاً لا مبرر للسعي وراءه.

هذا في ما يتعلق بالتعليم الذي يمكن أن يحسن من فرص الشخص في سوق العمل. أما التعليم الديني والذي حدوده الدنيا قراءة الفاتحة وبعض قصار السور لأداء الصلاة فقط فهذه تلقن تلقيناً تحفظ عن ظهر قلب ولا حاجة لقراءتها من المصحف وهذا حال الأغلبية الساحقة من الناس. وهناك فئة قليلة جداً تسعى للعلم الشرعي وتعمل لاحقاً في القضاء أو إمامة مسجد أو ما شابه ذلك. وغالباً يكون هؤلاء من أبناء الأسر ميسورة الحال أو يكونوا من الأشخاص الذين لا تلائمهم الأعمال البدنية المختلفة.

والعلم الذي يتعلمه هؤلاء في الغالب القراءة والكتابة والقرآن الكريم وقد يتوسع ويمتد إلى النحو والحديث. وهذا التعليم يكون في المساجد ويقوم به قاضي البلدة في الغالب أو طالب علم آخر. والغالب إنه مجاني إما تبرعاً واحتساباً من الشخص الذي يقوم بالتعليم أو أن يكون مشروطاً بوقف على المسجد أو وقف آخر.

والتعليم كان مقصوراً على الصبيان فقط، أما البنات فقد كان تعليمهن نادراً جداً وإذا وجد فإنه مقصور على تعليمهن أجزاء قليلة من القرآن الكريم وتقوم به إمراة، وأشهر من قامت بتعليم البنات كانت المرحومة مزنه العمير البكري خلال عقود طويلة من القرن الهجري الماضي (الرابع عشر).

المجتمع يعيد إنتاج نفسه ثقافياً منذ قرون

إذاً يمكن القول إن الأمية السائدة بين الناس هي الأمية الأبجدية، أما معرفة الناس بأمور حياتهم وثقافتهم العامة فإنهم متقاربون في المستوى المعرفي، فالمجتمع منذ قرون وهو يعيد إنتاج نفسه ثقافياً لدرجة أنه يمكن القول أن كثيراً مما يعرفه كبير السن ذو الثمانين عاماً يعرفه تقريباً الشاب ذو العشرين عاماً، وأن ما يعرفه الجد الأعلى للأسرة قبل مئتي عام يعرفه الشاب من أحفاده. وهذا لا يعني أنه لا يبرز منهم أحد بمواقف إبداعية في شؤون الحياة والسلوك وطريقة التفكير وغيرها.

ومن هذه المواقف المنطقية ولكنها غير مألوفة، سلوك شخص معروف بفصاحته وسرعة بديهته وكذلك بكثرة الاقدام على أخذ حقه بيده ولا يلجأ إلى السلطات التي غالباً تقترح حلولاً وسطاً. وكان يحدث أنه يقتص لنفسه ثم يشتكي الطرف الآخر ثم تقوم السلطة باستجوابه ويعترف ثم يحكمون عليه بالجلد أمام الملأ، ويأتي راضياً فخوراً وعند التنفيذ يقف على مرتفع في السوق وهو أيضاً طويل القامة فصيح العبارة ثم يصيح بأعلى صوته مفاخراً ويقول "يا جماعة ترى المسألة ما هيب سرقة ولا شيء يخل بالدين أو الأخلاق أو الشرف، المسألة أن ولد فلانه (تحقيراً) سوى (فعل أو قال) كذا وكذا، وأنا أدبته، وطيت ببطنه ودحيت "أفمه" تراب وإن رغب يعاود ولا عندي له إلا هذا"، ثم ينبطح على الأرض يرطبونه (بسكون الراء)

(يضربونه) بالجريد الأخضر الرطب ويقوم فخوراً كأنه لم يتعرض لحكم تأديبي لشعوره بأن كثيراً من الناس يؤيدونه.

ومثال آخر مختلف ولكنه يبين الفهم العميق لمسلمات الثقافة السائدة، وفي هذه الحالة الإيمان بالقضاء والقدر. هذه إمراة فقيرة جداً جداً أم أيتام صغار ظهرت لها فرصة جيدة تساعدها على قسوة الزمان. تلك الفرصة كانت: انه في عام ١٣٧٦هـ تقرر فتح مدرسة عسكرية ابتدائية في البكيرية وأعلنوا التسجيل وأن للطالب مكافأة شهرية قدرها ١٠٠ ريال وكانت هذه كافية لإيجار منزل لمدة سنتين فأتى بعض محبي الخير ونصحوها بتسجيل ابنها وزينوا لها الأمر، بحسن نيه، فوافقت وسجلوا ابنها في القائمة. ولكنها لم تنم تلك الليلة من التفكير في ما أقدمت عليه، وإنها سوف تسلم ابنها ذي الثلاثة عشر عاماً للحكومة وسوف يذهب للحرب وسوف يموت وهو أكبر ابنائها، وعند الصباح الباكر أسرعت إلى اللجنة وطلبت بشكل حاسم وقاطع أن يلغوا تسجيل ابنها. حاولوا ثنيها وعجزوا، أوردوا لها بعض الآيات والأحاديث والحِكم، وأن القضاء لا راد له وأنه لا يموت أحد قبل يومه. فقالت بحزم ويقين "والله العظيم إنه إذا حط البندق بصدره وثوَرها فيه إنه يموت قبل يومه". هذا بكل تأكيد لا يعني ضعف إيمانها بالقضاء والقدر ولكنها ترى أن الموقف لا يصلح له استخدام القضاء والقدر للإغراء بالمخاطرة والتهلكة.

والمقصود بالثقافة العامة هنا هي: المعرفة عن العالم المحيط والعالم الخارجي وعن شؤون الحياة الاقتصادية والاجتماعية كالعادات والتقاليد وأدوات وأساليب الإنتاج. والمعرفة أو الثقافة لديهم محدودة جداً خاصة ما يتعلق بالعالم الخارجي (خارج منطقتهم). فعلى سبيل المثال هذا أحدهم ساقته الأقدار إلى مدينة الطائف خلال الصيف، فاستغرب الجو البارد والأمطار اليومية في الصيف، والذي اعتاد

عليها في وسط نجد إنها لا تحدث إلا في الشتاء فذهب يروي (ويحلف خشية أن لا يصدقوه) لأهله وجماعته إنه وجد بلاداً وراء مكة المكرمة وأن تلك البلاد شتاؤهم يأتيهم في القيظ (الصيف) وأن البعض لم يصدقه. وذاك الذي رأى الطائرات الحربية (حقيقة) خلال الحرب العالمية الأولى مع رفيق له في تركيا، وعندما روى رفيقه الخبر لأهله ومعارفه في القصيم ولم يصدقوه واستشهد برفيقه فأنكر صديقه أنه رأى طائرات وبرر هذا لرفيقه بأنهم "لن يصدقوني أنا أيضاً فما الفائدة".

ومن ندرة من يستطيع الكتابة والقراءة نجد أن الذين يكتبون الوثائق، مبايعات أو أوقاف ونحوها يكون عددهم محدوداً جداً ولقلة عددهم فإن خط كل منهم معروف لكل من يستطيع القراءة، وهذا بحد ذاته رادع عن محاولة التزوير أو مجرد التفكير فيها من جهة، ومن جهة أخرى، قد يعتبر كتابته نوعاً من الشهادة على المضمون، وكثيراً ما توجد عبارة "شهد به كاتبه" ثم يضاف اسماء الشهود الآخرين إن كان هناك شهود. ولا يطلب عادة من الشهود التوقيع أو البصمة.

وبسبب ندرة الكتابة والقراءة وأدواتها من كتب وأقلام وأوراق وحبر نجد أن إنجاز الأمور شفوياً كان منتشراً في كثير من شؤون الناس. فالقاضي في كثير من الأحيان يقضي بين الناس مشافهة وهو يمشي من المسجد إلى بيته أو في عتبة بابه أو في المسجد. يعرض الخصمان عليه القضية شفوياً وفوراً يصدر الحكم شفوياً ويذهب الخصمان كل إلى عمله. ومثل ذلك عقد الزواج مثلاً، جرى العرف إنه يعقد شفوياً دون كتابة، لا حالاً ولا لاحقاً. وكذلك الإعلان يكون عن طريق شخص يصيح بأعلى صوته في السوق ولا يعلق صحيفة في مكان بارز وسط المدينة لأنه لا أحد يقرأ. وحتى النقود الورقية أول ما ظهرت وإلى يومنا هذا يتم التركيز على حجم الورقة ولونها لتمييز فئتها.

وأدوات الكتابة (الأقلام) يستخدم عود من الأثل أو ريش الدجاج، أما الحبر فيصنع محلياً من نبات محلي (ينمو برياً ولا يزرع) يسمى النيل، يطبخ فترة طويلة وينقع بعد تبخر الجزء الأكبر من الماء. ولذلك كان الحبر يسمى نِيل، ولم تنتشر كلمة حبر إلا حديثاً. وحتى الآن يقولون للغسال نيل هالغترة أو هذا الثوب أي ضع عليها نيلاً يجعلها تميل إلى اللون الأزرق. ولكن النيل الذي يصنع محلياً أقرب إلى الأسود. وهو لا يصنع بكميات للبيع ولكن كل من يحتاج نيلاً يذهب خارج البلدة على أطرافها أو قريباً من المزارع ويقطع بعض الشجيرات ويستخرج النيل منها. أما الورق فلا بد أن يكون مستورداً. ولكن طلاب العلم الصغار أثناء الدراسة في مراحلها الأولى يستخدمون اللوح الخشبي (مخصص للكتابة)، يكتب عليه ويغسل ويكتب عليه مرة أخرى وثالثة وكل مرة يغسل ويعود كما كان، وهو يطلى بالطين الأبيض (الطلو) بعد كل غسلة.

وأحياناً يكتب المعلم للدارس على تراب أرض المسجد للإيضاح، والمعلم يدرس الطلاب كل على حدة، وكلهم يجلسون على التراب على شكل حلقة، واسطة العقد فيها هو المطوع أو الشيخ، وكل طالب يختلف درسه عن الآخر. فهذا درسه سورة الصافات وآخر درسه سورة المطففين وثالث درسه كتابة بعض الحروف الهجائية وهكذا. ومثلما تمت الإشارة إلى أن الصحة العامة لم تكن من شؤون السلطات فإن التعليم ايضاً لم يكن شاناً عاماً على الإطلاق اللهم إلا في جانب الأوقاف، والتعليم مقصور على القرآن في الغالب وبعض الحديث والفقه والنحو وكله لا علاقة للسلطة به من قريب أو بعيد، فالتعليم ليس شأناً عاماً (قبل النفط).

الزواج

ينظر إلى الزواج على أنه محطة أساسية طبيعية في رحلة الأفراد في "مشوار" الحياة وهدفه الرئيسي الانجاب والعفة. ويتوقع من الشاب أن يتزوج في العشرين من عمره أو

قبل ذلك بقليل أو بعده بقليل حسب الظروف، وخلاف ذلك يعتبر خارج المألوف، وكذلك بالنسبة للفتيات فقد كانت البنت تتزوج في سن مبكرة في الخامسة عشرة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل وخلاف ذلك يعتبر خارج المألوف. فالفتاة في الثامنة عشرة كان ينظر إليها على أنها بدأت مرحلة العنوسة. وقرار الزواج بالنسبة للفتاة كان بيد أبيها وكثيراً ما يتخذ القرار دون رأيها أو حتى رأي والدتها. وقد كان الشائع أنه بمجرد أن ينطق الأب بأنه أعطى ابنته لفلان بأي صورة لفظية كانت ((هازلاً أو جاداً)) فقد ثبت حق المعطى بأن تكون زوجة له حتى ولو كانت في سن الرضاع.

وقد كان القضاة يقضون بشرعية هذه الصيغة. فكم من شخص فوجئ عند تزويج ابنته بأن ظهر له شخص يذكره بأنه سبق أن أعطاه هذه البنت قبل سنين. فإذا أحضر من يشهد بذلك حكم له القاضي. وهذه الصورة تبدو وكأن الوالد قد أعطى حق "التحيير" على ابنته لهذا الشخص، إلا أن هذه الصيغة أخف من صيغة "التحيير" عند بعض القبائل. ولكن إذا كان عذر البدو الجهل فما عذر قضاة تلك الأيام بقبول رهن مصير رضيعة بناء على كلمة عابرة وغالباً غير جادة.

وعلى أية حال مثل تلك الحالات لم تشكل ظاهرة كبيرة تقلق المجتمع وهي إذا حدثت تم حلها دون خسائر فادحة، إلا أن الضرر إذا وقع فهو غالباً يقع كله على الفتاة. وهذا لا يخص البكيرية وحدها، فأهل البكيرية جميعهم قد أتوا من المدن والقرى والقبائل المجاورة. وكذلك فإن هذه العادات في الغالب هي الأمر الشائع في منطقة نجد كلها مع اختلافات بسيطة حسب الظروف. والسبب هو أن المجتمع النجدي يعيش فترة ركود ثقافي منذ قرون. فلا الاحتكاك بالخارج وصل إلى درجة مؤثرة، ولا تطور المدن سار بوتيرة كافية لإحداث تغييرات واضحة.

وفي البكيرية كان ولا يزال زواج الأقارب من الأمور الشائعة ونسبته عالية، ولكنه يختلف من أسرة لأخرى. فمثلا يلاحظ أن نسبة الزواج من داخل الأسرة

مرتفعة جداً في إحدى أكبر الأسر في البكيرية، ويمكن ملاحظة العكس لدى أسرة كبيرة أخرى. كل هذا مقارنة بمتوسط ما عليه الحال في بقية الأسر الكبيرة في البكيرية.

أما اختيار الزوجة ففي الغالب يتم إما عن طريق والدة وأخوات ومحارم الزوج أو أن يكون بين الآباء، مجرد القول فلانة لفلان، أو أن يكلم والد العريس والد العروس، وإذا تمت الموافقة تستكمل بقية الترتيبات، وهي بسيطة جداً لدرجة أن الأمر قد يتم في يوم واحد، وهذا نادر جداً، وقد يحتاج إلى أيام أو أسابيع حسب الظروف.

وتكاليف الزواج دائماً تعكس الأحوال الاقتصادية السائدة في المجتمع. وفي مجتمع ما قبل النفط كان السائد أن غالبية الناس يعيشون عيشة كفاف متدني المستوى. وبالتالي فإن المهر يتناسب مع الوضع الاقتصادي العام. وهذا ليس قصراً على مجتمع معين، بل هذه حال المجتمعات البشرية في كل مكان وفي كل زمان. ففي العهد النبوي نقرأ بأن فلاناً قد دفع خاتماً من حديد مهراً لزوجته، (أي لا شيء تقريباً) وآخر تزوجها بتعليمها بعض الآيات من القرآن الكريم. ولكن في العصر العباسي نقرأ عن قناطير من الذهب والديباج تدفع مهراً لزوجه. (في ذلك العصر كان الحاكم يخاطب السحابة: "شرقي أو غربي فأينما تمطري فسوف يأتيني خراجك"). وقد يحكم مقدار المهر درجة تكافؤ الزواج (فرق السن مثلاً). ولكن ليس من المستغرب أن نسمع أن فلاناً تزوج بريال واحد، أو بقطيفه ... وهكذا.

ويكون حفل الزواج المعتاد بأن يولم أهل الزوجة وليمة بعد عصر يوم العرس ويأتي العريس وأهله وأصدقاؤه وأقاربه (يسمونهم الجَنَب)، يأتون إلى بيت أهل العروس ويتناولون العشاء بعد العصر وينصرف أكثرهم.

ويتم عقد الزواج في مساء ذلك اليوم في كثير من الأحيان، وهو إجراء بسيط جداً، شفوياً، من قبل إمام المسجد أو أحد القراء وشاهدين والعريس وولي العروس،

وأحياناً يكون والد العروس يعرف العبارات اللازمة لجعل العقد صحيحاً فيقوم هو بذلك (زوجتك ابنتي فلانة، فيقول العريس قبلت هذا الزواج) والشهود يسمعون فقط وينتهي الأمر.

هذا هو الإجراء الشائع وقد يتم بدون جَنَب ويكون عشاءً صغيراً محدوداً وقد يكون واسعاً يدعى له الأقارب والجيران وحتى صبيان الجيران يدخلون على بقية عشاء الرجال،(*) وفي هذه الحالة يكون الطرف الآخر (الجنب) وهم جماعة العريس عددهم كبيراً. وغالباً يتعمد العريس أن يكثر قدر الإمكان من مرافقيه ويعتبر أن هذا يزيده احتراماً وشرفاً. وأهل العروس يجمعون أقاربهم وجيرانهم أيضاً لكي لا يظهروا أقلية بين (الجنب)، خاصة إذا كان الجنب من قرية أخرى.

وإذا كانت الوليمة من هذا النوع كبيرة فليس من المستغرب أن يساهم بعض الأقارب أو الأصدقاء بجزء من العشاء يتم إحضاره جاهزاً إلى بيت أهل العروس في وقت تقديمه للضيوف.

وفي ليلة العرس يتفرق الرجال بعد صلاة العشاء (المغرب) ودخول العريس (عادة مبكراً جداً). أما النساء فيحيين شطراً كبيراً من تلك الليلة بالرقص والغناء (البريء المحتشم نصاً ومظهراً).

وفي الليلة التالية يسمونها ليلة الرحيل تحمل المرأة أمتعتها ويساعدها بعض أهلها وتذهب إلى بيت الزوجية الذي هو بيت أهل زوجها في الغالب، أو بيتاً مستقلاً، وغالباً مشياً على الأقدام الحافية. ومن أهم ما تحمله معها بالإضافة إلى ملابسها

(*) لقد اعتاد الصبيان أن يتجمعوا أمام باب المنزل الذي فيه وليمة انتظاراً لإنتهاء الرجال من العشاء ويطلبون بإلحاح من صاحب المنزل أن يدخلهم على بقية عشاء الرجال وينجحون دائماً تقريباً.

وأمتعتها الخاصة تحمل معها كمية كبيرة من الكليجا لأهل العريس وجيرانهم وأصدقائهم. والكليجا في ذلك الوقت يعتبر من أفخر وألذ الأطعمة لأنه يعتنى بها كثيراً بإضافة السمن والبيض والسكر والبهارات ... الخ. وكلمة كليجا يقال إنها مأخوذة من التركية "كليشة" وهي الطبعة على قرص الكليجا التي تجعل سطح قرص الكليجا يشبه ظهر السلحفاة.

ونسبة استمرار الزواج عالية جداً، فالطلاق ليس ظاهرة كبيرة، كما أن فرصة المطلقة في زواج متكافئ في ذلك الوقت كانت كبيرة جداً. وربما كان من أسباب انخفاض نسبة الطلاق هو استقرار العادات والأعراف والتقاليد وكونها معروفة وشائعة لدى الجميع وبالتالي لا تحدث مفاجأت كثيرة، فدور المرأة معروف، ودور الزوج معروف، والعلاقة مع أهل الزوج ... وغيرها، كل هذا واضح ومتعارف عليه، ولذلك لا تحدث الخلافات.

وقد يقول قائل بأن حقوق الزوجة كانت منتقصة إلى حد كبير في عادات وتقاليد ذلك الزمان، وهذا صحيح ولا جدال فيه، ولكن كما يقال "الشعور بالظلم أو الغبن أشد من الظلم نفسه". أي أن مجتمع النساء يتعايشن مع هذا الوضع كموروث من الأمهات والجدات وهذا هو العرف السائد، وبذلك يكون وقعه أخف لأنه متوقع وليس مفاجئاً. ومن ناحية أخرى فإن أهل المرأة من الرجال أيضاً لا يرون هذا الظلم بنفس الدرجة التي تشعر بها النساء. وكثير من أنواع المعاملة والمواقف غير العادلة بحق المرأة يكون محمياً بشيء من الفهم الخاطئ لبعض النصوص الدينية، أو التعسف والمبالغة في الاستناد إلى هذه النصوص دون مراعاة لاختلاف الظروف والأحوال.

وهذا ما يجعل بعض الناس في الوقت الحاضر يستغرب كثرة الطلاق ويبحث عن تفسير لهذه الظاهرة مع أن هذا هو المتوقع أمام هذه التطورات الاقتصادية الهائلة

وما تبعها، حتماً، من تطورات ثقافية (بمعناها الواسع، التعليم، سعة الإطلاع على الحقوق الشرعية والأخلاقية وأحوال المجتمعات الأخرى، والرخاء الاقتصادي، والمقارنة والتطلع إلى الحالات الناجحة السعيدة لبعض الأقارب أو الأصدقاء والمعارف وغيرها).

وربما يكون من أهم هذه الاختلالات الناتجة عن هذه التطورات الاقتصادية والثقافية هي الصدام الناجم عن أن المرأة لا تريد أن تعامل كما كانت تعامل جدتها وأمها فظروفها مختلفة ومكانتها مختلفة، حتى النظرة "الشرعية" لكثير من الأعراف التي اختلط فيها الدين بالتقاليد والعادات اختلفت عن ذي قبل، (كانت المرأة تعلق سنين طويلة ولا يخلع القاضي، كانت تتزوج دون إذنها، كل هذا تغير الآن). وفي نفس الوقت الزوج يريد أن يعامل زوجته كما كانت أمه أو جدته تعامل دون اعتبار لهذه التطورات الهائلة التي حدثت لهذا المجتمع.

أخيراً نختتم الحديث عن الزواج في البكيرية قبل النفط بهذه الفقرة. كان العرف عند الناس أن الزوج لا يرى زوجته قبل العقد مطلقاً إلا خلسة. وكذلك كانت الأعراف تقتضي أن تتحلى المرأة بالحياء والخجل الشديد من ذكر أي شيء تصريحاً أو تلميحاً حول زواجها حتى أمام أهلها. وحتى أنها ليلة زواجها يتوقع منها أن تظهر مقاومة شديدة لاقتراب زوجها منها إلى درجة أنه قد يتعرض إلى بعض الكدمات أو العض أو الخمش على اليدين والوجه، كل هذا لإثبات شدة الحياء وعدم الاندفاع بالاستسلام. وبما أن هذا السلوك أصبح عرفاً فإنه أصبح يغذي نفسه، بمعنى أنه يعتبر من المعيب على المرأة أن لا تظهر درجة من التمنع والمقاومة، والزوج يتوقع هذا والأهل يتوقعون هذا ولا شيء يثير القلق، المهم أن يكون السلوك مقبولاً وليس خارجاً عن المألوف لهذا المجتمع.

وعند الحديث عن العادات والتقاليد والأعراف لا بد من تذكر أن العادات والتقاليد واستقرار الأعراف لا يحدث بين ليلة وضحاها. فالعادات تبدأ كسلوك عقلاني إيجابي مرغوب يحل إشكالات أو يسهل أموراً كانت تحتاج إلى عناء أو تكاليف كثيرة. وهذه العادات تفرضها الظروف الاقتصادية غالباً والتقنية والمعتقدات الدينية والتعامل مع المجتمعات الأخرى.

وأول من يبدأ بسلوك جديد يتحول إلى عادة، يكون من الأفراد الذين لديهم شجاعة اجتماعية بحيث أنه يقوم بهذا السلوك الجديد ولا يخشى الانتقاد لأنه فوق النقد، إما لأنه معروف بكرمه، أو شجاعته أو حكمته ... الخ. وبعد أن يكتشف الناس ميزة هذا السلوك المناسب يتبعه الناس ويتحول هذا النوع من السلوك إلى عادة تصبح جزءاً من ثقافة هذا المجتمع يدافع عنه ولا يتخلى عنه إلا بصعوبة ومقاومة كبيرة. ولذلك نجد أن التحول عن بعض العادات أو إهمالها أو حتى العمل بنقيضها يأخذ وقتاً طويلاً.

والعادات غالباً يخلقها ويكرسها ويسبب نجاحها أو اضمحلالها أو هجرها الوضع الاقتصادي للمجتمع. فالظروف الاقتصادية مسؤولة عن كثير من مفردات السلوك الفردي والأسري والعلاقات الاجتماعية على مختلف المستويات، كالتعبير عن الأفراح والأحزان، ومشاركة الجيران، والأقارب، والتعامل مع الفقراء، الأغنياء، الغرباء، الشحاذين، فعل الخير، الغطرسة "الفِسَق" (البطر)، الصدقات، الأوقاف، التبرعات، نوع الملابس، نوع المسكن، الأثاث وغيرها.

فإذا استمرت الأحوال الاقتصادية على نفس الوتيرة والمستوى زمناً طويلاً فإن العادات والتقاليد الناشئة منها تترسخ وتستقر وتندمج في جذور ثقافة هذا المجتمع، ويصبح لها نوع من القداسة الاجتماعية التي تمنحها حصانة ومناعة ضد رياح التغيرات والمستجدات الاقتصادية والثقافية.

وهذا أمر ملاحظ بوضوح. فعندما تغيرت الأحوال الاقتصادية في منطقة الخليج العربي تعرضت عادات الناس لتغيرات كبيرة في حفلات الزواج، ومآتم العزاء، وإقامة الولائم، والأعياد، والمساكن والملابس ونوع العلاقات الاجتماعية ودرجتها مع الجيران، والأقارب، والمعارف والصداقات والملابس وغيرها. كل هذه تعرضت لضغوط التغيير لمواكبة التطورات الاقتصادية. وقد حدثت تغيرات في كل هذه المسائل ولكنها لم تحدث دون مقاومة أو تردد وإبطاء، أو على الأقل استمرار الحنين والعودة بشكل أو بآخر إلى تلك العادات القديمة، رغم عدم ملاءمتها للظروف الحالية، كالحنين لأكل "القفر" (القديد)، والجراد، والكرش والحوايا، والأظلاف (الكوارع) والإصرار بل ربما الحلف على الضيف بأن يأكل أو يشرب المزيد وكثير غيرها. ومن المناسبات الثابتة الأعياد، والإيلام (من أولم يولم، يقيم وليمة) للقادم من السفر، ورمضان والحج وغيرها.

الأعياد

عيد الفطر

إذا ثبت دخول شهر شوال بعد غروب الشمس يوم التاسع والعشرين من رمضان أو يوم الثلاثين فإن يوم العيد يبدأ بالذهاب إلى مسجد العيد بعد طلوع الشمس بقليل خارج البلدة وأداء الصلاة وخطبة العيد ثم يعود الناس إلى منازلهم مسرعين لتناول العيد. ومشهد الناس ذاهبين إلى خارج البلدة باتجاه مسجد العيد رجالاً ونساء يوضح بجلاء عمق إيمان هؤلاء الفقراء واستجابتهم بالذهاب إلى هذه الصلاة التي هي بدون أذان رغم الإرهاق والتعب الذي يعانونه من صيام النهار وقيام الليل. خاصة يوم العيد إذا لم يكتمل رمضان ثلاثين يوماً.

ومشهد الفقر واضح على الناس في ملابسهم، فقليل منهم يلبس الجديد ما عدا الأطفال فهم يحرصون على أن يلبسوهم جديداً ما أمكن.

وترى النساء ذاهبات إلى مسجد العيد وصورة الفقر واضحة من منظر كثير منهن، كل امرأتين في عباءة واحدة مشياً على الأقدام الحافية. رغم أنهن في الغالب لا يفهمن ما يقال في خطبة العيد،(*) ورغم أنهن مسؤولات عن تقديم العيد فور انتهاء الصلاة، ورغم أن صلاة النساء في المساجد أمر غير شائع في البكيرية وربما في كل أنحاء القصيم ما عدا صلاة القيام والتراويح في رمضان وأحياناً صلاة العشاء الأخير لأن بعض المساجد يقرأ بعض الحديث قبل الصلاة.

وفور الانتهاء من صلاة العيد يسلم الناس على بعضهم ويهنئون بعضهم ويتجهون فوراً كل إلى مكان (المعَيَد) بسكون الميم. وهو مكان معروف في كل حي لجماعته وغالباً يكون في مفرق شوارع. ويحضر الطعام من جميع المنازل وهو في الغالب من الجريش الذي لقي عناية كبيرة بإضافة السمن والمسمنة واللبن لكن بدون لحم. ويتم تبادل الطعام، كل يأخذ من صحنه الكبير ويوزع على الصحون الأخرى ويحاول أن لا يضاف إلى صحنه شيء لكي يعود به خالياً مما يشير إلى أن طبخ سيدة البيت كان مفضلاً لدى الجميع، كما يشير إلى سخائه وكرمه.

والعيد في وسط الشارع عادة ربما خلقتها حالة الفقر المنتشر بين الناس(**) والذي إن غاب في بعض الفترات فهو لا يذهب بعيداً، فالفقر حاضر دائماً في أذهان الناس

(*) النساء في مسجد العيد قد لا يسمعن الخطيب جيداً وإن سمعن لا يفهمن ما يقال وإن فهمن فقد يكتشفن أنه يخص أموراً ليست من بين الأولويات بالنسبة لهن.

(**) هناك أهزوجة شعبية تبين أهمية وجبة العيد، ويرددها الأطفال بفرح غامر لأنهم لا يخجلون من التعبير الصادق عن مشاعرهم، تقول الأهزوجة:

باتسر (باكر) باتسر، راح يناتسر (يناكر)، عُقبُة عُقبُة زَقط اللقمة . (ومعنى يناتسر، أي يركض بطريقة فيها إختيال وزهو، عُقبُة أي بعد غدٍ لأن باتسر تعني غداً. أما زقط فهي تعني ازدراد أو بلع اللقمة).

وجزء من حياتهم. فبوضع العيد في الشارع يأخذ الفقير أو عابر السبيل فرصته بوجبة طيبة دون سؤال أو منة من أحد، فكونها عادة مستقرة تصبح وكأنها حق من حقوق الفرد الفقير أو عابر السبيل على المجتمع. والفقير لا يُحضر من بيته عيداً ولا يتوقع منه ذلك. ولذا فإن من يُحضر عيداً يحضر كمية كبيرة حتى وإن كان هو فرداً واحداً.

والملاحظ أن طعام العيد يكون بدون لحم حتى في عيد الأضحى فهم يقدمونه قبل ذبح الأضاحي، ربما لأن الأضاحي لها تقسيمات خاصة ولا يريدون الإخلال بذلك بتقديمها في العيد.

عيد الأضحى

وأما عيد الأضحى فهو يشبه عيد الفطر في توقيت الصلاة ومكانها وطعام العيد، إلا أن الناس في عيد الأضحى لا يظهر عليهم الإرهاق من السهر الذي يظهر في عيد الفطر. ويتميز عيد الأضحى بأنه لا يأتي مفاجئاً مثل عيد رمضان، وبالإضافة إلى أن الناس غير مرهقين فهم أيضاً سوف يستمتعون بالأضاحي وتناول اللحم النادر الذي ربما يكون بعضهم قد مضى عليه عدة شهور بعد آخر مرة ذاق فيها اللحم. ولذلك فإن ندرة طبخ وتناول اللحم تجعل رائحة اللحم المطبوخ في أحد المنازل تنتشر ويعلم بها سابع جار،(*) وكذلك رائحة الشخص الذي تناول اللحم يميزه كثير من الناس الذين يقتربون منه في المحادثة أو أثناء الصلاة أو ما شابه ذلك.

وفي عيد الأضحى وما بعده يتحسن مزاج الناس ويمضون أسابيع وهم يتناولون اللحم يومياً، خاصة الفقراء لأن الكل يعطيهم من أضحيته، فهو حق لهم،

(*) قد يحدث أن يرفض شخص أن يغسل يديه بعد أكل وجبة دسمة، ويقول دعني أستمتع برائحة الدسم عدة ايام، وقد يمسح يده الدسمة بلحيته لكي تبقى الرائحة ملازمة له.

ولذلك يتراكم لديهم كميات كبيرة من اللحم يضطرون إلى تخزينها عن طريق التمليح والتجفيف لكي لا تتعفن. وهذه طريقة معروفة عند العرب، ويسمى هذا اللحم، (القديد) لأنه يشرّح (يقدّد) لكي يدخله الملح ويجف بسرعة، ويسمونه (القُفُر) وينطقون القاف كما ينطق المصريون أو أهل اليمن الجيم.

والأضاحي غالباً من الأغنام والضأن خاصة، وقليل من الماعز والبقر والإبل. وقلة البقر في الأضاحي راجع إلى أن منطقة نجد كلها لا تربى فيها الأبقار على المراعي ولكنها في المنازل والمزارع للحاجات المنزلية فقط. ويعتقد البعض أن لحوم البقر غير ملائمة في الأجواء الحارة وكذلك فإن المسن من البقر يميل لون شحمه إلى الصفرة فيبدو وكأنه غير طبيعي. أما الإبل فهي غالية الثمن إذا كانت صالحة للخدمة التي تقوم بها الإبل كالنقل بجميع أنواعه والسواني. ولذلك لا يذبح البعير كأضحية إلا إذا كان لا يصلح للخدمة، ولا يصلح للتصدير. وأهل القصيم مشهورون بتصدير الإبل إلى الشام ومصر وهذا جزء هام من نشاط العقيلات.

وللدلالة على مكانة البعير وقيمته العالية. فقد كانت تكلفة حفر البئر كاملة حتى يخرج الماء وتكون جاهزة لتركيب العدة تساوي قيمة أربعة من الإبل تقريباً. ففي فترة من الفترات كان حفر البئر يكلف ٦٠٠ ريـال فرانسي وثمن البعير ١٥٠ ريـال فرانسي.(*)

وبالإضافة إلى ما يعنيه العيد للناس كافة في جانبه الديني، أمل الجميع، الغني والفقير، الثواب والمغفرة وما يحمله من مشاعر تبعث الأمل في نفوس أفراد هذا المجتمع الذي تقول جميع المؤشرات (المادية) الموضوعية أن شح الموارد وقسوة العيش

(*) صالح الخضيري، مرجع سابق، ص ٧٤.

يبدو أن ثمن البعير غير طبيعي فهو مرتفع جداً. وقد تكون المعلومة مبنية على واقعة واحدة وظروفها غير عادية.

ومكابدة الحياة إنما هي خصائص ملازمة لهذه البيئة الصحراوية القاحلة، لكن صلة الرحم والصدقة والتواصل والتراحم وإظهار أطيب المشاعر في مثل هذه المناسبات هي ما يرفع الروح المعنوية ويقوي العزائم ويجدد الأمل وتسير الحياة ويكدح الناس ويسأمون ويأتي العيد مرة أخرى ويشحن العزائم بطاقة الأمل وتستمر الحياة.

ولكن العيد بالنسبة للأطفال فرصة حقيقية في كل مظاهره وأولها اللباس الجديد فقد كان الثوب الجديد يعني للطفل آنذاك فرحة تفوق فرحة أطفالنا اليوم عند إهدائهم أجهزة الألعاب الالكترونية الحديثة، ولذلك فإن الأطفال في تلك الأيام يخرجون إلى الشوارع قبل العيد بيوم أو يومين لابسين ملابس العيد الجديدة، ويسمون ذلك اليوم يوم زين العيال، واليوم الثاني تخرج الفتيات الصغيرات إلى الشارع ويلبسن أثواب العيد ويسمون هذا اليوم يوم زين البنات، وذلك من شدة فرحهم بالملابس الجديدة واستعجالهم لبسها قبل العيد. هذا يوضح دور الاقتصاد (الفقر في هذه الحالة) في تشكيل السلوك والمشاعر والعادات.

ومن العادات المشهورة ليلة العيد يقوم الصبيان بالاشتراك بإقامة حفلة في منزل أحدهم يسمونه خِشِر، والحفلة قد تكون مقصورة على إبريق شاهي وقد تطورت إلى قارورة شربيت واقصى ما تصل إليه أن يذبحوا ديكاً ويطبخونه على ما تيسر من الطعام. وهذه العادة يصاحبها أحياناً غارات من بعض الأشقياء من الصبيان الكبار لنهب طعام الصبية الصغار.

شهر رمضان

شهر الصوم شهر مميز يتغير فيه نظام الحياة تغيراً كبيراً كما تتغير فيه مواقف الناس ومشاعرهم وأعمالهم في اتجاه إيجابي نحو فعل الخير والاحتساب والتعبد وقراءة

القرآن. وتأثير رمضان ابلغ من غيره نظراً لأن رمضان يدوم شهراً كاملاً من العمل والمشاعر الحسنة المتواصلة.

ويتم ترقب رمضان من غروب يوم التاسع والعشرين من شهر شعبان ويحدث كثيراً أن تتم رؤيته بسبب صفاء جو الأفق. وفي الغالب يراه أكثر من شخص في مكان واحد، لأنه إذا رآه شخص واحد وأخبر الواقفين معه بالتركيز على مكانه يسهل عليهم رؤيته وعندها يخبرون أئمة المساجد ليخبروا جماعتهم وينتشر الخبر.

وفي بعض الأحيان لا تتم رؤيته في هذه القرية أو تلك ويأتيهم مبعوث قد لا يصل إلا ضحى الغد فيمسكون من ساعتهم ويقضون ذلك اليوم بعد شهر رمضان. ويحدث هذا أيضاً في خروج رمضان وتحديد يوم العيد. وفي هذا يتشددون بعض الشيء ويحدث كثيراً أن يأتيهم خبر العيد وسط النهار ثم يقطعون صومهم ويفطرون لأنه لا يجوز صيام يوم العيد.

الختمة

وأشهر مظاهر رمضان بعد الصوم، صلاة الليل. وفي ذلك الزمان كانوا يصلون التراويح ويقرأون فيها أكثر مما يقرأون في وقتنا الحاضر. ففي العشرين يوماً الأولى، غالباً قبل صلاة القيام (يسميها البعض صلاة التهجد) يختم القرآن في جميع المساجد – إلا ما ندر – ومنه أصبح يوم عشرين من رمضان اسمه يوم الختمة. حتى أصبحت كلمة الختمة تعني يوم عشرين من الشهر وامتد هذا إلى الأشهر الأخرى فيقولون يوم الختمة من رجب ويوم الختمة من محرم أو شوال أو غيره يعني يوم عشرين من ذلك الشهر.

والمعروف أنه في جميع المساجد تقريباً يختم القرآن ثلاث مرات على الأقل، ولا يستغرب أن يختم بعضهم أربع مرات ويتسابق ويتنافس أئمة المساجد ويحاولون معرفة سير المساجد الأخرى ويحاول كل منهم أن لا يتفوق عليه أحد.

وكانت الصلاة ليلاً في العشرين يوماً الأولى تتيح بعض الوقت للناس للنوم طرفاً من الليل. أما في العشر الأواخر فإن تقسيمهم صلوات القيام لا يتيح وقتاً يذكر للنوم، فعند غروب الشمس الإفطار على التمر والماء والقهوة، لمن يجدها. ثم الذهاب إلى صلاة المغرب (الرجال فقط) فالعودة إلى تناول العشاء غالباً (المرقوق لمن يجده) ثم الذهاب لصلاة الأخير (العشاء)، ثم التراويح، ثم العودة إلى المنازل لمدة ساعة أو ساعة ونصف، ثم العودة لأداء صلاة القيام (التهجد) الأولى (الأولات)، ثم العودة إلى المنزل لساعة أو ساعة ونصف، ثم العودة لأداء صلاة القيام (التهجد) الثاني (التاليات أي الأخيرات)، ثم يعودون لتجهيز السحور، ثم بعد السحور مباشرة الذهاب لصلاة الفجر (الرجال فقط). ثم الذهاب إلى أعمالهم (الزراعية خاصة)، وهذا يخضع للموسم الزراعي الذي يوافق رمضان، الشتاء بليله الطويل، أو صيفاً وليله القصير، وعلاقة كل ذلك بمتطلبات الزراعة حسب الموسم.

وقد حدث في سنة من السنين أن صادفت العشر الأواخر من رمضان موسم (الختَام) (حرث الأرض) لزراعة الحبوب الموسمية (غالباً القمح). وكما أسلفنا إن حرث الأراضي في القصيم يقوم به الرجال وبالمسحاة فقط، ولا يستخدم المحراث الذي يجره الحيوان. ولأن الناس يحرصون على عدم تفويت فرصة الشهر الكريم للقيام بأقصى قدر من العبادات والقربات والطاعات والإكثار منها، خاصة تلك التي لا تحتاج إلى إنفاق مالي نظراً لضيق ذات اليد للغالبية الساحقة منهم. فيكون التقرب بالعبادات والصلوات هو كل ما يستطيعون. والأثرياء كذلك لديهم اسبابهم للتعبد لنيل الأجر والثواب فهم في حاجة إليه مثل غيرهم أو أنهم بحاجة إليه أكثر من غيرهم لعله يحمل عنهم بعض ما يشكون في داخلهم من انهم لم يعطوا المال حقه كاملاً أو أن أوزار وآثام التجارة يصعب التخلص منها بشكل كامل ولعل صلوات رمضان تكون مكفرة لبعض تلك الآثام والتقصير. وعندما يصادف موسم الختام أيام العشر

الأواخر من رمضان يقع هؤلاء المؤمنون بين خيارين أحلاهما مر: أحدهما إنجاز حرث الأرض وهو جهد بدني هائل مرهق جداً، أو أداء قيام الليل كما كانوا يؤدونها في المواسم الأخرى.

والذي حدث في تلك السنة أن جماعة أحد المساجد الذي كان معظمهم من المزارعين بسبب موقع المسجد، وكذلك غير المزارعين العمال يعتبر الختام فرصة ذهبية لهم يحصلون فيها على أجور لسد بعض حاجاتهم.

وفي تلك السنة قام أحد الجماعة (كان من علية القوم) وانتهر إمام المسجد وعنفه على إطالته في صلاة القيام قائلاً له "يا فلان تقطعت ظهورنا، بالنهار المسحاة وبالليل أنت، تسابق فلان وفلان (أئمة مساجد أخرى) ونحن لا نستطيع مجاراتهم لأن جماعة تلك المساجد ليسوا مزارعين مثلنا هم "ينامون بالنهار". وقد نتج عن هذا الاحتجاج أن ترك الإمام إمامة المسجد، أيّ مسجد، وتفرغ للتدريس في مسجد آخر، وقد تعلم على يديه أعداد كبيرة من أهالي البكيرية وغيرها من القرى القريبة وقد أظهر نجاحاً واحتراماً كبيراً في التعليم ربما أكثر منه في إمامة المسجد بمقاييس ذلك الزمان.

وفي رمضان يقدم الناس كل ما يستطيعون من القربات المادية وغير المادية بالإضافة إلى قيام الليل وصيام النهار وقراءة القرآن وكثرة التسبيح والأذكار وفعل الخير وكثرة الصدقات فمن لديه لبن يطعم جاره حتى لو أضطر إلى زيادة اللبن ماء حتى يكفي الأسرة وجيرانها. ومن الصدقات المشهورة في رمضان عشاء الوالدين في يومي الخميس والاثنين طوال شهر رمضان. هذا بالإضافة إلى ما يوجه من أوقاف لتأمين الإفطار في المساجد للفقراء، والغرباء، وعابري السبيل والمعتكفين. وعشاء الوالدين طعام يطبخ مساء يوم الصيام (الخميس أو الاثنين أو كليهما) ويعتنى فيه وهو غالباً جريش بدون لحم، ويوزع على الجيران والفقراء.

وفي ليل رمضان يجد الصبيان وقتاً طويلاً للالتقاء والذهاب إلى المساجد الأخرى لمعرفة من سبق من، أو حضور الختمه أو ممارسة شقاوة الصبيان مع صبيان الأحياء الأخرى. وبصورة عامة يعتبر رمضان من المناسبات المقدسة الكبرى في حياة الناس بما في ذلك الأطفال خاصة الصبيان.

"عيد العمَر"

وبمناسبة ذكر الأعياد هناك يوم مشهور في القصيم يطلق عليه مجازاً "عيداً" وهو "عيد العمَر" بسكون العين. والعمر هذا ما هو إلا اسم لشهر محرم. و"عيد العمَر" هذا يخص الصبيان (دون البنات) كباراً وصغاراً. وهو يشبه القرقيعان تقريباً في دول الخليج العربي. ويتحدد هذا طوال ثلاثة أيام هي الثامن والتاسع والعاشر من شهر محرم كل عام. وفيه يتفق صبيان البكيرية في مجموعة واحدة ويخرجون في الصباح الباكر (عند طلوع الشمس) ويدورون على المنازل بيتاً بيتاً بما في ذلك منازل المزارع داخل البكيرية. ويضم هذا الجمع صبياناً ومراهقين كباراً من سن سبعة عشر إلى سن الثامنة. إلا أن الصغار يشاركون في الأماكن القريبة من منازلهم ولا يذهبون بعيداً. والمجموعة يصل عدد أفرادها إلى سبعين صبياً أو أكثر.

وتكون هناك قيادة تحدد مكان الالتقاء في الصباح الباكر والمسار الذي تتخذه المسيرة لهذا اليوم وكذلك الأيام التالية. هؤلاء الصبيان يرددون أهازيج تدور حول طلبهم إعطائهم العَمار وهو غالباً تمر جاف ينثر عليهم من سطح المنازل بطريقة تتوخى التوزيع العادل. فالذي ينثر التمر عليهم يتعمد نثر كمية إلى اليمين وأخرى إلى الشمال والوسط والأدنى والأقصى. واشتراط كونه جافاً لأنه غالباً يقع على التراب، وتمر "الجصة" إذا وقع على الأرض غطاه التراب وأفسده. ولذلك نجد أن الناس

يحتاطون لهذا اليوم ويبقون كمية من التمر الجاف لهذه المناسبة لأنها قليلاً ما توافق جداد النخيل.

وقد يقوم بعض الناس (وهم قليل جداً) بأن يعمرهم بتمر من نوع السكري المجفف ويسمونه (يبيس) بكسر الياء والباء. وقد تتحمس أم ولد وحيد غائب بأن تعمرهم كليجا. والصبيان يهزجون أثناء سيرهم السريع بأصوات عاليـة ولحن مميز ويقولون:

باقي باقي – طول النخل والسواقي

والعدة والركية – والبركة المملية

وبعدها يقولون بيتاً أو بيتين، إما طيبة المعنى ومحببة أو سيئة وغير لائقة، حسب الموقف. وإذا وقفوا على الباب قرعوه وهزجوا باسم الولد (محمد مثلاً):

محمد حج بامه

ومكبعها (مغطيها) الفوطة

عن المطر ونقوطه

ويا سعدك يا لطيفة

بالجنة النعيمة

ثم ينادون بصوت عال "هو هناش (أي هل هناك شيء لتعطونا الآن)، أو ننحاش (أي نذهب على وعد في وقت آخر، أو نِدعي (نجعل) الباب قشاش (تهديد بتكسير الباب)" ولا يحدث تكسير أبواب طبعاً. ولكن من يطردهم ولا يعطيهم شيئاً يسمعونه كلاماً غير مرغوب. وغالباً لا أحد يرغب أن يشنع به هؤلاء الصبيان، فنادراً جداً أن يطردهم أحد ومن يطردهم يكون عرضة لسخرية وشماتة جميع الأهالي.

وخلال الأيام الثلاثة هذه يكمل الصبيان المرور على جميع منازل البلدة، وقد يضطرون إلى استكمالها في اليوم الرابع. ويلاحظ أن أبناء الفلاحين غالباً لا يشاركون في تلك المسيرات، والملاحظ أيضاً أنه لا يعطى أحد شيئاً بيده بل ينثر من فوق ويوزع في جميع الاتجاهات.

ويقوم بعض الصبيان بالتشارك والتعاون مع بعضهم. وأكثرهم منفرداً ويقوم البعض بفتح غترته(*) ويربط طرفيها حول عنقه ويمد الطرفين الآخرين باستخدام عصيان ويتلقى فيها التمر المنثور من السطح فوق رؤوس أكثر الصبيان الصغار وقبل أن يصل إلى الأرض، وقد يلجأ كبار الصبيان بأن يشترك اثنان منهم بأن يمسكوا أطراف غترة أحدهم على شكل شراع مربع يرفعونه عالياً فوق الجميع يتلقون فيه التمر المنثور من السطح قبل وصوله إلى الأرض. وكما هو متوقع يحصل الكبار دائماً على نصيب الأسد. هذا التمر الذي يجمعه الصبي خلال الأيام الثلاثة هو حق خاص له وغالباً يبيعه إذا كان أهله ليسوا في حاجة ماسة إليه.

وهذا العيد معروف في كل أرجاء القصيم ولكنه لا يمارس في المدن الكبيرة رغم معرفة كبار السن بهذه المناسبة، ويبدو أنه كان يمارس عندما كان حجم البلدة مناسباً ويمكن تغطيتها في ثلاث أيام. وهناك أيضاً سبب آخر (اقتصادي) هو انتشار فرص العمل الأخرى في المدن الكبيرة (للصبيان) مثل الخدمات والتجارة والصناعة والأنشطة الأخرى فيستهجن "العمار". وقد يكون وضع البلدة الجغرافي لا يسمح بذلك خاصة إذا كانت منازلها غير متلاصقة والبلدة تتكون من أحياء متباعدة. وعلى أية حال بالنسبة لحالة بلدة البكيرية كان هذا "العيد" موجوداً حتى أواخر سبعينيات القرن الهجري الماضي (الرابع عشر).

(*) في تلك الأيام يلبس جميع الصبيان الغترة البيضاء، ويندر جداً جداً أن يلبس الصبيان والشباب الشماغ الأحمر فهو للرجال الكبار فقط.

وقد حدث مرة أن رجلاً كان قد أمضى وقتاً طويلاً خارج المنطقة وقد عاد واستقر في البكيرية وفتح دكاناً فيها، وعندما داهمه الصبيان (باقي باقي ... الخ) أمطرهم بقروش معدنية من فئة ربع قرش ونصف قرش وقرش. وقد كان هذا حدثاً فريداً، ولا نعلم هل كان استخدام النقود مخططاً له أم أنه هو وجد نفسه محرجاً ولم يكن مستعداً فوجد المخرج بالنقود. وقد وقع مشهد آخر في نفس الفترة تقريباً منتصف السبعينيات تقريباً، فقد وصل الصبيان إلى منزل أمير البلدة وكان في تلك الأيام شخص من خارج المنطقة ولا يعرف هذه المناسبة. وقد فوجئ بهذا الحشد الكبير يقرعون الباب ويطلقون الصيحات والأغاني التي لا يفهم منها شيئاً، فخرج عليهم بخيزرانة يهزها في وجوههم مهدداً ومتوعداً وربما شطح ذهنه بعيداً إلى احتمالات أخرى، قد يكون بعضها متعلقاً بالأمن بحكم منصبه. ففوجئ الصبيان وفروا من أمامه إلى مسافة آمنة وأمطروه بالأهازيج البذيئة والسخرية حتى أتاه أحد الأهالي وشرح له المناسبة فأرسل خلف الصبيان يعتذر ويطلب منهم أن يأتوه في اليوم التالي، وهكذا كان.

الجراد

الجراد آفة مخيفة يشبه الغزو الذي تتعرض له القبائل من قبائل أخرى، فهو يأخذ أكبر قدر من أرزاقهم. وقدومه يشبه قدوم غازٍ أجنبي لا يعرفون إلى أي مدى سوف يصل ضرره. فهو يتلف الزروع والأشجار، فما يسقط على الأرض من الأوراق والثمار أكثر مما يأكل الجراد. وهو لا يعف عن أي شيء مما تنبت الأرض، حتى أن الناس يصدقون خرافة تقول أن الجرادة إذا لم تجد شيئاً تأكله يلين لها من الحجر قطعة بحجم رأسها وتأكلها. ويصدق بعض الناس أيضاً على نطاق واسع خرافة أن هذا الجراد تنفثه حيتان البحر الضخمة من خياشيمها ولذلك يصفون الجراد في أول مجيئه بأنه (بحَري) بسكون الباء، نسبة إلى البحر.

وهذا النوع في الغالب أفريقي يركب الرياح ويعبر البحر الأحمر إلى صحراء العرب. ويقولون إنه إذا جاء الجراد في وقت كان الربيع فيه عاماً للبلاد والمراعي غامرة بالحشائش والشجيرات المورقة فإنه لا يتلف الكثير من المزروعات. والحضر أكثر قلقاً من البدو من قدوم الجراد.

والملاحظ أن الناس لا يمارسون طقوساً دينية (صلوات وأدعية) جماعية متعلقة بالجراد. والجراد الطائر أخف ضرراً من الدبا لأنه يمر كالإعصار ويمضي ويكون ضرره حسب كثافته. والطائر منه يقاومه الناس بإشعال النار بأشياء تطلق دخاناً كثيفاً وقرع الأواني لإفزاعه وهذا قد يخفف من أثره. أما الدبا فلا حيلة لهم به إلا ملاقاته خارج البلدة ومقاتلته بحفر خنادق ودفعه إليها ثم ضربه وقتل ودفن الكثير منه. وفي حالة كهذه يجبر أمير البلدة الناس على ترك أعمالهم (إعلان حالة الطوارئ) والخروج لملاقاة العدو خارج البلدة قبل دخوله إليها خشية اندفاعه إلى الآبار ويموت فيها ويفسد ماءها ويهلك الناس.

وقد حدث في البكيرية أن أحاط الأهالي البلدة كاملة منازلها ومزارعها بخندق حماها من دخول الدبا، وكان هذا إجراءً ناجحاً ساعد في نجاحه التصاق المنازل والمزارع ببعضها مما جعل طول محيط الخندق قصيراً يمكن تنفيذه بكلفة معقولة أمراً ممكناً. وكذلك فإن نوعية أرض البكيرية في تلك الأيام كانت كلها أرضاً سهلة ولم تصل المنازل إلى المنطقة الصخرية. وبعض البلدات تكون أحياؤها متناثرة ومتباعدة ولا مجال للإحاطة بها بخندق واحد.

وأنواع الجراد ثلاثة، يبدأ الأول الذي مر ذكره البحَري وهو هزيل لونه أحمر نحاسي لم يكتمل نموه ولم يتميز الذكر (الزعيري) من الإناث (المِكِن). والثاني الجراد المكتمل النمو المميز الذكور من الإناث، وهذا هو النوع الذي يسعى الناس وراءه لصيده وأكله. وقد ينظر إليه من زاوية أنه لحم الفقير، والناس لا يفوتون الجراد إذا

علموا به. ويعتبر الإخبار بالجراد ومكانه ومقداره من فعل الخير. فإذا عثر عليه جمّال أو عابر طريق فإنه يخبر به فوراً. وإذا رأوه ماراً بالبلدة قبيل مغيب الشمس بقليل فإنه يذهب بعض "النشاما" من الشباب ليبيتوه (يحددوا مكان مبيته بالضبط) لكي يخبروا الناس ليخرجوا إليه ليلاً ويجمعوا منه ما يستطيعون.

والمعروف عن الجراد أنه لا يطير ليلاً في الشتاء ولا يطير في الجو البارد، بل أنه لا يستطيع الحركة مطلقاً في الليلة الباردة إلى ما بعد طلوع الشمس. وتأتي أسراب الجراد كثيفة جداً في بعض الأحيان إلى درجة أنها تكون كالسحاب يحجب ضوء الشمس. والسرب بهذه الكثافة يسمونه (الرحى) للتعبير عن كثافته وثقله. أما الأسراب الخفيفة يقولون عنها (طيشان) أو قصمول (القصمول رجل الجرادة) وجمعها قصاميل للتعبير عن الكمية القليلة التي لا تستحق من يخرج في الليالي الباردة لصيده لأن الحصيلة قليلة.

وإذا حدث أن عثر شخص على الجراد في مكان قريب وتأكد من كميته فإنه يخبر أهل البلدة وغالباً يكون هذا أول الليل، ويبادر أول من يعلم بذلك أن يدور في الشوارع ويؤذن في الناس "يا جرّادة" أي يا جامعي الجراد، ترى الجراد في المكان الفلاني (المعروف). يقوم الناس بالتشاور مع جيرانهم على اتخاذ قرار الخروج من عدمه حسب ظروف الطقس ومكان الجراد أو الظروف الخاصة. وغالباً يستجيب للنداء خلق كثير وخلال أقل من ساعة بعد صلاة العشاء ترى جموع الناس من مختلف الأعمار ذكوراً وإناثا وغالبيتهم الساحقة راجلين، ونادراً ما يكون أحدهم على حمار أو بعير. والاستعداد أمر بسيط، يلبس الشخص جميع ما عنده من ملابس لأن الموسم وسط الشتاء ولا يأتي الجراد في موسم آخر، ويأخذون أكياساً كبيرة لجمع الجراد فيها. فإذا وصلوا إلى مكان الجراد أخذوا يجمعونه، كل يجمع لنفسه وقد يتعاون البعض.

وإذا كانت الليلة دافئة نسبياً فإن الجراد يترك مكانه زحفاً ولا يجدونه في المكان المحدد. وفي الليلة الدافئة أيضاً يمكن أن يجمعوه عن طريق حفر خنادق صغيرة ويدفعوه إليها. وإذا كانت الليلة باردة فإن الجراد لا يتحرك مطلقاً فيجمعونه من الشجيرات والأرض بطريقة الكنس. وتعتمد الحصيلة على الخبرة والحذاقة والقوة. ولكي يشجعوا من لم يسبق له أن خرج لجمع الجراد ويخاف الثعابين أو العقارب فإنهم يشيعون بأن الأفاعي لا تلدغ ليلة الجراد فهي (شبعانة جراد) وتحولت هذه العبارة إلى أن أصبحت المثل الشعبي (الداب شبعانٍ دبا) والداب هي الحية، ويقال هذا عن الشخص الذي لا يهتم لشيء لأنه مستغن عنه بغيره. وقليلاً ما يذكر وجود الأفاعي مع الجراد، والسبب ربما أنه يأتي في وقت البيات الشتوي للأفاعي. أما العقارب فكثيراً ما توجد العقرب وسط الجراد ولكنهم لا يجدونها إلا بعد طبخه فيحذفون العقرب ويأكلون الجراد دون تردد، ولم يذكر أن أحداً تضرر من أكل الجراد الذي كان مطبوخاً مع عقرب.

والمرغوب من الجراد هو الإناث (المكن) المكتنزة بالبيض. ويكره الناس الجراد الذي لم يميز ذكوره من إناثه، ولا يحبون الذكور (الزعيري) ذا اللون الأصفر لكنهم مع ذلك يأكلونه، إلا أنهم لا يفكرون في صيد وأكل الخيفان.

والخيفان هو الجراد الذي ولد في المنطقة واجتاز مراحل تطور الجراد هنا في المنطقة حتى وصل إلى مرحلة الطيران، وهو يكون خفيفاً ضعيفاً ليس فيه ما يغري بأكله ولم يتبين منه الذكر من الأنثى ويكون لونه قريباً من اللون الزهري ولا يختلف عن البحري إلا باللون. ومع ذلك يصر بعض الناس أن الجراد ينفثه حوت من البحر، وقد يكرس هذا الاعتقاد كون الخيفان لا يكمل دورته ويصبح جراداً يبيض ويفقس مرة أخرى في نفس المنطقة. فهم لا يرونه مرة أخرى فهو في هجرة دائمة.

والدبا يخرج من الأرض متوسطة الرخاوة عندما تكون الظروف ملائمة وقد يكون الدبا كثيفاً مخيفاً وهو يقيم مدة أطول من الجراد لأنه لا يطير وبعض الناس يأخذ منه مقادير يجففها ويطحنها ويعتبرها نوعاً من الدواء، وهذا من منطلق أن هذا الدبا قد أكل من جميع النباتات والأشجار، ويرددون مقولة (إذا جاء الجراد "الدبا" فأنثر الدواء) أي أن الدبا يكفي عن جميع الأدوية.

ومن المألوف جداً أن يجلب الجراد بأكياس كبيرة جداً للبيع في السوق ويشتريه الموسرون من الناس الذي لا يريدون الخروج ليلاً لجمع الجراد أو أن هذا الجراد مجلوب من مكان آخر (بعيد).

وطبخ الجراد يكون في قدور ضخمة جداً لا يضاف إليه سوى الملح الكثير جداً ويترك يغلي على النار فترة طويلة (ساعات)، يقولون لا تنضج الجرادة إلا بعد أن يتهشم رأسها من أثر الطبخ. والجراد إذا جفف لا يفسد أبداً نظراً لكثرة الملح والجفاف.

وفيما يتعلق بالجراد فإن الناس لا تستحي من أن تطلب من الجيران أو المعارف بعض الجراد بخلاف الأطعمة الأخرى، والناس تبادر إلى إرسال كمية من الجراد إلى المنزل الذي يعرفون إنه ليس لديهم جراد.

والعودة من رحلة الجراد غالباً تكون قريب الصبح حسب الموقع وكمية الجراد وقد تطلع الشمس قبل أن يصل الجرّادة (جامعي الجراد) إلى منازلهم ويعتبر الذهاب لجمع الجراد عذراً مقبولاً إذا ما قصر الشخص بواجب ما.

فمثلاً: عندما بدأ التعليم النظامي فإن المدرسة لا تعاقب أو تلوم الطلاب الذين لم يحضروا ذلك اليوم (التالي لليلة الجراد) فهو عذر مشروع.

وأثناء جمع الجراد يوقد الناس ناراً للتدفئة وكذلك يشوون بعض الجراد ويأكلونه، ولكن طعم الجراد المشوي ليس لذيذاً مقارنة بالجراد المطبوخ والفرق في وجود الملح.

وإذا عثر شخص بالمصادفة في طريقه على الجراد فإنه يخلع بعض ثيابه ويضع فيها ما يستطيع من الجراد ويحمله لأهله. وكذلك من ذهب واستطاع أن يصيد أكثر مما توقع من الجراد فإنه يخلع بعض ثيابه ويملؤها بالجراد.

والدبا يفقس إذا كانت الرطوبة مناسبة ويخرج من تحت الأرض لأن الجرادة تغرس ذنبها داخل الأرض وتضع البيض، فإذا فقس خرج كالنمل ويقال له (نميلي)، وبعد فترة قصيرة يوم أو يومين ينشط وتتسارع حركته ويسمى (قعيسي) تشبيهاً بالقعس وهو نوع من النمل حركته سريعة ومتقطعة وموجود في المنازل ومستعمراته ليست كثيفة كباقي أنواع النمل، وأخر مرحلة من مراحل الدبا هي الكُتفان،، وهذا يكون كبيراً نطاطاً يتميز بلونه الأصفر الفاقع مع أكتاف وبقع سوداء. كأنها بعض الملابس العسكرية أو لباس بعض الفرق الرياضية ولونها غالباً أصفر واسود. وهذه المرحلة مصيرها التحول إلى الخيفان وهو جراد طائر يذهب ولا يعود، ومن هنا ترسخت خرافة أن الجراد لا يتكاثر كغيره من الحشرات. بل كل سنة ينفثه حوت من خياشيمه فيقولون الجراد ينخره حوت (يخرجه من منخره).

واستمرت علاقة الناس بالجراد حتى بعد أن انتشرت السيارة وأصبح الناس يذهبون لجمع الجراد على السيارة. فيذهب الناس بسيارة وكل شخص يدفع لصاحبها أجراً معيناً حتى تمتلي السيارة فيذهب بهم إلى مكان الجراد وينتظرهم ويجمع جراداً لنفسه معهم فإذا انتهوا من جمع الجراد أعادهم إلى منازلهم.

وقد توقف الناس عن الاهتمام بالجراد لسببين: أولهما تحسن الحياة الاقتصادية للناس، فلم يعد الجراد رافداً هاماً للغذاء ومصدراً جيداً للبروتين. والسبب الثاني هو جهود مكافحة الجراد وتحذير الناس من المبيدات التي قد يكون الجراد قد تعرض لها.

ولا يزال بعض كبار السن يرغب في أكله ولكن من قبيل الحنين للماضي ليس إلا.

الولائم

لا تقام الولائم إلا فـي الأعراس أو قدوم غائب أطال الغياب أو قدوم ضيوف، والوليمة للضيف أو قدوم المسافر غالباً تكون شاةً واحدة أو خروف أو عنزة. وتقدم بعد العصر المتأخر (مسَيّان) بسكون الميم، والسبب أن هذا التوقيت ليس غريباً على الناس فبعضهم يتناول عشاءه قبل المغرب، والسبب الآخر هو أن ضيق المكان وقلة الإضاءة تجعل الأمر غير مريح في الليل، بينما تقديم العشاء في النهار يكون في باحة المنزل و لا حاجة للإضاءة ويكون مع الناس فرصة للذهاب إلى منازلهم قبل حلول الظلام لأن الوليمة تجمع مع الضيوف الجيران والأقارب حتى لو كانت منازلهم في الطرف الآخر من البلدة وهؤلاء دعوتهم للوليمة شبه واجبة، وينتج عن التقصير فيها عتب كثير قد يكون معلناً وغالباً غير معلن ولكنه ملفت للنظر ومثير للسؤال (عجيب وين فلان) والتقصير فـي الدعوة لا يفسر في الغالب إلا بأنه احتقار أو أن العلاقة سيئة جداً. ومن المألوف في الوليمة أن يقدم الطعام كله للرجال وتأتي النساء بعدهم ويرون هذا من باب إكرام الضيوف والظهور بالمظهر اللائق. وقـد كانت النساء تتقبله كواقع درج عليه كل الناس من ناحية، ومن ناحية أخرى اقتناعاً بالتبرير السابق. والغريب أن هذا مقبول حتى لو كانت الوليمة قد أقيمت خصيصاً للمرأة أو لها ولزوجها. ومن المألوف أيضاً توزيع الطعام المتبقي على الجيران والأقارب الذين لم يحضروا.

وهنا يبرز تساؤل لماذا يذبح خروف كامل حتى لو كان الضيف شخصاً واحداً. ربما تكون الإجابة هو أن البدوي والقروي لا يوجـد لديه ثلاجة وليس بجانبه بقالة أو جزار أو "سوبر ماركت" ليأخذ منه قدر الحاجة. ولذلك يذبح خروفاً ويدعو جيرانه وأقاربه لعدم وجود ثلاجة يحفظ فيها الباقي. وربما أيضاً إن كان الضيف سوف

يقيم بضعة أيام أن يقوم أحد الجيران أو الأقارب ويقول العشاء غداً عندنا وآخر ليوم ثالث وهكذا. وهذا يخدم في إشاعة التكريم وتخفيف الحرج عن الضيف وعن المضيف، وأيضاً التمتع بتناول طعام لذيذ لأن القروي لا يذبح الذبيحة إلا لمناسبة ولذلك فهو لا يذوق اللحم إلا في هذه المناسبات حتى لو كان من البدو وعمله تربية هذه الأغنام. ونظراً لأن معظم حاضرة نجد ذات أصول بدوية وعلاقتهم بالبادية والبداوة لا تنقطع نظراً للتكامل الاقتصادي بينهم واستمرار العلاقات الاجتماعية، لذا يتشابه سلوكهم وعاداتهم في بعض الأمور.

والضيف هنا لا يقصد به عابر السبيل، فعابر السبيل تعتبر ضيافته واجبة، ولكن يقدم له من الموجود وليس بالضرورة أن يذبح له خروف.

لكن ضيافة القريب القادم من سفر بعيد وغياب طويل تكون الوليمة احتفالاً بالعودة سالماً نظراً لمخاطر الغربة والأسفار في ذلك الزمان. فالطرق ليست آمنه دائماً. فإن سلم المسافر من قطاع الطرق فقد لا يسلم من الظروف الطبيعية (يضل الطريق، الحيوانات المفترسة، المرض، مرض الدابة التي تنقله، الموت عطشاً أو أي نائبة من نوائب الدهر). يضاف إلى ذلك أن فترة الغياب مهما طالت فهي في الغالب تكون مصحوبة بانقطاع الأخبار، فأساليب التواصل ضعيفة جداً. ولذلك فإن وصول الغائب سالماً، وغالباً غانماً أو هكذا يأمل الأهل، فإن هذا يعتبر حدثاً عظيماً لأهله يستحق إقامة وليمة تليق به وبأهله وتشرفه وترفع مقامه أمام الناس!! وهذه واقعة قد تلخص المعنى المقصود هنا.

هذا شاب سافر إلى المدينة المنورة طلباً للرزق أيام الدولة العثمانية. ولأن المدينة المنورة من الأماكن القريبة للقصيم لذا يقصدها بعض أهل القصيم طلباً للرزق (وظيفة أو تجارة وغيرها). وقد أقام هذا الشاب وقتاً ثم عاد إلى البكيرية. وكان

والده يعرف أن السائد عند كثير من الناس، خاصة طلبة العلم الشرعي، أنهم ينظرون إلى أن الدولة التركية ليست متمسكة بالدين الصحيح، من وجهة نظرهم، لذا ينظرون إلى القادم من هناك نظرة شك وريبة وأنه قد تلوث ولحقته الآثام وأنه يجب هجره على الأقل ثلاثة أيام حتى يطهر من رجس هذا السفر إلى بلدان ليست على "الدين الصحيح"، حسب فهمهم. لذا قام والد الشاب مباشرة وأخذه إلى القاضي وقال يا شيخ هذا ولدنا فلان جاء للتو من أراضي الدولة (الدولة العثمانية) ونريدك أن تطهره من "رجس الدولة"، فأخذ القاضي المهفة (مروحة مصنوعة من سعف النخل) وضربه على ظهره ضرباً خفيفاً وقال الآن إن شاء الله أنه طاهر. فقال الوالد ما دام قد طهر الآن يا شيخ فسوف نولم له وليمة تليق به وبنا ويشرفنا حضوركم يا شيخ. هذه الواقعة تبين حرص الوالد وفرحته الغامرة بعودة ابنه. ولكن بما أنه كان قادماً من مكان "مشبوه" فقد تفتقت قريحته عن هذا الإجراء الذي جنب ابنه الهجران الذي كان يتعرض له كثير من القادمين من المدينة المنورة، وسوف يفسد عليهم الفرحة ويضيع عليهم إمكانية إقامة الوليمة في وقتها. حيث إن الوليمة للقادم من بعيد وبعد غياب طويل تحمل معاني متعددة لأهل القادم من السفر، والمحتفل به.

والجدير بالملاحظة أنه بعد أن اختلفت الظروف وساد الأمن في الطرق، وتطورت وسائل النقل، واتضحت مسالك الطرق، وكثرت حركة الانتقال، وتطورت وسائل الاتصال، البريد، والكتابة وغيرها، وتحسنت الظروف الاقتصادية لكثير من الناس فقد أصبحت الوليمة للقادم من السفر لا تحظى بنفس ما كانت تحظى به في فترة ما قبل النفط، رغم مقاومة البعض والتمسك بها تعبيراً عن مشاعر الترحيب.

الحج

الحج أمنية غالية علـى قلب كل فرد لأنها فريضة من جهة، ومن جهة أخرى لأنها صعبة المنال. فالحج يتطلب نفقة كبيرة أولها النقل لـمدة شهرين تقريباً، وتعطل عن العمل، وغياب عن الأهل، ونفقة إضافية أثناء السفر، ومخاطر الطريق، والمرض وغيرها. ورغم كل ذلك يندر أن نجد أحداً مـن أهل القصيم من يمتد به العمر ولا يكون قد حج. وقد لاحظنا فـي فقرة عيد العمر أن أهم أهزوجة تدغـدغ المشاعر هي الدعاء بالحج (مـحمد حج بامه) وفي الخليج كما في البلدان العربية والإسلامية الأخرى، يطلقون لقب الحاج على من أتم فريضة الحج. ولأنهم في الغالب من كبار السن فقد اختلط الأمر في بعض الأماكن وأصبح يطلق على كبير السن الحاج حتى لو لم يكن قد حج.

والحج في البكيرية قبل النفط مثل غيرها من بلدات وسط الجزيرة العربية وسيلتها الوحيدة هي الإبل. ونظراً لضيق ذات اليد لغالبية الناس فإن أعداد الحجيج لا تكون كبيرة جداً لأن بعضهم قد سبق له الحج، والبعض ينتظر الفرج بتحسن الظروف، وآخر يتحرى رفقة ملائمة ... الخ.

وبسبب مخاطر الطريق المتعددة فقد جرت العادة على أن ينطلق الحاج في قافلة كبيرة تضم أكبر عدد ممكن من الناس. وكل على حسابه الخاص، وفي الغالب تتكون مجموعات يشتركون في الطعام والخيام خلال الرحلة.

وحملات الحج من مدينة كبيرة مثل بريدة وعنيزة تعتبر حملات مستقلة ومتكاملـة، ولكن حملة من البكيرية قد تـحتاج إلى "دليلة" يعرف الطريـق تماماً، وفـي بعض الأوقات يـحتاجون إلى أحـد يـحمل سلاحاً خشية قاطع طريق (الحنشل).

ففي سنة من السنين قبل أن تنطلق الحملة أرادوا أن يحددوا ويتأكدوا من الدليلة، فقال أحدهم أنا أضمن لكم معرفة الطريق معرفة دقيقة من البكيرية إلى الدفينة (قرية على طريق مكة المكرمة تبعد عنها حوالي ٤٠٠ كيلو متر)، فقال أحد الحجاج، إذاً من الدفينة إلى مكة (حِط راسك بالخِرج) لا نحتاج إلى دليلة. وذلك لأن القوافل من جميع الأنحاء تتجمع من الإحساء، والخليج، ومنطقة اليمامة، وسدير والقصيم والعراق، وتتضح المسالك والجواد (جمع جادّة)، وتتضح آثار القوافل ولا يخلو الطريق من الحجاج كلما اقتربنا من مكة المكرمة.

ورغم قرب المدينة المنورة من القصيم فإنه في كثير من الأحيان لا يوجد ربط بين الحج وزيارة المدينة المنورة كما هو الحال عند أهل الخليج والعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا وتركيا وإيران وباكستان وغيرها.

وإذا ذهب الحجاج يودعونهم عند المغادرة بالدعاء لهم بالسلام وببلوغ المراد (الحج) والعودة سالمين غانمين. وعند قدوم الحجاج يستقبلونهم ويطمئنوا على سلامتهم ويدعون لهم بالقبول. ولا تخلو يد الحاج من هدية يحملها من مكة المكرمة والغالب أن تكون شيئاً من الثياب للكبير وبعض الحلوى أو لعبة للأطفال.

ومن أهم الملاحظات هو ما ينقله الحاج إلى معارفه من مشاهداته المختلفة في مكة وأهلها وطباعهم ومأثوراتهم ومختلف جنسيات الحجاج وتصرفاتهم ولباسهم "وجهلهم" بكيفية أداء المناسك حسب رأيه. وسلوك نسائهم ولباس الإحرام وسلوكهم عند كل مشعر من المشاعر. وذكر مكة وأسواقها وبضائعها المتنوعة وعاداتهم السيئة مثل التدخين في الشارع وحلاقة رؤوسهم بطريقة "محرمة" (القزع) تقصير بعض شعر الرأس أكثر من بعضه الأخر، واختلاف ملابسهم وغرائب سلوك الحجاج من بدو وهنود وأفارقة وغيرهم. وكذلك

أحـداث الطريق ذهاباً وإياباً إذا كـان فيها ما يستحق الذكر من مـخاطر أو مغامرات وغيرها. وهذه الـمعلومات رغم ما يشوبها من شوائب (عدم الدقة، المبالغة، سوء الفهم ... الخ) تعتبر مـن الـمصادر الهامة للتعرف ولو قليلاً علـى العوالم الأخـرى التي يعتبر أهل الـمناطق الداخلية أكثر جهلاً بها. فكل ما يـذكره الـمسافر القادم من الـحج أو من بلد بعيد لديه من الحكايات والمعلومات ما يبهرهم لأن انغلاقهم جـعل كـل شيء يبهرهم.

الفنون

يندرج تحت كلمة فنون طيف واسع من أساليب البشر في التعبير عن الأحاسيس والمشاعر والأفكار والرؤى بطرق وأدوات متنوعة كثيرة جداً.

فالأدب وصوره وأدواته المختلفة (الخطابة، الشعر وأغراضه المختلفة، والغناء، والموسيقى وآلاتها المختلفة، والرسم، والألوان، والنحت، والتصميم، والزخرفة، والتصوير، والتمثيل وغيرها). هـذه الأدوات التعبيرية وتطوراتها المستمرة عبر التاريخ الإنساني من عصر المجتمع البدائي إلى يومنا هذا. كل هذه الفنون كانت اختراعات بشرية مثلها مثل اختراع الأدوات الحجرية والخشبية والمعدنية والعجلة والحياكة والفخار والتعدين والقوس والسهم والسفن والسيارات والطائرات والصواريخ والتلفزيون وغيرها. ووسط جزيرة العرب لم يكن جاذباً للهجرة ولا للغزو الأجنبي التي تنتقل معها الفنون والعادات والتقاليد وغيرها.

والفنون في العصور القديمة لا توجد كلها في مجتمع واحد، بل إنه ينشأ في كل مجتمع نوع أو أكثر من الفنون المختلفة وبدرجات متفاوتة. وتنتقل الفنون من منطقة أو مجتمع إلى آخر مثل كثير من المفردات الثقافية أو الأدوات والأساليب الزراعية

والصناعية مدنية أو عسكرية وغيرها، عن طريق التجارة، والحروب، والهجرات وسائر أسباب الاتصال بين الجماعات البشرية.

والفنون غالباً تنشأ وتترعرع فـي المجتمعات الحضرية المستقرة لقرون طويلة. ومما يساعد على تطور الفنون (غالباً تعتبر كمالية أو ترَفيّة أو أحياناً تعتبر نوعاً من السفه) كالزخرفات والتفنن فـي التصاميم في الأثاث والمباني والنحت والرسوم والغناء والرقص، والأغذية وغيرها. كل هذه تتأثر إيجابياً مع وجود طبقات ثرية دائمة كمكون ثابت فـي المجتمع. والتاريخ يـخبرنا بأدلة لا تـحصى على العلاقات الطردية بين الثروة وازدهار وتنوع وتطور كثير من الفنون. والثروة هنا لا يقصد بها المجتمع الثري بكامله. بل إن المعروف والمشهور أن الثراء الفاحش يظهر بصورة جلية في مجتمعات تضم طبقات فقيرة تشكل الأغلبية فـي تلك المجتمعات ويكون توزيع الدخل فيها مختلاً خللاً كبيراً بحيث يوجد طبقة غنية صغيرة وطبقة متوسطة صغيرة أيضاً وطبقة فقيرة كبيرة جداً. وهنا تتمتع الطبقة الغنية بالتفنن بتمييز نفسها عن الطبقة الفقيرة، فـي المسكن، والملبس، والأواني، والدواب، والغذاء، والأثاث، والترفيه، ومختلف الكماليات. ومـن هنا تظهر الفنون. والشواهد التاريـخية علـى هذا كثيرة جداً، من مصر الفرعونية ومصر الإقطاعية، وأوروبا والهند وفارس، وروما وبغداد العباسية وغيرها.

أما المجتمعات الفقيرة جداً مثل حواضر وسط جزيرة العرب وكذلك بواديها، وكذلك المجتمعات المنعزلة، ولو أخذنا البكيرية مثالاً فإن مستوى وتنوع الفنون محدود جداً جداً، وربما ليس من المبالغة القول بأنه ربما كان مقصوراً على قليل من

أغاني العاملات كالطحانات، والدقاقات، والحصادات، والبنائين وبقية الحرف.(*) وكذلك بعض الأهازيج البسيطة المكررة في الأعراس وربما بعض الرقصات البسيطة المكررة. كل هذا غير مصحوب بأي نوع من الآلات بما في ذلك الدف المسموح.

ونادراً ما تجد الزخارف على الجدران الخارجية أو الداخلية، حتى ما يسمى بـ (الكمار) وهو رفوف مجصصة في مجلس الرجال. ويمكن ملاحظة أنه حتى الفرش والزنابيل والأكياس المصنوعة من السعف أو الصوف، وكذلك الأواني النحاسية والخشبية كلها لا تحمل شيئاً يذكر من الرسوم والنقوش أو الزخرفات. وقد يتأنق النجار عند صناعة بعض الأواني الخشبية أو بعض الأبواب (وهو قليل جداً) برسم خطوط أو نقاط بطريقة الكي، وكذلك صانع الأواني النحاسية قد يضفي على الإناء بعض اللمسات البسيطة جداً كالخطوط والنقاط والأشكال المعروفة والمتوارثة منذ زمن طويل.

وقد يقول قائل إنك لو ذهبت إلى منزل أحد الأثرياء في عنيزة أو بريدة فإنك سترى صورة مختلفة، وهذا صحيح، ولكن هذا لا يعكس الصورة العامة، فهو نادر ولا يعرفه غالبية الناس، وبالتالي هو ليس جزءاً من الثقافة السائدة في المجتمع. وهذا

(*) هناك لحن (فولكلور) يدعي بعض كبار المغنين (ولا اقول المطربين فليس كل مغنٍ مطرب) أنه صاحبه، لكن اللحن شائع ومعروف في البكيرية وربما في كل أنحاء القصيم أغنية على ألسنة الحيوانات، تأتي للتهكم على قدرات شخص معين، وقد تأتي للفكاهة فقط، والأغنية على لسان قطة هي:

أذن الديتس (الديك) أو قوقا *** يحسبني دجاجة

ما درى إني سِعيـــــدا *** بنت شيخ البساســـة

ومعروف في ذلك الوقت أن القطط هي ألد أعداء الدجاج على الإطلاق.

يذكرنا بما نقرأه الآن عن إبراهيم الموصلي، وزرياب، ومعبد وغيرهم من مشاهير الطرب والألحان في العصر العباسي الأول، ففي ذلك الوقت كان الاستمتاع لإبداع هؤلاء مقصوراً على قلة قليلة من كبار الأثرياء والأمراء. أما كافة الناس فليست جزءاً من هذا كله وليس لها سبيل إليه ولا يعرف أحد عن فنهم إلا قليل القليل من الناس. أما الآن وبفضل التقنية الحديثة فإن أفقر الناس يستطيع الاستماع إلى أشهر المقرئين والمنشدين والمطربين وأشهر المطربات وذلك بسبب التطورات الاقتصادية والتقنية العامة (في العالم) والخاصة في المجتمع الواحد.

إذاً يمكن القول إن الفنون إجمالاً، في البكيرية قبل النفط كانت شبه غائبة إلى حد كبير ولأسباب موضوعية مثل:

أولاً: العامل الاقتصادي، فكما ذكرنا في فصول سابقة أن البكيرية ليست بلدة ثرية بأي مقياس، فاقتصادها اقتصاد كفاف، والفقر كما هو معروف يرتب الأولويات، وكثير من الأعمال الفنية تحتاج إلى تمويل كبير ووقت طويل وتراكم معارف فنية متواصلة. ولذلك فإن الفقر يعتبر بيئة معادية لازدهار كثير من الفنون خاصة إذا كان الفقر ملازماً للمجتمع ملازمة طويلة جداً.

ثانياً: إن نشأة بلدة البكيرية (أواخر القرن الثاني عشر الهجري) كانت متزامنة مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله، النابعة من وسط الصحراء العربية شبة المنغلقة عن الثقافات الأخرى، وبالتالي الشك والريبة والحذر من قبول أو التهاون مع أي فكر أو سلوك "مستورد".

ثالثاً: إن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب موجهة إلى مجتمع قد انتشرت فيه الأمية والجهل لقرون طويلة مما أثر سلباً على معرفة غالبية الناس بأساسيات أمور دينهم، إلى درجة أنه حتى بعد منتصف القرن الهجري الماضي كان من واجبات المؤسسة

الدينية في كل بلدة (القاضي وأئمة المساجد) أن يعلموا العامة أساسيات مثل (من ربك؟ ربي الله، ما دينك؟ ديني الإسلام من نبيك؟ نبيي محمد بن عبد الله ...) إلى أخر هذه الأساسيات. وقد كان الموضوع الرئيس الذي أخذ حيزاً كبيراً من دعوة الشيخ رحمه الله هو في الموضوعات المتعلقة بالعقيدة والتحوط الشديد من كل شيء غير مألوف (وما أكثرها في مجتمع منغلق) خشية أن يجرح العقيدة ويقرب الإنسان من الشرك.

وهذه واقعة يمكن أن تبين المزاج العام في ذلك الوقت (منتصف القرن الهجري الماضي)، بعد أن استقر الأمر للملك عبد العزيز رحمه الله كان من أولوياته التوسع في التعليم، والأولوية كانت للتعليم الديني. فأصبح في كل بلدة مهما كانت صغيرة مؤسسة دينية مكونة من القاضي ومن قلة قليلة من طلبة العلم الشرعي ومن بعض الأشخاص المتحمسين الذين يحاولون أن يكونوا من "رجال الدين"، وكان يقال لهم الأخوان (لا علاقة لهم من قريب أو بعيد بالتنظيم العالمي). والقصة أن أحد هؤلاء ذهب إلى أماكن بعيدة في أرجاء المملكة المختلفة للعمل في مجال تخصصه، وبعد عدة سنوات عاد إلى البكيرية وكان يلبس عقالاً أو شيئاً قريباً من العقال فوق رأسه. فقال له أحد رفاقه القدماء الذي لم يغادر البكيرية: "يا ابو فلان" هالحبل المتطوي على رأسك تبي ما بُه عند الله شيء" والمعنى ألا تعتقد أن هذا الذي على رأسك يمكن أن يكون تقليداً لأناس يلبسونه ويعتقدون فيه أمراً قد يشوب العقيدة. فرد عليه صاحبه " لا يا ابو فلان، هذا حبل يمسك شماغي لا يطير بُه الهواء، لكن اللي أخاف عليك منه هالحبل اللي متطوي عليك كِلّك، وهو يشير إلى حبل "مرينة" موجود في عباءة صاحبه والحبل هذا ممتد من رأس الكم الأيمن إلى نهاية الكم الأيسر مروراً بالأكتاف والرقبة. وقد كان بهذه يمازحه ويبين له أن هذا مثل ذاك. فلماذا الريبة. وهنا يظهر الفرق الذي يحدثه السفر والاحتكاك بالمجتمعات الأخرى.

وفي واقعة مشابهة تقريباً أذكرها شخصياً في عام ١٣٧٧هـ جاءنا مدرس باكستاني من الأزهر ليدرسنا مادة النحو في السنة الثانية المتوسطة (معهد المعلمين الابتدائي) وكان يلبس ثوباً وغترة مثل ما يلبس بقية المدرسين وفي الشتاء يلبس فوق الثوب جاكيت لكنه أحياناً (ربما في الشتاء) يلبس "كرافتِه" معظمها يكون تحت الصدرية الصغيرة (القطعة الثالثة من البدلة الأفرنجية)،(*) ويظهر من الكرافتة ربطتها تحت الحنجرة مباشرة. وكان أحد زملائنا الطلاب (هو أكبرنا سناً) ولديه ميول للاستزادة من العلوم الشرعية وربما كان يقوم بقراءات خارجية في الكتب الدينية وربما يقرأ عند بعض طلبة العلم الشرعي. وقد أظهر لي بأنه يشك في أن هذه العقدة المعلقة في رقبة هذا الباكستاني إنها من الرقى والتمائم التي ورد النهي الشديد عنها في ما قرأناه في "كتاب التوحيد حق الله على العبيد" في مقرر التوحيد. وأخيراً تجرأ وسأل الأستاذ وقال له ما هذا، قال هذا ربطة عنق اعتدنا عليها فوق القميص مع البدلة وليس لها أي وظيفة أخرى.

ولعل الصورة الآن أصبحت واضحة حول ما هو متوقع حول موقع الفنون في مجتمع فقير مغلق كهذا.

ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن تذوق الإبداع في الشعر أو النثر أو الأصوات كان معدوماً في تلك المجتمعات فهو أمر غريزي، ولكن يحسن التنبيه إلى أن الظروف الموضوعية (المادية) ولا يقصد "بالمادية" هنا النقود او الوضع الاقتصادي المباشر فقط. ولكن مجمل الظروف الموضوعية التي تواجه مجتمعاً معيناً وتراكمات الظروف وآثارها على مر السنين هي التي تصوغ ثقافة المجتمع وسلوك معظم أفراده وطريقة التفكير ورؤيتهم للأشياء والأمور المختلفة، ومنها الفنون.

(*) الكرفته (ربطة العنق) والكبك (رباط الكم من طرفه عند الكف) ربما كانت مناسبة للبلاد الباردة لإغلاق فتحات القميص حول الرقبة والأكمام.

ويجدر هنا الإشارة إلى ملاحظة خارج البكيرية وهي مقارنة بريدة وعنيزة. بريدة مدينة كبيرة في مقاييس ذلك الزمان ولها اتصال واسع مع العراق والشام ومصر، وفيها ثراء كبير ولكن الحس التجاري والأنشطة التجارية والتفكير التجاري هو الغالب على أنشطة كثير من الناس. وعنيزة مدينة كبيرة وكانت إلى وقت قريب نداً قوياً لمدينة بريدة وهي مدينة ثرية وفيها ثراء كبير ولها صلات واسعة مع بلاد خارجية وثقافات متعددة، ولكن السوق التجاري في عنيزة لا يباري السوق التجاري لبريدة. ولكن عنيزة كمركز مالي كبير أكثر شهرة من بريدة وهذا الوضع معروف منذ سنين طويلة والملاحظ أن عنيزة (المركز المالي) قد عرفت على مر السنين بالانفتاح والتسامح وتقبل الجديد بما فيها بعض أشكال الفنون. فالراديو كان يباع في عنيزة ويصدح في الدكاكين دون أن يثير جدالاً أو نقاشاً في نفس الوقت الذي كان الراديو يتعرض لحرب قوية جداً في بريدة لدرجة أنه قد يرفض شخص مجرد مناقشة تزويج ابنته لشخص لديه الراديو. ويمكن القياس على بقية المستجدات الأخرى التي كانت دائماً تواجه معارضة ومقاومة واحتجاجات في بريدة ليس آخرها تعليم البنات واقتناء التلفزيون.

هنا قد يستنتج المرء أن عنيزة التي يغلب فيها النشاط المالي الذي لا يستهلك وقتاً طويلاً من العمل تجد بعض الفنون بعض الوقت وتصبح مقبولة وجزء من ثقافة المجتمع، ربما لهذا السبب فقط رأى فيها الريحاني (باريس نجد). أما بريدة ذات النشاط التجاري الدؤوب لسنوات ما قبل النفط وسنوات التحول فقد أظهرت مقاومة شديدة لكثير من المستجدات (منها بعض أشكال الفنون المختلفة)، وقد كانت بريدة معقلاً لبعض غلاة المتشددين، وقد كانت البكيرية تابعة إدارياً وتجارياً لبريدة منذ نشأتها وبالتالي فلن تختلف عنها كثيراً وسوف تتأثر بها. ففي فترة من الفترات

وصل التشدد في البكيرية، وبالتأكيد في كثير من القرى التابعة لبريدة، إلى درجة التحسس من صوت السواني والعمل على جعل المحور أصغر لكي لا يصدر أصواتاً يشتبه بأنها ذات علاقة بالطرب بدرجة أو بأخرى.

والخلاصة أن اقتصـاد الكفاف، المغلق لا ينتظر منه دعماً لفنون لا يظهر لها نفعاً مادياً مباشراً. وقد رأينا هذا فـي أوروبا فـي عصر الإقطاع فعندما انتشـر الجهل والفقر والانغلاق تدهـور الإنتاج الأدبي والفكري والفنون والإبداع إلى حضيض الحضيض.

الفصل الخامس

الحياة اليومية للأفراد والأسر

وصف الحياة اليومية للناس عن طريق تقديم بعض النماذج قد يساعد في جعل صورة الحياة الاقتصادية عامة والحياة الاجتماعية خاصة أكثر وضوحاً وجلاءً. وهي تعطي أيضاً أصدق وأدق وحتى أشمل وصف لأحوال أفراد المجتمع وسلوكهم وتصرفاتهم اليومية.

هذه الصور المفردة لسلوك كل من الفلاح والتاجر والمرأة والصبيان وغيرهم، سوف تضيف بعض الإيضاحات الواقعية لمنطقية سلوك الناس وتعاملهم مع أوقاتهم وأدواتهم وعلاقاتهم وتربيتهم لأطفالهم وتهيئتهم لمواجهة الحياة عن طريق تعليمهم الثقة بالنفس مبكراً بتكليفهم ببعض الأعمال، وكذلك إعطائهم هامشاً واسعاً من الحرية في الاعتماد على النفس وتطوير مهاراتهم العقلية والجسدية خاصة الصبيان في ممارسة الألعاب الجماعية والقيام ببعض الأعمال الجادة وحضور مجالس الرجال خاصة في المناسبات وقهوة بعد الظهر.

الفلاح

الفلاح(*) أو المزارع منشغل دائماً في عمله داخل مزرعته (العمل الزراعي المباشر)، أو خارجها لقضاء حاجاته في السوق أو لدى الآخرين الذين لهم علاقة بزراعته كالنجار أو الخراز أو غيرهم. أما أفراد أسرته زوجته وأبناؤه الكبار فلهم عمل دائم في الغالب. فإلي جانب الأعمال المنزلية، إعداد الطعام للأسرة والعمال، كلما كان هناك عمال، وحلب البقر وإعداد اللبن والعناية بالأطفال الصغار. وتقوم النساء بكثير من الأعمال في المزرعة كالتعشيب (اقتلاع الأعشاب الضارة)، وحصاد الأعلاف كالبرسيم وغيره لحيواناتهم وللعملاء. أما الصغار ذكوراً وإناثاً فإن الصبيان يساعدون قدر الإمكان في مختلف الأعمال الخفيفة في المزرعة أو يذهبون في مهمات يكلفون بها خارج المزرعة في السوق أو غيره. أما البنات فغالباً مع أمهاتهن في أعمالهن المختلفة في عملية تدريب مستمرة شاملة لجميع شؤون الحياة، تسير بوتيرة عادية جداً تتوافق مع الإيقاع البطيء للحياة الريفية القديمة.

والعمل في المزرعة يبدأ مبكراً جداً، بعد صلاة الفجر مباشرة وقد يكون قبل ذلك حسب نوع العمل والفترة من الموسم الزراعي ونوع الزراعة نفسها. فالإعداد للسواني يبدأ قبل الفجر وتبدأ السانية مبكراً قبل بدء عمليات الري التي يقوم بها "الرايس" الذي يروس الماء (يوجهه إلى حوض حتى يمتلي ثم إلى آخر وآخر وهكذا)، ويسمون هذه العملية في بعض المناطق (تفجيراً، يفجر الماء على الأحواض واحداً واحداً).

(*) يحصر البعض لقب (فلاح) على المزارع الذي لا يملك المزرعة التي يفلحها، وهذا أقرب للواقع لأن الغالبية لا يملك المزرعة فلا بد أن المزرعة قد انتقلت بالانقطاع بالرهن، أو أصبحت مملوكة لعشرات الورثة.

تأخير صلاة الظهر

وبدء العمل مبكراً ليس مزعجاً جداً كما قد يبدو لنا الآن لأنهم يذهبون إلى النوم مبكراً لأنه لا يوجد حياة أو أنشطة اجتماعية أو اقتصادية ليلاً فهم غالباً ينتظرون صلاة العشاء بفارغ الصبر (يسمونها صلاة الأخير) أما العشاء فقد كانت تطلق على المغرب. والغالبية منهم لا يمضي ساعتين بعد غروب الشمس الا ويكونوا قد غطوا في نوم عميق جداً يحسدهم عليه كثير من رجال المال والأعمال والسياسة في الوقت الحاضر. فإن كان الوقت شتاء فليله طويل وسيأخذ الشخص نصيبه كاملاً من النوم قبل أن تحين ساعة العمل، وإن كان الوقت صيفاً فالغالب إنهم يأخذون قسطاً كبيراً من النوم نهاراً، قبل الظهر بوقت طويل، **ويؤخرون صلاة الظهر بأكثر من ساعة بعد دخول الوقت.** فالسواني والأعمال الأخرى في المزرعة تتوقف تقريباً حوالي الساعة العاشرة أو التاسعة صباحاً، يتلوها وقت الغداء ثم القيلولة إلى ما بعد دخول وقت صلاة الظهر بساعة أو أكثر.

وبعد صلاة الظهر المتأخرة تبدأ الحياة تدب مرة أخرى وتستمر حتى الغروب، فلا عمل للمزارع بعد الغروب، فلا كهرباء من ناحية، ومن ناحية أخرى، ساعات العمل التي تم القيام بها لا تحتمل المزيد. والجدير بالذكر أن السلطات لا تتدخل في تحديد ساعة أداء الصلاة، وليس كما يحدث في الوقت الحاضر، تحدد الحكومة لحظة أداء الصلاة عند دخول الوقت مباشرة، حتى أصبح أكثر الناس يخلط بين دخول الوقت الشرعي للصلاة (كفترة قصيرة جداً) وهو الوقت الرسمي (الحكومي) ووقت الصلاة الشرعي الواسع.

هذا في الظروف العادية أما في الأوقات التي لها خصوصية محددة كفترة "الشربة" (قبيل نضج سنابل القمح) التي يحتاج فيها القمح إلى سقي مكثف لمدة

تقرب من الشهر أو وقت درس الحب (الدياسة) وذري الحب لتنقيته من التبين السفا (القشور) والرمل وغيرها. أو جداد النخل، أو أيام الختام (حرث الأرض) وكثافة العمل، كل هذه الأوقات تخرج عن الروتين العادي للعمل الزراعي من حيث كمية العمل وعدد العاملين وما يلزمها من تجهيزات واستعدادات مختلفة بما فيها إعداد الطعام لكل هؤلاء. وتتميز طبيعة معظم شؤون الحياة بإيقاع سريع مختلف تماماً عن إيقاع الأيام العادية.

أهل السوق وقهوة بعد الظهر

أما غير المزارعين ومنهم أهل السوق فهؤلاء يتجهون للسوق صباحاً إلى وقت الظهر في الشتاء، وقبل الظهر بوقت طويل في الصيف. ولا تفتح الدكاكين بعد صلاة الظهر مطلقاً، في جميع فصول السنة، إلا بعد صلاة العصر إلى المغرب فقط، أما بعد صلاة الظهر التي تؤدى عند دخول وقتها في الشتاء وبتأخير أكثر من ساعة في وقت الصيف، فإن فترة (بين الصلاتين)(*) تعتبر فترة تهيئة واستعداد لعمل ما بعد العصر وهي فترة القهوة (قد يصحبها شيء من التمر يسمونه هَجور لأنه يكون وقت الهجير، أي شدة الحر) ولكن الفترة كلها يقضيها الرجال في القهوة (الغرفة الخاصة بالقهوة) وهي في حدود ساعتين تقريباً. وهي فترة يتم فيها الرجال مختلف الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية، ففيها يمكن تكريم شخص بدعوته لقهوة بعد الظهر إذا كان الأمر لا يرقى إلى إقامة وليمة أو حتى دعوته للغداء. وقهوة بعد الظهر بسبب طولها تتم مرتين متصلتين دون انقطاع. فيقال قهوة بعد الظهر الأوله (الأولى) وقهوة بعد الظهر الثانية

(*) إذا قال أحد "بين الصلاتين" فإن الجميع يفهمون أنه يقصد ما بين الظهر والعصر كما يقولون "بين العشاويين" أي ما بين المغرب والعشاء.

وهي متصلة بالأولى والسبب هو طول الفترة (بعد صلاة الظهر إلى دخول وقت العصر). ويحدث كثيراً أن يكون الشخص مدعواً للقهوة الأولى في مكان وللقهوة الثانية في مكان آخر.

وفي هذه الفترة تتم لقاءات عمل لمن أراد الحديث في موضوع زواج أو حل مشكلة من أي نوع أو الاتفاق علـى أمر مالي أو مـجرد صداقة أو قرابة أو صلة رحم أو غيرها.

ووقت القهوة هو وقت متعة وراحة، ويقوم صاحب المنزل بإعداد القهوة بنفسه أمام الضيوف أو الزوار بدءاً من إشعال النار وحمس القهوة وإكمال العملية وهـم يتحدثون في مـختلف الأمور المهمة وغير المهمة، حسب الظروف، وإذا كان الضيف مدعواً دعوة خاصة فإن الشروع في إعداد القهوة يجب أن يكون أمامه دفعاً لأي شك في أن تكون هذه القهوة هي بقية من قهوة سابقة وليست معدة له خصيصاً، وكذلك يتم الحديث والأخذ والعطاء فـي مختلف الأمور أثناء عملية إعداد القهوة. وجلسة القهوة هذه غالباً مقصورة على الرجال وربما كبار الصبيان. وتعتبر المعاميل (الأدوات الخاصة بالقهوة، دلال، وأباريق، ومـحماسة ونجر وفناجيل) مـن أهم علامات الرجولة والاستقلال. وهي من أول الأشياء التي يسعى الشخص إلى إضافتها إلى تجهيزات منزله المستقل.

ويلاحظ أن حرارة الصيف الشديدة ليس لها أي تأثير في تغيير عادة القهوة بعد الظهر ولا مكانها داخل غرفة القهوة أو "المجلس" ويتقبلون الحر والعرق باعتباره امراً صحياً.

وعند أذان العصر يهرع جميع الناس مزارعين وحرفيين وتجاراً مسرعين لأداء الصلاة لكي يستأنفوا عملهم وإنجاز أشغالهم قبل المغرب (العشاء) لأن ما بعد

المغرب تكون جميع الأنشطة تقريباً هي أنشطة أسرية غالباً داخل المنزل، ففيها يتناول العشاء غالبية كبيرة من الناس، وهو في الغالب مرقوق متشابه المكونات لدى الأغلبية الساحقة من الناس (قرصان القمح البر، قرع، بصل وقطعة من الودك "شحم حيواني مذاب ناصع البياض")، يضاف إليه مسحوق الفلفل الأحمر الحار لجعله شهياً. ولا يعرف الطماطم أو معجونها (الصلصة) في ذلك الوقت. هذا هو العشاء المعتاد لمعظم القادرين من الناس في غالبية الأيام.

وفي الحالات القليلة التي يكون هناك لحمة تطبخ مع المرقوق فهذه تعتبر مناسبة استثنائية لكثير جداً من الناس. ولذلك فإن بعض الناس يتعمدون جعل العشاء مطازيز إذا توفرت اللحمة. والمطازيز لا تختلف عن المرقوق من حيث المكونات أو القيمة الغذائية إلا أن المطازيز يأخذ وقتاً كثيراً في إعداده وفي قياساته ووقت بقائه على النار لكي يكون في الحالة المطلوبة (غير متلبك وغير متلاصق). وقد التصق ذكر المطازيز مع ذكر اللحمة إذ أنه مقترن غالباً بوجود "الغالية" النادرة (اللحمة).

واللحمة ضيف عزيز نادر الزيارة، لذا فهي تجد ترحيباً حاراً من الجميع، فمجرد معرفة أن اللحمة ستكون حاضرة في عشاء هذا اليوم(*) يكون المزاج العام لأفراد الأسرة يتميز بالبشر والسرور حتى أنه قد يظهر على التصرفات والسلوك مع الآخرين، وهذا يظهر غالباً لدى الصغار. ولكن حتى الكبار قد يعبرون عن مشاعرهم بالسرور والسعادة، وقد صورها أحد كبار السن بملاحظة ابداها لابنه البار. والحكاية معروفة لدى الكثيرين فروايتها متواترة.

(*) المتعارف عليه في تلك الأيام أن اللحمة تطبخ في العشاء وليس في الغداء إذ أن الغداء الكامل تمر ولبن لمن يجده.

هذا شخص كان له باع طويل في ممارسة "القصابة" وكان من أنشط أهل السوق في تدبير شراكات لذبح بعير بين آونة وأخرى. وعندما تقدمت به السن وترك العمل تولى أحد أبنائه هذه المهنة. وكان هذا الابن باراً بوالده، فقد كان يتعمد أداء صلاة المغرب مع والده في المسجد إذا كان ذلك اليوم من الأيام التي يكونون قد ذبحوا بعيراً، ثم يهمس في أذن والده قبل أن يخرجوا من المسجد قائلاً "تعش معنا يبه (يا أبي) "فيفهم الأب فوراً أن في العشاء لحمة، وربما يفهم بمجرد أن يرى ابنه قد صلى معهم المغرب. وبعد أن تكررت هذه العادة كل عشرة أيام أو كل أسبوعين حسب الظروف قال الوالد لابنه "يا بني ما دمت على يقين من الصباح الباكر أننا سنتعشى لحمة، فلماذا لا تخبرني مبكراً لكي أفرح وألتذ وأسعد طوال يومي. وهذا ما يراه الاقتصاديون من باب تعظيم المنفعة دون تكلفة إضافية. وقد كان تعبيراً شائعاً لدى الأطفال أن يتهم الصبي الذي يتجاوز في سلوكه بأن يقوم بالاعتداء على الآخرين أو يمارس شقاوات غير معتادة أن يقال له "لماذا تفعل هذا، هل عشاكم الليلة فيه لحمة"، هذا من باب وصفه بالسلوك الذي ينم عن الغطرسة والغرور والفرح الغامر الزائد عن الحد، (قَط بعشاكم قِنزَة لحَمِة).

ويلاحظ أن شوارع البلدة تكون شبه خالية تماماً بعد صلاة العشاء (المغرب) إلى دخول وقت صلاة العشاء (الأخير) وكأن هناك حظر تجول. ويمكن أن يكون السبب هو انعدام أي نوع من الإضاءة الصناعية في الشوارع والمنازل وكل مكان آخر، وهو ما جعل الليل مظلماً كئيباً موحشاً مهيباً، فكانت أحسن طريقة لتجنبه هو النوم في أمن المساكن والأهل والجيران.

ووحشة الليل مصدرها الأساسي هو الظلمة، فتحاك الأساطير عن تحركات الجن وعن الحيوانات التي تتصور بها الجن وعن الأشرار من البشر وغير الأسوياء

أو فاقدي العقل. وقليلاً ما تخرج المرأة أو صغار السن بمفردها لمسافات تتجاوز الجيران القريبين.

تنظيم الوقت

ويلاحظ أن تنظيم الوقت لديهم في ذلك الزمان كانت تمليه طبيعة النشاط الزراعي لما للزراعة من دور كبير في حياة أكثر الناس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عدم وجود إضاءة تسمح بالعمل ليلاً والانتقال المريح، والعمل في الدكاكين والأنشطة الاجتماعية الأخرى.

ومن هذا مثلاً أداء الصلوات في الأوقات المناسبة ضمن الوقت الشرعي. فصلاة الفجر تؤدى في أول وقتها لتدارك الساعات الباردة من النهار والراحة مبكراً عندما تشتد الحرارة في الصيف، أما في الشتاء فهو كذلك تؤدى صلاة الفجر أول وقتها لتدارك ضوء النهار لقصر النهار. أما صلاة الظهر فتؤدى في أول وقتها في الشتاء، فلا حاجة كبيرة للقيلولة ولتدارك بقية النهار القصير. ولكن صلاة الظهر في الصيف تؤخر لأكثر من ساعة بعد دخول الوقت لفوائد عملية، منها انكسار شدة الهجير (صكّة عُمَيّ)، ولقصر الليل فيحتاج العامل والفلاح والتاجر وغيرهم إلى فترة راحة، من طول ساعات النهار من ناحية، ومن ناحية أخرى إجهاد العمل في الجو الحار. أما صلاة العصر فهي دائماً تؤدى في أول وقتها لاستئناف العمل بعدها مباشرة لتدارك ما بقي من النهار قبل حلول الظلام وتوقف الأعمال. وأما المغرب فهو بداية الفترة الانتقالية من النهار إلى الليل وتغير طبيعة الأعمال، فلا أعمال في الزراعة ولا في التجارة ولا في البناء ولا في المشاغل الحرفية. ولذلك فالناس تؤدي صلاة العشاء (المغرب) في أول وقتها ليتمكنوا من تناول وجبة العشاء، وهي الوجبة الرئيسية، قبل

دخول وقت صلاة الأخير (العشاء الأخير) التي ينتظرها معظمهم وهو يدافع النوم ويغالب النعاس. ومن الملاحظات أيضاً أن الأذان الأول لصلاة الجمعة لا يلزم أحداً بالتوقف عن العمل ولذلك تستمر الأعمال ولا تتوقف إلا عند دخول الخطيب والأذان الثاني وليس كما يحدث الآن.

من هذا نلاحظ أن مجتمع ذلك الزمان رغم أنه مجتمع أمي محدود المعرفة بكل شيء خارج ممارسته اليومية بما في ذلك فهمه للدين، فهو يفهم العدل والظلم والحلال والحرام وطبائع الأمور التي تهمه، ولأن أوقات الصلاة مقدسة لديه فقد حرص على أن يعرف أن أوقات الصلوات المفروضة هي مدة واسعة يختار منها المسلمون ما يناسب حاجاتهم وسير حياتهم ومعاشهم فقد وسع الله، جل شأنه، عليهم فقاموا بترتيب أوقات صلواتهم المفروضة بما يتناسب مع حاجاتهم المعيشية دون خروج عن الوقت الشرعي. فهم يعرفون أن وقت الظهر من زوال الشمس إلى دخول وقت العصر وكله وقت اختيار، بينما نجد في مجتمعنا الحاضر كثيراً من المتعلمين الجامعيين لا يدرك أن وقت الصلاة فترة واسعة وليس مجرد مدة زمنية قصيرة محدودة جداً عند دخول الوقت.

وبالنسبة للمواطن العادي غير المرتبط بالعمل الزراعي المباشر وليس من أهل السوق (صاحب دكان تجاري أو حرفي)، فإن رب الأسرة يبدأ يومه بعد أن يؤدي صلاة الصبح بما تيسر له من قهوة، إن وجدت، وما تيسر من طعام إفطار (يسمونه فكوك الريق) شيء من تمر أو عصيدة الذرة أو قرص من بر ربما يكون مخلوطاً بالشعير لزيادة كميته، وقد يكون شعيراً خالصاً وقد يكون عصيدة مليساء، وهذه من أردأ أنواع الحبوب ومشهورة بأن تناولها غير مخلوطة بشيء من ذرة أو دخن فإنها تسبب عسراً وألماً عند التبول لجميع الناس ذكوراً وإناثاً.

هذا المواطن يخرج من بيته في مشوار يمكن تشبيهه بالتسكع المحايد غير المؤذي لأحد، فإما أن يذهب للسوق دون حاجة، أو يجلس مع آخر مثله عاطل عن العمل، أو أن يزور قريباً أو نسيباً أو صديقاً في بيت أو مزرعة. كل هذا انتظاراً لفرج رب العالمين، أن يطلبه أحد للعمل حسب ما هو معروف به (إن كان قد عمل في البناء، أو النقل، أو في بعض الأعمال الزراعية أو غيرها). ويمكن قول نفس الشيء عن ربة البيت تبدأ يومها مثل أي ربة بيت في العالم بتهيئة الطعام للأسرة وحلب المنيحة، إن وجدت، بقرة أو عنزة أو شاة. ويطلق عليها منيحة حتى وهي مملوكة لصاحبها. وقد يكون أصل التسمية أن العرب درجوا على أن يعطوا (يمنحوا) فقراءهم من الأقارب أو الأصدقاء أو الجيران أو المعارف منيحة ينتفع بحليبها فترة الوفرة ويعيدها إلى أهلها بعد ذلك. بعد ذلك تقوم ربة البيت ببقية الأعمال المعتادة (جلب الماء من الحسو، جلب ماء شرب من الحابوط، غسل الأواني المنزلية (قدر وصحن ومغرفة فقط) غالباً في الحابوط.

وأثناء هذه الأعمال اليومية تلتقي ببعض ربات البيوت من الجيران في الحسو أو الحابوط أو في الطريق وتتعاون ربات البيوت على جذب (زَعب) (بسكون العين والباء) الماء من البئر ومساعدتها على رفع قدر الماء على راسها، وقد تحتاج الواحدة منهن إلى أن تقف إحداهن لتسترها إن كانت تريد الاغتسال بأن تدير لها ظهرها فاتحة أجنحة ثوبها الواسع (ثوب صلاة يشبه الثياب التي يلبسها الرجال في غرب أفريقيا نيجيريا وموريتانيا) عريض جداً وبأكمام مفتوحة فتحات واسعة جداً لدرجة أنها قد لا يصح تسميتها أكمام. والمكان المعد للاغتسال في الحسو يسمونه (مسبح) وهو زاوية مستورة من جميع الجهات ما عدا مدخلها فليس له باب وهو ليس مواجهاً بل منزوٍ ولا يمكن لأحد رؤية من بداخل (المسبح) الا من يسعى متعمداً لذلك. ولكن تحفظاً واحتياطاً تطلب المرأة من أحد النساء أن تقف ناشرة جوانب ثوبها لتسترها. وفي مشوار جلب الماء

يدور الحديث المعتاد بين ربات البيوت في كل شؤون الحياة، أخبار، مزاح، نميمة ... الخ. بعد ذلك تنصرف إلى عملها إن كانت ممن يقوم ببعض الأعمال في المزارع أو نقل الماء لعمال البناء أو أعمال غير منتظمة أو إنها لا تعمل غير رعاية بيتها وأسرتها.

الأطفال

مثل كل الأطفال في جميع أنحاء العالم، الحياة بالنسبة إليهم لعب ولهو يطورون فيه مهاراتهم وقدراتهم العقلية والبدنية. وأدوات هذا اللعب واللهو أي شيء تجود به البيئة المحيطة. فالأطفال من أبناء المزارعين يلهون بما حولهم من مياه ومساحات رحبة وأشجار وربما حيوانات، مع ملاحظة أن المجتمع الفقير لا يملك ترف إعطاء الطفولة كامل حقها، فالطفل في المزرعة إن كانت بنتاً فإن المجتمع ينظر إليها على إنها قريباً ستكون "امرأة" في فترة لا تتجاوز منتصف العقد الثاني من عمرها. ولذلك فإنها سوف توجه لتشارك في العمل إلى جانب والدتها وأخواتها والنساء الأخريات من أهل المزرعة، ليس فقط من أجل أن تتحمل نصيبها من عبء العمل اليومي، ولكن أيضاً تهيئة لها لتكون قادرة على أن تصبح ربة بيت في المستقبل القريب، أو عاملة في مزرعة في حال تزوجت من شخص من المزارعين. ولذلك نرى أن طفولة الفتيات من بنات المزارعين في فترة ما قبل النفط تكاد تخلو من فترات اللعب المتوقعة للأطفال، خاصة الألعاب الجماعية مع الأطفال الآخرين.

وبالنسبة للصبيان من أبناء المزارعين فإنهم أيضاً منذ طفولتهم المبكرة يساهمون في بعض الأعمال الخفيفة خاصة تلك التي تكون خارج المزرعة، مزارع أخرى، أو داخل البلدة، أو في السوق. لذا يلاحظ أن أطفال المزارعين لا يتمتعون بنصيب عادل من فترات اللعب. وليس السبب في ذلك ندرة الوقت فقط، ولكن في كثير من الأحيان

غياب إمكانية تجمع أعداد كافية من الأطفال الآخرين للمشاركة في الألعاب. ولذلك يمكن للمراقب أن يرى فرقاً كبيراً بين مفردات الحياة اليومية للفتيان والفتيات في المزارع مقارنة بمثيلتها من الفتيان والفتيات من أهل المساكن، خاصة الصبيان.

أما بالنسبة للفتيات من سكان المنازل فالحال لا تختلف كثيراً عن الصورة العامة التي ينظر فيها إلى الفتاة بشكل عام وأنها قريباً سيطلق عليها امرأة حتى وهي دون الخامسة عشرة، ولذلك يكون تركيز الأهل على دفعها للمساعدة في الأعمال المنزلية في الغالب. وفوق ذلك هي لا تمتلك المساحة الجغرافية التي تعمل أو تتحرك فيها الفتاة في المزرعة فهي أوسع بكثير من المجال الجغرافي المتاح للأنشطة المنزلية اليومية.

أما بالنسبة للصبيان من أبناء أهل المساكن فإنهم يتمتعون بحرية كبيرة في الخروج من المنزل والابتعاد كثيراً دون قلق أو قيود كبيرة من الأهل. يضاف إلى ذلك أن المنازل متلاصقة ويتقابل الأطفال عدد ساعات النهار في الشارع والمسجد وفي كل حركة خارج المنزل. وهذه بيئة ممتازة تتيح للأطفال ممارسة ألعاب جماعية متنوعة من نواح عديدة، ألعاب تناسب مختلف الأعمار، ألعاب تناسب مختلف مستويات القدرات، ألعاب تناسب الأدوات المتاحة في البيئة المحيطة. وحتى عندما لا ينشغل الصبيان باللعب المنظم فإنهم يذهبون إلى مسافات بعيدة في البلدة وفي المزارع وفي الخلاء.

ألعاب الصبيان

والأنشطة والألعاب التي يمارسها الصبيان خارج منازلهم يوجهها ويؤثر عليها، الفترة من النهار، والفترة الموسمية (الصيف، الشتاء، والظروف الخاصة). فمن الأنشطة التي يقضيها الصبيان في الأيام التي يكون فيها الجو حاراً أو معتدلاً الذهاب لصيد الطيور الصغيرة باستخدام (النباطة) وهذا يكون داخل بعض المزارع أو على جوانبها.

لعبة الكعابة "ال تسعابة"

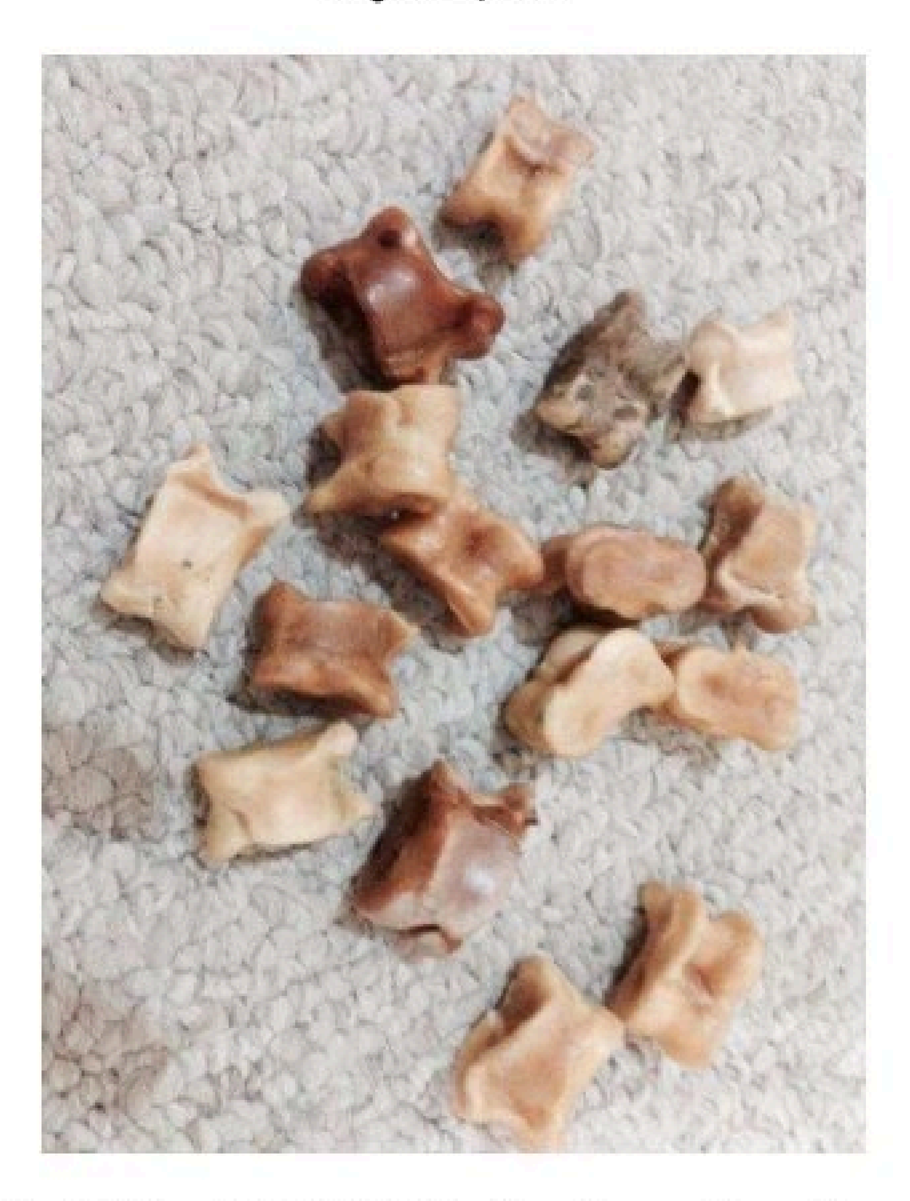
ومن الألعاب الشائعة لعب الكعابة "ال تسعابة"، مفردها كعب "تسعب" وهو عظمة صغيرة بحجم التمرة المتوسطة أو الكبيرة. وهذه العظمة موجودة في القائمة الخلفية لكثير من الثدييات،(*) وهي في المفصل الرابط بين الساق والفخذة. والـ "تسعابة" المقبولة من بين جميع الثدييات تسعابة الغنم (الضان والماعز) فقط، وما عداها فهو إما أكبر من اللازم أو أصغر من اللازم فال تسعب من البعير أو البقرة يعتبر كبيراً جداً ولا يصلح. وتستخدم (ال تسعابة) لأكثر من لعبة، ولكن أهمها وأشهرها هي لعبة "صك ال تسعابة". وهذه اللعبة ليس للحظ أو الصدفة فيها اثر يذكر. وهذه اللعبة تقوم على المهارة والقدرات العالية في دقة التصويب. وليس في هذه اللعبة تعاون، بل إن كل فرد يلعب لمصلحته الخاصة.

تقوم اللعبة بالاتفاق بين صبيين أو أكثر، كل منهم يضع عدداً متفق عليه من ال تسعابة كل منهم يضع عدداً مساوياً لما يضعه الآخرون.

اللعبة تقام في الشوارع والأزقة بين المنازل، ويحدد مكان الدائرة التي توضع فيها ال تسعابة بحيث تتجنب وسط الطريق ولكنها لا تلتصق بالجدار. توضع ال تسعابة في خط مستقيم في وسط الدائرة في اتجاه يتقاطع مع اتجاه الشارع. ويحدد مكان بدء اللعب بحيث يبعد عن الدائرة مسافة تتناسب من أعمار اللاعبين من (٣ – ٤) أمتار وقدراتهم في التصويب، ففي الغالب لا يلعب الطفل إلا مع أقرانه من حيث القدرات.

(*) خاصة الثدييات التي تكون ثنية الركبة إلى الخلف كالماعز والضأن والبقر والإبل والحمير. أما البشر والقرود فإن الركبة تنثني إلى الأمام عند الجلوس ولذلك ليس فيها كعب.

الكعابة المنثورة



صورة رقم (١٨). مجموعة من ال تسعابة وكلها "طِزق" الواحدة "طزقاء"، وكل واحدة منها دسماء (جديدة) وليست طشلاء (قديمة وبها كسور وندوب).

يحدد من يلعب أولاً بأن يقدم كل منهم أحد الكعابة التي معه ويختارها من النوع "المسحّج" بحيث إذا قذف في الهواء ليسقط على الأرض مع كعابة الآخرين أن يسقط واقفاً وليس على أحد أجنابه الثلاثة الباقية (مسح، خرق، زعيبط). والعادة أن أكبر الاحتمالات لسقوط الكعب هي مسح، ثم خرق، ثم الوقوف. لكن الصبيان درجوا على أن تحديد البادئ باللعب هو الصبي الذي يسقط كعبه ويستقر واقفاً. ثم يعاد قذف الكعابة مرة أخرى لتحديد الثاني والثالث وهكذا (نادراً ما يتجاوز عدد اللاعبين أربعة صبيان).

كيفية اللعب

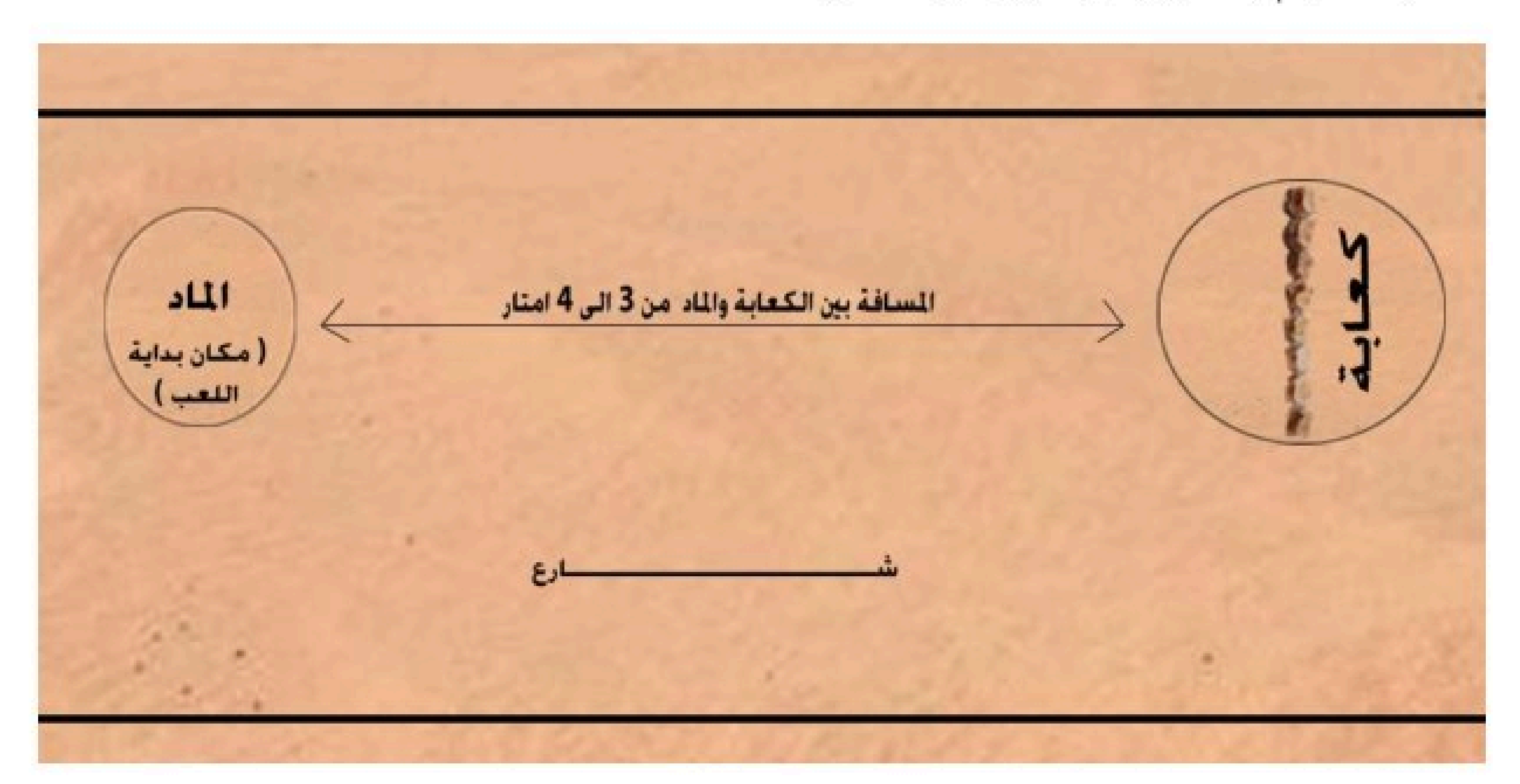
توضع الكعابة على خط مستقيم وسط الدائرة المحددة بدقة فوق جدار صغير من الرمل لا يرتفع أكثر من ثلاثة سنتمترات. وهذه الكعابة يقدمها اللاعبون بالتساوي، كل لاعب يقدم كعباً أو كعبين أو ثلاثة حسب الاتفاق.

يلعب اللاعب الأول من المكان المحدد (الماد) يشبه تحديد مكان الإرسال في لعبة الكرة الطائرة، يحاول ضرب الكعابة "بالصول" بهدف إخراج أكبر عدد ممكن منها من الدائرة، فإن استطاع إخراج شيء منها في تلك الضربة فهو يأخذه ويكون كسباً له، ثم يواصل اللعب من مكان توقف الصول في اللعبة السابقة وليس من مكان البداية، فإن استطاع إخراج شيء منها فإنه يستمر في اللعب حتى يفشل في إخراج شيء منها من الدائرة. وهنا يتحول الدور للاعب الذي يليه في الترتيب، وهكذا حتى تنتهي الكعابة التي في الدائرة. ثم يبدأون لعبة جديدة كالأولى. وقد ينسحب بعضهم لاكتشاف أنه سوف يخسر لا محالة، أو أن يكون قد أفلس وليس لديه كعابة.

هذه اللعبة كما هو ملاحظ تحمل شبهاً كبيراً من لعبة "الكيرم" المعروفة. ويلاحظ أثر العامل الاقتصادي (ضيق ذات اليد) فقد ساهم الفقر في تحوير هذه اللعبة في جعل الأدوات المستخدمة من البيئة من ناحية، ومن ناحية أخرى، ونتيجة لتغير الأدوات يحدث تغيير في طريقة أداء اللعبة. فبدلاً من طاولة الكيرم تستخدم الأرض وهي مجاناً، وبدلاً من حبوب الكيرم تستخدم الكعابه، وهي في الأصل لا قيمة لها (عظم صغير ليس له أي استخدام آخر)(*). هذه العظمة الصغيرة أصبح لها قيمة مادية. وتباع بالنقود وتنخفض أسعارها بعد عيد الأضحى لارتفاع العرض من

(*) لذلك درج أهل القصيم عندما يريدون التعبير عن الشيء الذي لا قيمة له أو يبالغون في التقليل من قيمته يقولون "ما يسوى طزقاء ".

هذه الكعابه ثم ترتفع أسعارها بعد أشهر لتناقص العرض واستهلاك الموجود منها من جانب، ومن جانب آخر، تتركز الكمية المعروضة عند بعض الصبيان البارعين في اللعب لأنهم يكسبون في كثير من الأحيان.



صورة رقم (١٩). الكعابة في الدائرة جاهزة لبدء اللعب.

وتختلف هذه اللعبة عن لعبة الكيرم بأن المكان المحدد لبدء الضربة الأولى يبعد حوالي ثلاثة إلى أربعة أمتار عن الدائرة، أما الضربات الأخرى فيحددها مكان توقف الصول بعد الضربة السابقة. وتوقف الصول قد يكون قريباً وقد يكون بعيداً وباتجاهات مختلفة، وأصعب هذه الاتجاهات هو توقف الصول ملتصقاً بالجدار في جهة غير ملائمة للاعب (أن يقف اللاعب في مكان الصول ملتصقاً بالجدار ويحاول ضرب الكعابة بتسديد دقيق)، وهذا هو أصعب موقف للاعب يسمونها (عَكرَف لَوي) لأن هذه اللعبة تتوقف على مهارة التصويب. وهناك اختلاف آخر عن الكيرم هو الصول المستخدم في اللعب. فهو قد يكون موحداً لجميع اللاعبين (حسب الشروط) وقد يكون كل لاعب يستخدم صوله الخاص.



صورة رقم (٢٠). الصول المرصص.

والصول نوعان أحدها أن يختار اللاعب أكبر كعب يمكن أن يمتلكه (غالباً يكون كعب خروف ضخم) ثم يقوم بخرقه من جهته الداخلية ويوسع خرقه وتجويفه في العمق لكي يصب فيه رصاص مذاب لجعله أثقل ما يمكن، وهو ما يسمى بـ (الصول المرصص). أي محشو بالرصاص. أما الصول من النوع الثاني فهو يكون من الحجارة القوية، غالباً في شكله الطبيعي وحجمه الطبيعي، يختاره الصبي عندما يعثر عليه، ويتدرب عليه ويكون مفضلاً له لكي يلعب به. وهو غالباً من الحجارة البركانية السوداء (موجودة غرب وشمال غرب البكيرية)، أو من نوع حجارة المرو البيضاء. ويحدث كثيراً أن يرفض اللاعبون الآخرون أن يستخدم أحد اللاعبين صوله الخاص بعد أن يكتشفوا أنه يحدث فرقاً بيناً في كفاءته (يقولون صولك هذا قارٍ بايدك).

وتتميز هذه اللعبة بانتفاء أي درجة من الخطورة. فهي في مكان آمن (بين المنازل)، وليس في أدائها أي نوع من العنف أو الخطر، وأدواتها خالية من أي خطر، والنجاح والفشل فيها مقصور على خسارة أو كسب عدد من الكعابة فقط. وحتى في حالة وقوع الظلم من أحد اللاعبين على الآخرين تنتهي المسألة على كسب أو خسارة عدد من الكعابة.

وهناك تقليد ملازم لهذه اللعبة وهو إذا أقبل صبي أكبر من جميع اللاعبين فإنهم مضطرون إلى أن يقولوا "مشَوّر" أي بعد شورك أو بعد أذنك، قول هذه العبارة تمنعه "عرفاً" من أن ينهب جميع الكعابة الموجودة على الأرض. فإن هم غفلوا أو خاتلهم ووصل إلى الكعابه قبل أن يقولوا له هذه العبارة فهو ينقض عليها وينهبها ويقول أنا ما "شِورت" (أي لم استشر).

والكعابة عموماً غالية على الصبيان ويشترونها بالنقود ويحملونها في جيوبهم في كثير من الأحيان، وإذا صادفت المرأة أو البنت أن وقع في يدها كعب في وليمة أو مناسبة فإنها تسارع إلى أخذه وإهدائه إلى الصبي إن كان أبناً أو أخاً وهو يفرح بذلك كثيراً. وهذه اللعبة (الكعابة) مثل كثير من الألعاب الجماعية الأخرى منتشرة لدى الصبيان من أهل المساكن دون صبيان أهل المزارع، وهذه اللعبة لا تلعب في الشتاء.

ومن الأنشطة الشائعة لدى الصبيان في البكيرية خاصة في فصل الصيف السباحة في الآبار. وهذا النشاط يشكل جزءاً هاماً من حياة غالبية الصبيان في البكيرية بشكل ملفت للنظر مقارنة بكثير من القرى والمدن المجاورة. وهذا النشاط يمارسه الصبيان من سن ٨ سنوات إلى سن الرجولة.

ويذهب الصبيان إلى الآبار بعد أن تتوقف السواني (في حدود العاشرة صباحاً)، خاصة الآبار التي يكون الفلاح فيها من النوع المتسامح بعض الشيء، أو الحكيم بعض الشيء، لأنه قد يخسر الكثير إن دخل في حرب مع هؤلاء المراهقين، خاصة إذا لم يكن له أولاد كبار يمكن أن يتصدوا للصبيان. وقد يجد الصبيان آباراً غير مزروعة. ولكن بصورة عامة تعتبر السباحة الصيفية في الآبار ظاهرة بارزة الوضوح في البكيرية ومنتشرة على نطاق واسع جداً ولم تبدأ بالتراجع إلا في ثمانينات القرن الهجري الماضي.

وربما كان السبب في ارتفاع نسبة الصبيان الذين يمارسون السباحة في الآبار هو: ١) الفراغ، ٢) فترة السباحة من النهار صيفاً لا تتعارض مع أي نشاط آخر لا من جانب الفلاح ولا من جانب الصبيان والتزاماتهم لأهلهم (إن كان هناك التزام)، ٣) كون جميع منازل البكيرية متلاصقة وبالتالي كثافة عدد الصبيان في المكان الواحد، ٤) قرب المزارع من المنازل فهي متداخلة ومتلاصقة، ٥) وجود آبار كثيرة جداً فتكون الخيارات والبدائل متاحة دائماً، ٦) هذا النشاط قد يشارك فيه أبناء المزارعين لأنهم يجدون فيه متعة كبيرة مع بقية الصبيان. والعامل شديد الجاذبية للبحث عن السباحة هو التجمع، فبدون تجمع عدد من الصبيان تكون السباحة غير جذابة.

ونشاط الصبيان في السباحة في الآبار لا يخلو من التنافس والتحدي في الغطس من أعلى البئر وبطرق متعددة، والمسابقة في السرعة في الصعود، والهبوط بأوضاع مختلفة أهمها المراكيز (القفز في الماء من مكان عال جداً مع إحداث أقل قدر ممكن من رشق الماء). واللعب داخل الماء وفوق الماء وتحت الماء (خاصة لعبة جِيتكم عُميّ). وكثيرة هي المهارات التي يظهر الصبيان فيها تحدياتهم لبعضهم. وهذا يتوقف أيضاً على نوع البئر وسعتها وطريقة بنائها.

ويلاحظ أن نسبة الشباب في البكيرية (في ذلك الوقت) الذين يجيدون السباحة أكبر بكثير من غيرهم من البلدات الأخرى. وكان هذا يلاحظ عندما بدأت فرص العمل تظهر في الرياض ومدن المنطقة الغربية وكذلك بعد ظهور فرص العمل في المنطقة الشرقية مع ظهور النفط وتجمعات العمال من جميع أنحاء المملكة، من البدو والحضر. كان الشباب من البكيرية يستغربون أن يقول شاب في العشرين من عمره وهو من الحضر من إحدى بلدات أو قرى نجد (أنا لا أعرف السباحة). ولذلك يعتقدون على الفور أنه بدوي، والبدوي معذور عندما لا يجيد السباحة فهو نادراً ما يرى الماء إلا في قربة أو في إناء صغير.

وهناك آبار مشهورة عند أهالي البكيرية ولها تاريخ وذكريات جميلة لدى كثير من كبار السن (في الوقت الحاضر) من أهالي البكيرية. ومن هذه الآبار قليب الرواجح وهي كبيرة جداً، وقليب السلطان فهي كبيرة وفي وسط البكيرية، ومن أشهر الآبار في الشمال قليب علي الفائز، وهذه يميزها أنها واسعة جداً وعميقة جداً وخارج البلدة قليلاً وليس فيها فلاح. فقد كانت في وقتها مثالية جداً. وقد أبقت بلدية البكيرية – مشكورة – هذه الآبار محميات تراثية مسيجة. ويندر أن يعود شيخ (سناً وليس علماً) قضى صباه وشبابه في البكيرية، ثم هاجر طلباً للرزق لإحدى مناطق المملكة، ولا يكون من أهم المعالم التي يحاول زيارتها هذه الآبار، فلا بد أن يكون له ذكريات كثيرة ومتنوعة مع الأشخاص ومع لحظات البداية في السباحة، أو مشاهدة مناظر خطرة كسقوط أحد أقرانه . وسيل الذكريات أمر طبيعي وأثرها العاطفي معروف لكل من عاد إلى مرابع صباه. يقول مجنون ليلى عندما عاد إلى مرابع صباه عند جبل التوباد:

وأجشهت للتوباد حين رأيته ** وهلل للرحمن حين رأني

ويلاحظ أن موقف الأهالي من ذهاب أطفالهم إلى الآبار للسباحة هو موقف الموافقة والتشجيع والمبادرة بتعليم صغار الأطفال السباحة. وكانوا يدفعون مبلغاً لمن يعلم ابنهم السباحة مثل ما يمكن أن يدفعوا لمن يعلم ابنهم القراءة والكتابة.

والسباحة لا تحتاج إلى أي نوع من الأدوات أو الملابس، فإذا وجدت البئر فهذا هو كل ما في الأمر، فلا حاجة إلى ملابس فكلهم (تقريباً) عراة تماماً.

ويلاحظ أن إمكانية أن تتعلم البنات السباحة معدومة تماماً ولا يخطر ببال أحد. وتعليم السباحة لا يستغرق أكثر من ثلاثة أيام (أي ثلاث حصص)، وفيه يأخذ المعلم (الأخ الأكبر أو الوالد، أو أحد الأقارب) غترة الطفل ويبرمها ويربطها في وسط الطفل ويربط حبلاً طويلاً بطرف الغترة. وفي البداية يشرح له نوع حركات دفع

الماء بالقدمين وباليدين ثم يقذفه في الماء ويساعده برفعه شداً وإرخاءً حتى يكتشف الطفل طبيعياً كيف يطفو فوق الماء بحركاته الذاتية. وهنا يقولون (مَنَعَ الماء) أي استطاع الطفو فوق الماء دون مساعدة. من هنا تتكون الثقة بالنفس لدى الطفل ويبدأ يقلد الآخرين في بقية المهارات.

وقد تراجع الاهتمام بالسباحة في الآبار في الثمانينيات من القرن الهجري الماضي ربما لظهور كثير من البدائل لقضاء أوقات الفراغ (الكرة، والسيكل مثلاً) وكذلك انتشار المكائن في الآبار مما يجعل المزارعين يمنعون الصبيان خشية التخريب المتعمد وغير المتعمد. كما أن المكائن القديمة تأخذ حيزاً كبيراً من البئر في كثير من الأحيان.

وهنا نلاحظ دور التطورات الاقتصادية في تغير الأنشطة والعادات (في هذه الحالة ظهور البدائل: الكرة، والسياكل، برك السباحة، ظهور المكائن وغير ذلك من البدائل) وكلها نتائج مباشرة للتطورات الاقتصادية.

لعبة الحِدِل (*)

هناك ألعاب كثيرة منتشرة في جميع أنحاء العالم يمكن ملاحظة أنها تشترك مع ألعاب أخرى في بلدان أخرى في بعض الملامح الأساسية مما يوحي بأنها قد تطورت عن أصل واحد في بلد واحد وانتشرت إلى بقية أنحاء العالم.

(*) في اعتقادي أن لعبة الحدل تحتاج الى كتاب خاص لشرحها بصورة كاملة من حيث القوانين والضوابط وكذلك الصور اللازمة لإيضاح مختلف الأوضاع والحركات ومراحل اللعب. وقد يكون تصويرها بالفيديو هو الحل الأمثل ولكن سيتم عرضها هنا عرضاً مختصراً رغم أنه سوف يبدو طويلاً.

وقد تعرض كثير من هذه الألعاب إلى تطورات مختلفة، في طريقة أدائها وفي بعض أدواتها وقوانينها.

والتطورات الكبيرة التي تلحق بهذه الألعاب تفرضها ظروف اقتصادية (سلباً أو إيجاباً)، بمعنى أن يكون التطوير نحو التقليص والاختصار والتبسيط أو نحو التوسع والإضافات والتعقيد. وقد تساعد التطورات التكنولوجية على إحداث بعض التغييرات، وقد يحدث تغيرات في اللعبة لدواع ثقافية في كل بلد، وقد يلعب المناخ والتضاريس دوراً في إدخال بعض الخصوصيات المحلية على اللعبة. ويمكن ملاحظة تطور لعبة كرة القدم الأمريكية عن لعبة الرقبي البريطانية كأقرب مثال، ويمكن ملاحظة بعض التشابه في بعض أجزاء لعبة البيس بول الأمريكية مع لعبة الكركت المنتشرة في بريطانيا ومستعمراتها السابقة. ويمكن ملاحظة أن كثيراً من الألعاب الصغيرة والبسيطة منتشرة في جميع أنحاء العالم والثقافات، ولكل بلد له نسخته الخاصة التي تطورت ربما بصورة مستقلة أو ربما انتقلت وجرى عليها التغير عبر الزمن لبعض الأسباب المذكورة في السطور السابقة.

ولعبة الحِدِل ربما تكون مبادئها الأساسية قد استلهمت من لعبة الكركت المنتشرة في المستعمرات البريطانية (الهند وجنوب أفريقيا وباكستان)(*) ولعبة الكركت تشترك مع البيس بول المنتشرة في الأمريكيتين في بعض الأساسيات. وقد يكون لوجود أو عدم وجود الأدوات المناسبة هو ما يفرض التحوير والتطوير.

(*) يلاحظ في مدينة الرياض وغيرها خاصة صباح يوم الجمعة كثير من الهنود والباكستانيين في الأراضي البيضاء داخل المدينة، يشكلون فِرقاً كثيرة يلعبون الكريكت وهذا المنظر يذكرني بانتشار كثير من فِرق الصبيان في أطراف البكيرية على طول الجانب الغربي للبلدة يلعبون الحِدل في الشتاء فقط من قبل صلاة العصر الى المغرب في ايام الدراسة وطوال يوم الجمعة.

والتغيير ليس بالضرورة نحو التقدم والتعقيد وإدخال التقنيات، بل ربما إلى التبسيط وملاءمة الواقع. ففي البيس بول، وفي الكركت، وفي الحدل، هناك هدف يراد النيل منه أو الوصول إليه بطرق محددة. وهناك طرف يدافع عنه ويحميه ويمنع محاولات الوصول إليه أو النيل منه. لكن الأدوات والتقنيات والضوابط والممارسات تختلف اختلافات كبيرة حتى تبدو كل لعبة من اللعبات الثلاث مستقلة ولا علاقة لها بالبقية. وتعتبر لعبة الحدل أبسط هذه الألعاب الثلاث على الإطلاق من حيث الأدوات اللازمة لهذه اللعبة كما يتضح في التفصيل التالي:

لا تتطلب لعبة الحدل مستلزمات أو أدوات كثيرة. فهي أولاً لعبة شتوية حصراً تتم ممارستها خارج البلدة (على أطرافها)، وتلعب على أرض متوسطة من حيث القساوة والرخاوة، فهي لا تصلح على الأرض الرملية الرخوة لأنها تحتاج إلى سرعة الركض معظم وقت اللعب، وهي لا تصلح في أرض وعرة أو قاعاً قاسياً خشناً يمكن أن تتسبب بجروح عند السقوط أو الأضرار بالأقدام الحافية.

واللعبة لا تحتاج إلى ملابس خاصة فثياب الصبيان في الغالب هي لجميع الأغراض، النوم، واللعب، والعمل، لا فرق، وهذا ينطبق على البالغين إلى حد كبير. أما الأدوات اللازمة فهي بسيطة جداً وهي:

(١) كومة رمل على شكل مخروطي ارتفاعه من (٤٠ – ٥٠) سم، وقطر دائرة قاعدته بحدود (٦٠ – ٧٥) سم. ويغرز فوق رأس المخروط بعّة أو اثنتين للاحتياط ولكي يتم العثور عليها بسهولة عند الحاجة لأن كسر البعة ليس مستبعداً لما تتعرض له من ضرب طوال اللعبة، فوظيفتها الأساسية أنها تضرب لأغراض مختلفة. ووظيفتها هنا أكثر من وظيفة الكرة في لعبة الكركت أو البيسبول.



صورة رقم (٢١). زبرة الحِدِل والعصا والبعّة (وهي مجموع أدوات لعبة الحدل).

(٢) والبعّة ركن أساسي من أدوات اللعبة ولا يوجد شيء يمكن أن يحل محلها إلا بعة أخرى، وهي قطعة مستقيمة من أغصان الأثل اليابس طولها بحدود ١٥ سم وسمكها مقارب لسمك العصا.

(٣) العصا غصن مستقيم من أغصان الأثل اليابس ولا يصلح للعبة الحدل إلا الأثل نظراً لصلابته وقوة تحمله. أما سمك العصا وطوله فهو يتناسب مع طول اللاعب وقوته، وسمك العصا متناسب مع طوله. وكل صبي يحضر عصاه معه وهو الذي يختار طوله وسماكته، ويعتبر الطول المناسب للعصا من الأرض إلى منتصف الفخذ تقريباً، ويفضل أن يكون وزنه يميل إلى الثقل أكثر من ميله إلى الخفة.

(٤) الملعب يكون على أرض مستوية متوسطة بين الرخاوة والخشونة ويخطط على شكل مثلث تقريباً أو قطاع من دائرة رأسه (الزبرة) وهي كومة الرمل المخروطية ويتسع كلما ابتعدنا عن الزبرة ويكون محدداً بخطين على الرمل يسمى كل منها الجَنح، بمعنى أن ما هو خارج الخط يعتبر جنوحاً عن اللعب السليم ويكون باطلاً وتعاد اللعبة، ولاحد لأقصاه. وينتشر اللاعبون (المتلقون) في هذه المساحة، ويتحدد بعدهم وقربهم من مصدر اللعب (بجوار الزبرة)، حسب توقعاتهم بقدرات اللاعب الذي يلعب البعة نحوهم. وهناك خط فاصل بين اللاعب والمتلقين من الفريق الآخر، وهذا الخط يسمى القطش. والقطش يحدد صحة اللعبة أو عدم صحتها من حيث الحد الأدنى من المسافة التي قطعتها البعة نحو اللاعبين. ويبعد القطش عن الزبرة حوالي ثلاثة أمتار، ولا يجوز للاعب أن يتخطاه أثناء إرساله البعة للمتلقين، ولا يجوز للمتلقين تجاوزه نحو الزبرة لصد البعّة. وإن سقطت البعة دون أن تجتاز القطش عندما يلعبها اللاعب فإنها تسمى (بثة) وللاعب الحق أن يعيد اللعبة مرة أخرى.

وتقوم اللعبة على فريقين بحد أدنى لاعب واحد في كل فريق، ويمكن أن يختلف عدد أفراد أحد الفريقين عن الآخر بحسب قدرات اللاعبين فيمكن أن يكون واحد ضد ثلاثة أو أثنين ضد أثنين أو ثلاثة ضد ثلاثة أو واحد ضد أربعة. ويتم هذا بالاتفاق قبل بدء اللعب وكذلك الاتفاق على أي الفريقين يبدأ اللعب. وكذلك يتم الاتفاق على بقية الشروط وهي كثيرة جداً، منها تحديد الرقم المستهدف الذي إذا أكمله الفريق يعتبر فاز بجولة كاملة. ويستحق بها أن يتحدى الفريق الآخر بتخطي عقبة قطع المسافة التي يفرضها عليه الفريق الفائز بأن يقطعها ركضاً دون تنفس إلا بحدود متفق عليها.

والمسافة لا يحددها الفريق الفائز جزافاً بل تحددها قدراته ومهاراته في (قورعة) البعة بالعصا في الهواء، (قرع البعة بالعصا إلى الأعلى أكبر عدد من القرعات دون أن تسقط)، وبعدد هذه القرعات له أن يضرب البعة بالعصا بكل ما أوتي من قوة باتجاه الخلاء محاولاً تحقيق أطول مسافة ممكنة. ويفعل رفاقه من فريقه نفس الشيء في نفس الاتجاه وتضاف مسافة كل واحد منهم إلى المسافة التي حققها رفاقه. ويتوجب على الفريق المهزوم أن يقطع هذه المسافة كاملة ركضاً بعدد مرات التنفس المحددة سلفاً بالاتفاق. فإن استطاعوا إكمالها ضمن الشروط فإنهم هم يبدأون اللعب في جولة جديدة ويكون الفريق الفائز هو الفريق المتلقي هذه المرة. فإن استطاعوا إكمال الدورة مثل الفريق الأول فعلوا مثلهم وإن عجزوا واستطاع الفريق المتلقي إخراجهم قبل إكمال الدورة (الرقم المستهدف) فإنهم يتحولون إلى متلقين. وعلى الفريق الذي أخرجهم من اللعب أولاً أن يسدد الرصيد الذي سجله الفريق الذي تم إخراجه ثم يبدأ بتسجيل أرقام أو نقاط لصالحه من جديد حتى يصل إلى الرقم المستهدف، وهكذا. وفي حالة عجز الفريق المهزوم عن قطع المسافة حسب شروط التنفس المحددة فإنه يكون لزاماً عليه أن يعود إلى اللعب كمتلق وليس كلاعب، ولكن في هذه الحالة يستطيع أن يطلب فرصة أخرى لقطع مسافة أقل وبشروط (تنفس) أقل، فإن نجح وإلا فهو مخير بأن يعود (الفريق) كمتلقي مرة أخرى أو أن ينسحب أو أن يعودوا للعب وتتغير الشروط أو تشكيلة الفريق.



صورة رقم (٢٢). طريقة مسك العصا لإرسال البعة للمتلقين.

وطريقة اللعب كالتالي:

(١) الفريق الذي يبدأ اللعب يجلس جميع أفراده مسافة آمنه عن الزبرة لا يفعلون شيئاً على الإطلاق ما عدا لاعب واحد هو الذي يلعب.

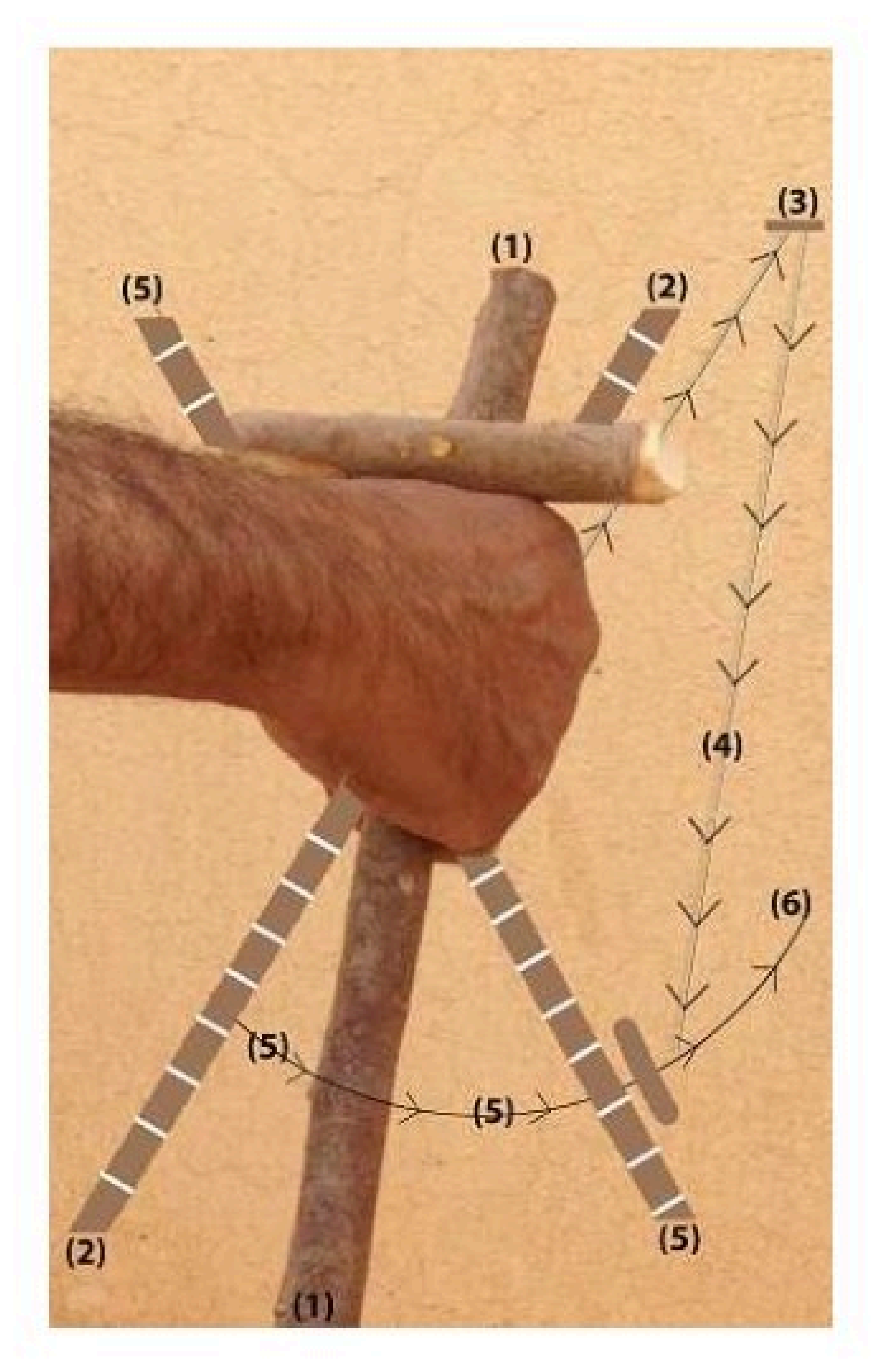
(٢) الفريق المتلقي ينتشر جميع أفراده في الملعب في اتجاه محدد بخطوط الجنح (الخطين الجانبين يعملان كخطي التماس في ملعب كرة القدم، فخارجهما خارج الملعب وداخلهما داخل الملعب).

(٣) يقوم اللاعب من الفريق الذي له اللعب بأن يضرب البعة بالعصى باتجاه اللاعبين من الفريق المتلقي. ولكن سر هذه اللعبة يكمن في طريقة مسك العصا ووضع البعة عليه وقذفها في الهواء ثم ضربها بأسلوب محدد لا يقبل غيره وإلا كانت

اللعبة باطلة، ولذلك تكمن مهارة اللاعب هنا. فالعصا يجب أن يمسك من أعلاه بحيث يخرج جزء منه بحدود ٤ سم إلى الأعلى من دائرة يصنعها الإبهام والسبابة تسندها بقية الأصابع الأخرى. ثم يضع البعة خلف العصا متوسطة فوق عقدتي الإبهام والسبابة مع ظاهر الكف، ثم يقذف البعة قذفاً خفيفاً للأعلى باتجاه الأمام بحيث تسقط أمامه ليعاجلها قبل أن تقترب من الأرض بضربة من أسفل العصا المتأرجحة من الأمام إلى الخلف بمرونة كافية. وهذه الضربة يحتاج الأطفال إلى وقت طويل لإجادتها، ومهارة اللاعبين أغلبها تكمن هنا.

واللاعب يبذل أقصى جهد ليجعلها (البعة) تذهب أبعد ما يمكن لكي يصعب على المتلقين اللحاق بها وإمساكها في الهواء أو ضربها في الهواء، وهذا يعتبر انجازاً كبيراً، ثم إن سقطت على الأرض دون ضربها في الهواء، فإن الفريق المتلقي لديه فرصة أخرى لإماتة هذه اللعبة وهي أن يقذف البعة من مكان وقوعها بقصد ضرب الزبرة واللاعب يتصدى لها مدافعاً عن الزبرة ويحاول إبعادها عن الزبرة أطول مسافة ممكنة شريطة أن لا تقل هذه المسافة عن طول العصا من مكان البعة إلى قاعدة الزبرة، وإلا فإن اللعبة تموت. (هنا الشبه كبير مع لعبة البيس بول، ولعبة الكركت).

وإذا ضربت البعة الزبرة ماتت اللعبة فوراً وإن لم تضرب الزبرة فللاعب الحق بأن يحَدّل ثلاثة حدول كلها ترمي إلى إبعاد البعة عن الزبرة أطول مسافة ممكنة، خاصة إذا كان سوف يقيسها لاحتسابها في النقاط. لأن المسافة لا تحتسب دائماً، فقد تكون هذه المرة لأحياء يد ميتة أو رفيق ميت (حسب الشروط) أو أن هذه اللعبة هذه المرة هي (النِدَب) أي أول لعبة (كالبسملة) فهي لا تقاس، ولكن شرط أن تكون المسافة بين البعة والزبرة بعد الحدول الثلاثة لا تقل عن طول العصا.



صورة رقم (٢٣). هذه تبين الحركات الخمس لإرسال البعة الى اللاعبين المتلقين.

وإذا ضربت البعة قريباً جداً من الزبرة (قفلة أو قفلتين)، القفلة هي عرض أصبع واحد، فإن اللاعب ليس له إلا حدل واحد إن كانت المسافة قفلة واحدة، وله حدلين فقط إن كانت المسافة بين الزبرة ومضرب البعة قفلتين فإن أمكنه إبعاد البعة مسافة لا تقل عن طول العصا فقد نجت يده من الموت وإلا فإن يده قد ماتت. والتحديل هو ضرب البعة وهي على الأرض من طرفها بقصد جعلها ترتفع ليضربها بقصد إبعادها عن الزبرة.

وهنا تحكم الشروط وهي إن كان اللاعب له يمنى واحدة ويسرى مثلاً فعند موت اليمنى له أن يلعب باليسرى فقد تستطيع أن تحيي يده اليمنى وإن كان الشرط غير ذلك أو أنه ليس له يسرى أو لا يجوز أن يحيي نفسه فإن أحد رفاقه يتقدم ويلعب فإن كان يجوز له إحياء رفيقه فهو يبدأ بإحياء رفيقه وإن كانت الشروط أن لا إحياء مطلقاً فهو يحاول جاهداً أن يضيف نقاطاً إلى ما حققه رفيقه لعلهم يصلون إلى كامل النقاط المتفق عليها ٣٠٠ أو ٤٠٠ أو ٥٠٠ الخ. فإن أكملوها قبل أن يموتوا جميعاً فهم يكملون اللعبة إلى آخرها.

والشروط تكون أكثر تساهلاً وتمنح فرصاً أكبر لدى صغار الصبيان أما كبار الصبيان فإنهم يتعمدون جعل الشروط أصعب زيادة في التحدي.

ولكون اللعبة شتوية والنهار قصير في الشتاء فإن اللعبة غالباً لا تنتهي في يوم واحد فيكون الاتفاق على معاودة اللعب في اليوم التالي. وقد تستمر اللعبة إلى ثلاثة أيام أو أكثر، لأنه ليس من حق فريق أن يأخذ فرصة أو فرصاً أكثر من الفريق الآخر، ولذلك من حق الفريق الذي لم يأخذ فرصة كاملة أن يطلب إكمال اللقاء مرة أخرى في اليوم التالي.

واللعبة هذه يحن لها الكبار، فإذا اتيحت الفرصة لهم في الخلاء أو بعيداً عن البلدة فإنهم يلعبونها ولكن بشروط تجعل تداول اللعب بين الفريقين أكثر سرعة لكي يلعب كل فريق مرة كلاعب ومرة كمتلق أكثر من مرة، مثل إلغاء شروط الإحياء كلها وإعطاء اللاعب يمنى واحدة فقط لكي يموت في أي مصادفة ويجعلون الرقم الأقصى للنقاط مرتفعاً جداً حتى لا يستطيع أحد الوصول إليه ويسمونه (القِطو).

والقطو هو مجرد رقم يتفق عليه قبل بداية اللعب مع بقية الشروط ويتحقق هذا الرقم تراكمياً من كل لعبة عن طريق حساب المسافة من موقع البعة إلى الزبرة وذلك بعد كل عملية للتحديل (الثلاثة)، ومقياس الحساب هو طول العصا.

فإذا فشل الفريق المتلقي في إماتة اللعبة عن طريق ضرب البعة في الهواء قبل أن تصل الأرض وفشلوا في ضرب الزبرة بالبعة، فإن اللاعب يحدل الحدول الثلاثة ويبعد البعة عن الزبرة ثم يقيس هذه المسافة بعصاه ويسجل الرقم. وكل مرة يضيف إليه، فمثلاً هذه المرة أبعد البعة مسافة كان قياسها يساوي طول العصا ١٨ مرة، والمرة التالية أبعدها بطول العصا بـ ١٢ مرة كل مرة يضيف الرقم إلى الرصيد السابق، وإذا مات وخرج من اللعب يلعب رفيقه ويضيف أرقاماً كل مرة حتى يصلوا إلى إتمام القطو وهذا إعلان الفوز.



صورة رقم (٢٤). هذه الصورة تبين انتشار اللاعبين المتلقين في الملعب.

وهنا تبدأ مرحلة أخرى وهي جني ثمار الفوز وهي جعل الفريق الآخر (يقَطِي) بسكون الياء الأولى أي يركض مسافة يتم تحديدها حسب براعة الفريق الفائز في عملية تسمى (القورعة)، والتي هي بدورها تحدد عدد مرات (الصك).

والقورعة كما أسلفنا عملية صعبة جداً تشبه دقدقة الكرة بالقدم والمحافظة على أن لا تنزل إلى الأرض، فهي عملية ضرب البعة بالعصا ضرباً خفيفاً رأسياً إلى الأعلى أكبر عدد من المرات وهي لا تقل عن قرعتين وقد تصل إلى خمس قرعات قبل أن تسقط ونادراً ما تتجاوز ذلك.

هذه القرعات تضاف إليها قرعات اليد اليمنى مرة أخرى إذا كان الشرط أنه يلعب بيده اليمنى مرتين إذا ماتت الأولى لعب الثانية أو يقرع باليسرى إذا كان له يسرى مع اليمنى أو اليمنى مرتين ويضاف إلى القرعات السابقة ويكون هذا اللاعب من حقه أن يصك البعه بعدد هذه القرعات ولنفرض إنها ثماني قرعات.

وصك البعة من أقوى الطرق لإبعادها، ففيها يمسك اللاعب العصا بيده اليمنى، إن لم يكن أعسر، والبعه بيده اليسرى ويقذفها قذفاً خفيفاً أمامه لجهة الأعلى قليلاً لكي تهبط أمامه إلى اليمين قليلاً ثم يضربها بكل قوته مثل ما يضرب لاعب البيس بول الكرة أو لاعب الكريكت، إلا أنه لا يستخدم يده الأخرى لمسك العصا. وهذه هي عملية الصك. وهذه الطريقة في ضرب البعة هي الأكفأ لجعل البعة تذهب أبعد مسافة ممكنة. ثم يذهب إليها حيث سقطت ومن مكان سقوطها يفعل نفس الشيء كالمرة السابقة وفي نفس الاتجاه حتى ينهي ثماني صكات يكون قد حقق مسافة طويلة، ثم يأتي رفيقه ويكمل الصك من نفس المكان وفي نفس الاتجاه إلى أن ينتهي جميع أفراد الفريق ويكونوا قد حققوا مسافة طويلة باتجاه واحد، تقريباً خط مستقيم. وهنا يتوجب على الفريق المهزوم أن (يقَطّي) أي يقطع هذه المسافة ركضاً دون تنفس

إلا مرات محددة متفق عليها. ويتعاون أفراد الفريق المهزوم في قطع هذه المسافة. ويجب على اللاعب الذي يركض لقطع المسافة أن يجهر بصوته " وو وو وو...) لكي يثبت أنه لا يختلس أنفاساً لا يلحظها المراقب الذي يركض معه لضمان عدم تنفسه.

ومن الملاحظات التي يمكن تسجيلها أن أبناء الفلاحين لا يلعبونها وهم أيضاً لا يلعبون كثيراً من الألعاب الجماعية الطويلة والسبب ربما تباعد منازلهم عن بعضها ولذلك لا يتجمع أعداداً كبيرة منهم في مكان واحد مثلما يتجمع صبيان البلدة ذات المساكن المتلاصقة فهم يلتقون في الشارع والمسجد والسوق طول ساعات النهار.

الفصل السادس

الركود الاجتماعي والثقافي

عندما تستقر الأدوات الإنتاجية ووسائل وطرق العيش لفترات طويلة (عقود أو قرون) فإن الحياة الاجتماعية سوف تتسم بالركود وتستقر الأعراف والعادات وأنماط السلوك في الحياة اليومية والمواسم. وتتكون لدى غالبية أفراد المجتمع مواقف ورؤى ووجهات نظر متشابهة نحو كثير من شؤون الحياة، مثل الاتفاق الواسع على التصرفات التي تصنف على أنها معيبة أو مشينة ولا يجدر بالمرء أن يقوم بها، وكذلك السلوك المحمود في مختلف المواقف والمتعارف عليه. وقليلاً ما يختلف الناس حول تصنيف السلوك وأشكال الملابس وردود الأفعال عند مختلف المواقف. كما تتشابه كثير من مفردات الحياة اليومية، وقت النوم ووقت الوجبات والأدوات المستخدمة في المنازل وفي العمل وأنواع المساكن والأثاث وغيرها. وهذا كله ناتج عن ركود واستقرار أدوات وأساليب ووسائل العيش لأن السعي لتحصيل لقمة العيش هو الوظيفة الأساسية للإنسان ثم يأتي بعدها ترتيب الأولويات الأخرى.

والركود الاقتصادي الطويل يفرض نفسه على نمط الحياة الاجتماعية وبالتالي تتكون وتترسخ الأعراف والتقاليد والخبرات والحكم على الأشياء وتستقر

الـمعارف ويتم توارثها عبر الأجيال حتى تترسخ فـي أذهان الناس بدرجة من القداسة تجعل النمطية في كثير من شؤون الحياة هي الغالبة وتجعل محاولة التغيير تواجه مقاومة شديدة.

النمطية

إن إلقاء نظرة سريعة على أسلوب تعايش الغالبية الكبرى من الناس مع بعضهم وعلى أدواتهم المستخدمة في حياتهم اليومية، وفي العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة، في ملابسهم في العمل، وفي الطريق، وفي أثاث منازلهم، وتصرفاتهم، ونوعية ردود أفعالهم على مختلف المواقف، حتى اسماءهم محصورة في عدد قليل من الأسماء للرجال وعدد قليل من الأسماء للنساء(*) رغم أن الأسماء مجانية ولا قيود عليها.(**) وكذلك التشابه في نظرتهم للأمور المختلفة، هذه النظرة سوف تبين بدرجة عالية من الوضوح غلبة النمطية والتشابه في كثير من مفردات الحياة اليومية

(*) الشائع من أسماء الذكور حوالي ٨ – ٩ أسماء (محمد، علي، عبد الله، عبد الرحمن، عبد العزيز، صالح، سليمان، إبراهيم) وتشكل هذه المجموعة نسبة كبيرة جداً قد تصل إلى ٧٥٪ – ٨٠٪ من مجموع أسماء الذكور، أما النساء فالأمر مشابه (١) نورة، منيرة، مزنة، موضي، حصة، رقية، فاطمة، عائشة. (٢) هيلة، هيا، خديجة، سارة، لطيفة. والمجموعة الأولى أكثر انتشاراً بكثير من المجموعة الثانية. كما يلاحظ انتشار اسم علي بشكل ملفت للنظر في منطقة القصيم حتى أنهم يدعون بـ "أولاد علي".

(**) وقد يكون هذا أحد أسباب انتشار الألقاب لمعظم الأفراد ذكوراً وإناثاً. وهو بالتأكيد ليس السبب الوحيد، لأن التمعن في هذه الألقاب يظهر أن كثيراً منها يجنح إلى السلبية والأوصاف غير المحببة (كالتصغير، والمبالغة بقصد التهكم، وبأوصاف بعض أعضاء الجسم كالأنف والفم والطول والقصر، والعيون والنسبة إلى الأم بصيغ تحقيرية ... الخ).

لغالبية الناس، حتى تشابه مكونات الوجبات اليومية. هذا الاستقرار في المشهد الثقافي بمعناه الواسع ناتج عن استقرار وركود ونمطية النشاط الاقتصادي والاجتماعي الفقير المغلق منذ قرون.

فالمنازل متشابهة إلى درجة كبيرة في مظهرها الخارجي، ونوع المادة المستخدمة في بنائها، ونوع الطين والحجارة، ولونها، وطريقة البناء (عروق)، والارتفاع، وحجم المنزل. والأبواب موادها وأشكالها وأحجامها وألوانها والمادة التي صنعت منها (كلها من خشب الأثل)، وحتى تصميم المنازل من الداخل متقارب جداً في غالبية المنازل.

وإذا ألقيت نظرة داخل المنازل تجد أولاً المقدمة (تنطق القاف بدمج الزاء مع الجيم) والقبة (الصالة) والصفاف (جمع صفة) والحوش والقهوة. أما الأثاث فمجرد فرشة بسيطة تقي من الأرض في مكان النوم فقط، وربما مكان القهوة (المجلس) والباقي مفروش بالرمل النظيف. أما الأواني فهي ليست ميسرة دائماً ولذلك لا تتجاوز عدداً قليلاً من القدور النحاسية المصنوعة محلياً أو من المدن المجاورة بريدة، عنيزة، المطلية من الداخل بالقصدير، وطاسات قليلة وبعض الأواني الخشبية القليلة (موقعة وصحفة ومغرفة فقط). وقد يكون عند البعض دلتان للقهوة وربما يجد البعض (وهم قلة) إبريقاً للشاي.

وإذا نظرنا إلى ملابسهم نجد أن ملابس الرجال هي الثوب والشماغ الأحمر (لكبار السن) والطاقية فقط، أما الأحذية والسراويل فهي نادرة جداً. ويلاحظ وجود الثوب (أبو ردون) ولكنه ليس واسع الانتشار وقد تراجع استخدامه قبيل منتصف القرن الرابع عشر وانقطع تقريباً بداية الثلث الأخير من القرن الهجري الماضي.

والقماش المستخدم لثياب الرجال والصبيان هو في الغالب من نوع القطن الخام وهو قماش قطني خالص أبيض اللون مائل إلى الخشونة والصفرة الباهتة، وهو قوي

متين وهو أرخص الأقمشة ويستخدم لتكفين الموتى. ومن يستطيع الحصول على قماش أكثر بياضاً وأكثر نعومة كالقرطاسي، نوع من القطن الأبيض الخفيف، عليه طبقة من النشأ أو شيء يشبهه يعطي للقماش مزيداً من البياض ويجعله يبدو أكثر متانة ويشبه القرطاس في شكله وصوت خشخشة عندما يكون جديداً، يزول هذا كله بعد الغسل، أو من قماش "البفت"، فإنه لن يتوانى عن لبس قماش يميزه عن غالبية الناس، فهو أفخر من القماش السائد (الخام).

والثوب واسع لا يوحي شكله بأي درجة من الاكتراث بالأناقة أو بأي وظيفة أخرى للثوب سوى الستر والوقاية من الشمس والبرد. وجيب الثوب واسع ولا يتجاوز الترقوة نحو الرقبة إطلاقاً. وفي الثوب جيب (مخباة) كبيرة واحدة فقط تقع على الجانب الأيسر من الصدر وتنحدر إلى ما فوق السرة بقليل، ولا تعرف الجيوب الجانبية على الإطلاق ولا حتى الجيب الظاهر أعلى الصدر الذي ظهر أخيراً وسمي مخباة الساعة. وهي التي نضع فيها الآن القلم والنقود. وفتحة المخباة جانبية في الجانب الأيسر من شق جيب الثوب (حتى لو كان الشخص أعسر) بحيث يحتاج الشخص لكي يدخل يده اليمنى في جيبه إلى استخدام يده اليسرى لتفتح الجيب ليده اليمنى لكي تلج الجيب باتجاه اليسار ثم تنحرف إلى الأسفل لأخذ الأشياء من قاع المخباة.

وهذا التصميم للمخباة يراعي تقليل فرص سقوط الأشياء منها في مختلف الأوضاع التي يتخذها الجسم كالعمل والصلاة والرقود ومختلف الأوضاع. والثوب الواحد يستخدم في الغالب لجميع الأغراض النوم والصلاة والعمل والسوق ... وغيرها. والمخباة كبيرة نسبياً وإذا كانت فارغة لا يبدو لها أي منظر ظاهر، وهي آمنة ويستحيل النشل منها. ولكن التحوط من النشل لم يكن من ضمن عوامل تصميمها بهذا الشكل لأن النشل لا ينتشر في المجتمعات الصغيرة مطلقاً.

ومن الشائع جداً أن ترى من يمشي بالشارع لابساً ثوبين أو أكثر دون محاولة لإخفاء ذلك خاصة في الشتاء فإن كثيراً من الناس يلبس جميع ما يملكه من ثياب أثناء البرد. وليس من الشائع وجود (البالطو، والكوت، والفنائل الصوفية وما شابه ذلك) بل هي قليلة جداً. ولكن العباءة الصوفية المحلية، أو البشت المستورد فهي منتشرة وكثير منها رث جداً، وسبب انتشارها ربما كونها سلع معمرة تعيش طويلاً قد يرثها الأبناء عن الأجداد.

وليس مستغرباً أن تلاقي في الشارع رجلاً يلبس ثوباً مرقوعاً أو موصولاً ولكن الناس يحاولون قدر الإمكان أن يكون الثوب المشقوق أو المرقوع أو الذي فيه عيب أو دنس أن يكون تحت الثوب النظيف. فالفقر مخيم على كل المجتمعات المجاورة والناس تعذر بعضها ولا تخجل من ظهور آثار ضيق ذات اليد، ولكنها لا تفخر بذلك، أو تجعله مادة لاستدرار العطف أو طلب الشفقة أو المساعدة. فالإباء، والأنفة، وعزة النفس، من أكثر القيم رسوخاً لمدن وحواضر وسط جزيرة العرب، بدليل أن توالي دهوراً طويلة من القحط وشح الموارد بل والمجاعات، كل هذه لم تحدث تغيرات سلبية جوهرية على نطاق واسع نحو انهيار القيم الأخلاقية أو الدينية في هذه المجتمعات.

ولأن الملابس أحد الضروريات الأساسية، فقد أكدوا في الأمثال على أهميتها بقولهم (أطلع للناس جوعان ومكتسي ولا تطلع شبعان وعريان) وهذا القول يتجاوز في معناه مجرد الستر الجسدي.

وتعتبر الملابس من أشهر وأهم الهدايا التي يمكن أن يقدمها ابن لأبيه أو قريب لقريبه أو تقدم لشخص عزيز. وهذا معروف حتى بين الملوك في قديم الزمان. ولكن ما نتحدث عنه هنا هو فترة ما بعد قيام الثورة الصناعية بأكثر من قرن ونصف من الزمان والتي فيها تطورت صناعة النسيج تطوراً هائلاً، بحيث تعاظمت إنتاجية نول

النسيج مرات عديدة عما كانت عليه في النصف الأول من القرن الثامن عشر وما قبله. ففي وقتنا الحاضر لا يوجد مكان في العالم يعاني ندرة أو شحاً في الأقمشة كما كان الأمر عليه في القرون القديمة الذي جعل الأقمشة مرادفة للطعام (إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم).

الأحذية

النعال قليلة الانتشار فغالبية الناس لا تلبس في أقدامها أي شيء وقليل جداً من الناس من يلبس الحذاء بصورة دائمة. والحذاء الموجود من الجلد فقط (جلد البعير تحديداً) وهو صناعة محلية بشكل كامل وتجهز مقاسات: الجزء الموالي للأرض طولاً وعرضاً وكذلك الخاتم (موضع إبهام القدم) مسبقاً بمقاسات متعددة وإذا اختار الشخص مقاساً محدداً فإن البائع وهو الخراز نفسه، يقوم بإكمال الجزء العلوي "يشرّكه" على مقياس قدم الشخص نفسه لكي تكون محكمة بشكل وثيق. أما من حيث التصميم فهي تأخذ شكلاً واحداً ولوناً واحداً (لون الجلد الطبيعي أو صبغة بنية وزخرفة بسيطة) بصورة أساسية، وهو الشكل الشائع في السوق حالياً المسمى (زبيري) نسبة إلى مدينة الزبير المدينة النجدية سكاناً، التابعة لجمهورية العراق بجوار مدينة البصرة.

وقد اشتهرت خِرازة الزبير بالإتقان حتى أصبح يطلق على أي عمل محكم (خِرازة الزبير)، نسبة إلى ما يقال إن قِرَب (جمع قِربة) الماء التي يجهزها أهل الزبير للحجاج يتم ملؤها بالماء من الزبير وأن بعض الماء يعود إلى الزبير مع الحجاج العائدين من الحج دون أن يتسرب منها شيء طوال الرحلة التي قد تمتد لأكثر من شهرين أو ثلاثة، للدلالة على إتقان العمل (الخرازة).

وبجانب استخدام النعال عند قليل من الناس، هناك خف يشبه "البوت" يسمى زِربول (جمعه زرابيل) وهو صناعة محلية أيضاً وهو مصنوع من جزء سفلي من الجلد وجزء علوي من صوف الضأن أو شعر الماعز أو وبر الإبل المنسوج. وهو مصمم لكي يغطي الجلدُ القدمَ فوق الكعب، ويغطي الصوف جزءاً من الساق، ووظيفته الوحيدة الوقاية من البرد فقط. وشكله الخارجي بدائي جداً ولا يمت إلى الأناقة بأي صلة، لكنه يؤدي وظيفته بشكل جيد.

ويلاحظ أن الفلاح وهو من أكثر الناس حاجة لشيء يقي قدميه من الشوك والبرد فإنه لا يستخدم الحذاء أو الزربول والسبب أنها ليست رخيصة الثمن من ناحية، ومن ناحية أخرى، لأنها جلدية لا تقاوم الماء والرطوبة.

والانتعال كما هو واضح يعتبر أمراً كمالياً في المجتمعات الفقيرة، ولذلك تظهر للعيان التشققات (الشطوب) في أقدام الناس عامة، ويلاحظ أن أظفار القدمين لا تنمو عند الناس ولا حاجة إلى قصها مطلقاً ولا يعرف قص الأظفار إلا لليدين فقط، كما يلاحظ أيضاً متانة وخشونة باطن القدم لدى غالبية الناس بحيث أن الرمضاء، والقفصاء (شدة برودة الأرض)، ومعظم أشواك النباتات (ما عدا شوك النخلة)، كل هذه لا تعتبر مصدر أذى للناس في حياتهم اليومية. فوخزات صغار الأشواك لا تتجاوز الطبقة الميتة من باطن القدم.

ولكن من المنغصات المشهورة الناشئة عن "الحفاء" جرح القدم "اللتسمة" (اللكمة)، تكون غالباً في أحد أصابع القدم ينطقها أهل الخليج والعراق (اللتشمة). وهذه "اللتسمة" تدوم طويلاً لأنها قريبة من مصادر التلوث من ناحية، ومن ناحية أخرى، كلما أشرفت على الشفاء تعرضت لضربة تنكأ الجرح مرة أخرى، حتى شاعت خرافة تتردد على ألسنة الناس هي أن "اللتسمة لا تشفى حتى يبول عليها صاحبها"،

وعلى أية حال لا يفعل هذا سوى بعض الصبيان بعد أن تطول عليه المدة دون فعل شيء من جانب الأهل. ويلاحظ البعض أنه بعد هذا "الدواء" تشفى اللتسمة. والسبب في الشفاء – والله أعلم – هو أن الصبي مع طول المدة يعتاد على الحذر والانتباه وعدم ترك أي شيء ينكأ الجرح وتقوم المناعة الطبيعية بالباقي حتى يشفى تماماً.

والحذاء بجميع أنواعه غير معروف بالنسبة للنساء، حتى العروسة ليلة عرسها تكون حافية القدمين مثل عريسها غالباً.

أما ملابس النساء فهي "المِقطَع" وهو في تصميمه مثل ثوب الرجل كامل الكم، إلا أن كمه عند الكف أضيق من كم ثوب الرجل أما طوله فهو إلى ما فوق الكعب وعرضه واسع في منطقة الصدر والبطن ويتسع قليلاً في أسفله ليسمح للخطو الطويل. وهذا المقطع هو لباس المرأة في المنزل وفي المزرعة لنساء المزارعين، أما الخروج خارج المنزل فتلبس النساء فوقه ثوباً عريضاً جداً ليس له أكمام ولكن له فتحات جانبية واسعة جداً جداً يشبه ثياب الرجال في غرب أفريقيا، إلا أن ثوب المرأة له ذيل طويل (من ٣٠ – ٤٠ سم) عريض تجره خلفها، لكنه من الأمام يكون فوق الكعبين. ولا تخرج المرأة البالغة في أسواق البلدة إلا به، أما العمل في المزارع أو جمع العشب في الخلاء فتكتفي بالمقطع رغم وجود الرجال في نفس المكان. ولا يظهر من المرأة سوى كفيها وقدميها وتلبس بعض النساء العباءة في بعض "مشاويرها" خاصة البعيدة أو تلك التي تكون في السوق التجاري. وتتنوع ألوان ونقشات المقطع روز، عليمي، أو خمري، أو ورسي. أما الثوب فهو دائماً أسود وهو غالباً من قماش أحمر يسمى "جاوة" أو بنديره يتم صبغه باللون الأسود في المنزل قبل خياطته. وهو قماش قطني متين مقارب لمتانة القماش القطني الخام الرجالي، إلا أنه أنعم ملمساً من الخام. أما السراويل فهي شائعة لدى النساء أكثر منها لدى الرجال.

وملابس النساء في هذا المجتمع الفقير في الغالب الأعم تؤدي الوظيفة الأساسية للملابس وهي الستر الكامل فقط، والتباين، أن حدث، فهو في المقطع فقط (لونه، نقشته، نوع القماش، زخرفة بسيطة في رأس الكم عند الكف ...)، والمقطع كلمة تستخدم في البكيرية وما جاورها لثوب المرأة المشابه لثوب الرجل فقط، إلا أن كلمة مقطع تستخدم في بريدة لثوب الرجل أيضاً.

والعباءة النسائية صوفية متينة خشنة ثقيلة الوزن ليس من السهل معرفة شيء عن جسم المرأة داخلها ما عدا طول المرأة فقط، وهي توضع فوق الرأس وتصل إلى الكعبين ولها أكمام مغلقة لا يخرج الكف منها.، ويسمى قماشها دِقاق.

الحلي

المجوهرات نادرة جداً ولكن يمكن رؤية خاتم أو خواتم فضية بها حجر "كريم" فيروزي أو أحمر اللون، وكذلك يمكن رؤية الخلخال فـي اسفل الساقين. وهو طوق فضي غير مغلق تماماً (يصل عرضه إلى خمسة سنتميترات من الجوانب ويقل عرضه من الجهة الخلفية لكي لا يدمي العقبين). ورنة الخلخال مشهورة ومعروفة قـد تغنى بها الشعراء فـي جميع أنحاء الوطن العربي. وغالباً تكون رنة الخلخال مقصودة، الا أنها فـي مجتمع صغير مـحافظ مثل مجتمع البكيرية تكون رنة الخلخال كأنها غير مقصودة ولا تكرر كثيراً لكي لا تشتهر المرأة بأنها تتعمد تنغيم رنات الخلخال. وهذا يذكر بشيء يفعله الرجال وهو تنغيم دقة "النجر" (المستخدم لطحن القهوة والهيل) تنغيماً متعمداً يجيده البعض ويطرب له، حتى أن الفقير أحياناً يدق النجر حتى لو لم يجد قهوة (يقولون فلان يدق البيز).

وهناك حلية تلبس في العضدين فوق المرفقين تسمى الزنود (مفردها زند) بداخلها أجسام صغيرة تصدر أصوات خشخشة عند الحركة (المتعمدة في أكثر

الأحيان). ومن الشائع أيضاً رؤية خاتم فضي عريض يلبس فـي إبهام اليد عرضه حوالي نصف سنتمتر أو أكثر يسمى (زِقِرة) بسكون القاف. وتنطق القاف جيماً يمنية أو مصرية. ومن الحلي أيضاً القلائد التي تلبس في العنق وهي من أحجار مختلفة بعضها قد يكون ثميناً وأغلبها ليس كذلك. وهي تلبس حول الرقبة ولا تنزل نحو الصدر مطلقاً فهي تحيط بالعنق ملتصقة به تقريباً وهي غالباً أكثر من قلادة تلبس في آن واحد. وتلبس النساء المجاول (الاسوارات) ويندر أن تكون من ذهب أو فضة لكنها يمكن أن تكون من مواد أخرى غير ثمينة، ولها ألوان مختلفة وبعضها من الزجاج الملون.

وتتجمل النساء بالحناء(*) في الكفين فقط ولا يعرف النقش بالحناء أو خضاب القدمين، أما تسريحة الشعر فهي الجدائل (الضفائر) ولا يعرف قص شعر الرأس مطلقاً، (للنساء والرجال والصبيان والبنات). وضفائر النساء والبنات تـجدل غالباً على عجينة من مسحوق الورد الأحمر الجاف ذو رائحة زكية وهو رخيص يستورد من شرق آسيا (غالباً من الهند). ويدوم هذا لعدة أيام، وتفعله العروسة ليلة زفافها، وعلى الزوج أن ينقض الجدائل كلها رغم المقاومة الشديدة من العروسة.

البيئة المحيطة

علاقة الناس في حواضر جزيرة العرب مع البيئة المحيطة يوجهها السلوك البشري العقلاني الذي يعيش ظروفاً اقتصادية قاسية وموارد شحيحة، شبه مغلقة عن العالم الخارجي. ويعتبر مستوى الكفاف المتدني أمراً طبيعياً ويحمدون الله عليه ويدعونه ألا يغير عليهم (الله لا يغير علينا).

(*) يستخدم الرجال الحناء في الكفين إذا كانوا يعملون كثيراً بالمسحاة أو ما شابهها.

ومن الطبيعي أن لا نتوقع سلوكاً ترفياً كتربية الحيوانات غير النافعة نفعاً مادياً مباشراً كالكلاب والقطط. فالكلب في المنزل غير معروف على الإطلاق في البكيرية، ولا يتصور حدوثه مطلقاً، وذكر اسمه يأتي دائماً مرادفاً للنجاسة والشتم والتحقير، ويقولون "الى أطريت (ذكرت) الكلب ولّم (جهز) العصا" وهذه تقال إذا حضر شخصاً مكروه بعد ذكره بقليل، ولو كان شخصاً محبوباً فإن لديهم عبارات أخرى مثل إذا أطريت الحصان ولم العنان.

ولا يوجد كلاب ضالة داخل البلدة مطلقاً فالناس لا يتركونها وشأنها ولو تركت لماتت جوعاً. والكلاب كذلك نادرة في البيئة المحيطة (خارج البلدة) ولا تتنامى بشكل كبير لأن البيئة شحيحة جداً فلا تجد في البرية ما يكفي للبقاء. ويلاحظ أنه حتى كلاب الصيد التي يقتنيها البدوي من نوع "السلوقي" يظهر عليها أثر الجوع الدائم حتى إنها تأكل التمر إذا وجدته بنهم كبير مع أنها حيوانات لاحمة حصراً لو وجدت بيئة ملائمة، فيها طرائد كافية.

أما القطط فهي موجودة تنتقل بين المنازل رغم أنف أهلها من فوق الجدران أو من فرج الأبواب ولا أحد يؤويها طوعاً. ولا يعرف في البكيرية أن أحداً يربي قطاً في منزله، فليس هناك فضل طعام في مجتمع أكثر أفراده في أغلب الأيام لا يكاد يشبع تمراً أو دقيقاً. والقطط تعتبر أكثر المفسدين في المنازل. فهي أولاً خطر على الأطفال حديثي الولادة، والقطط تنثر اللبن إذا وجدته وهو نصف القوت، وقد يدفن نجاسته في زنبيل الطحين، وهناك مثل شائع يقال عن الشخص الذي يفسد بعد الثناء عليه فيقولون (البس إلى مدِح زَق بالطحين). والقط بالتأكيد يشكل أكبر الأخطار على الدجاج. والقط ليس لديه أي اهتمام بالتمر وكذلك لا يقترب من الأواني التي تحتوي على طعام حار ما لم يبرد. وبعض الناس يعطي القط بعض الطعام إذا أصر القط على تثبيت عينيه على الآكلين. ولو سألت بعضهم لماذا أعطيته طعاماً لاختلفت الإجابة،

فالبعض يخشى أن يصيبه القط بالعين (الحسد) أو (النحاتة)، والبعض يصدق ما يقال عن أن بعض القطط "متِجَنّس" أي أنه جني في هيئة قط، فالأفضل إعطاؤه لا طوعاً ولا كرهاً ولكن مثل إعطاء بعض الشحاذين رغم عدم الاقتناع بحاجتهم.

وعدم العطف على القطط قد حد من أعدادها من ناحية، ومن ناحية أخرى، حد كثيراً من أعداد القوارض (الفار المنزلي) لاعتماد القطط عليها، وكذلك حد من الحشرات الكبيرة كالخنافس والعناكب.

وعدم العطف على القطط لم يصل عندهم إلى محاربتها، وكثير من الناس يعتقد أن الجن يتمثل في هيئة قط ولذلك يتجنب إيذاءه. ولكن هذا الإيمان بأن بعض القطط من الجن ليس قوياً إلى المستوى الذي يدعو إلى المداراة والمحاباة خوفاً من ضررها ذي الطبيعة الغامضة. ويحدث كثيراً أن تسمع بأن شخصاً تعرض للأذى من قط محدد وأن هذا الشخص لم يلجأ إلى قتل القط بل ذهب إلى الحديث مع القط على أساس أنه يفهم ما يقال، فيسمعه عبارات تفيد بالتحذير وإظهار الضيق من الأذى ويسمعه أنه يستعيذ بالله من شره (القط هو المخاطب)، ويذكر البعض أنه في حالات كثيرة أن القط بعد هذه الاستعاذة يذهب ولا يعود. ويحذر بعض الناس أبناءهم من التعرض للقطط (قتلها) خوفاً عليهم من الجن. وإذا ظهرت بعض الأعراض النفسية على البعض قيل إنه ربما آذى قطاً ولم يسمّ، أو بال في الرماد، أو عثر ولم يسمّ. وهذا منتشر في مجتمعات عربية كثيرة وهناك تعبير شهير "طاح ولا أحد سمى عليه".

الحيوانات الأليفة

الحيوانات المستأنسة المعروفة في البكيرية قبل النفط هي البعير والبقر والحمار والضأن والماعز والدجاج فقط ولا يعرف تربية الأرانب والحمام أو البط أو ما شابه ذلك.

والبعير والحمار من ضرورات أنشطة الزراعة والنقل، والبقر للحليب والسمن فقط لمن يستطيع من المزارعين أو غيرهم، والأغنام غالباً لمن لا يقدر على مؤونة البقرة أو لمن تفيض البقرة كثيراً عن حاجته، أما تربية الدجاج فهو معروف لدى الناس في المنازل وهو ليس كثيراً كما أنه قليل جداً في المزارع، وعموماً انتشار تربية الدجاج ليس كبيراً. والبيض نادر جداً جداً. والد أعداء الدجاج في المنازل هي القطط وفي المزارع القطط والثعالب والحدأة (الجليماء).

والثعالب والحدأة ليست كثيرة التواجد والسبب هو فقر البيئة المحيطة سواء الطبيعية أو الناتجة عن الأنشطة البشرية. فالزبالة التي تخرج من المنازل قليلة جداً من جهة، ومن جهة أخرى لا تحتوي أي بقايا طعام حتى للنمل والذر، وهي متناسبة مع مقدار ما يدخل هذه المنازل من المواد الغذائية، ولذلك لا ترى القطط حول الزبالة مطلقاً، فهي مجرد مخلفات حيوانية وبشرية ورماد وما شابه ذلك، وهي تجمع خارج المنزل في أرض فضاء غالباً تأخذ الشكل المخروطي تسمى دِمالة، واستخدامها الوحيد هو في الزراعة للتسميد فقط.

الحيوانات المفترسة

والحيوانات المفترسة التي تعيش في البيئة المحيطة ربما يصح القول بأنها مقصورة على الذئب وهو الذي يشكل خطراً على جميع الحيوانات الأليفة. والذئب هو المفترس الوحيد الذي يستمد قوته وفعاليته من العمل الجماعي الذي بدأ يتقلص كلما اتسع النشاط البشري (منتصف القرن الهجري الماضي)، وانتشار البارود (البندقية). وأصبح الذئب يصارع من أجل البقاء على شكل أفراد (ذئب واحد) ولذلك تركز خطره على الغنم وخاصة الضأن لأنها لا تقاوم بل تنهار أعصابها وتستسلم للذئب

بكل سهولة (تِنسِبع)، بعكس الماعز فهي تحاول الهرب وتصدر أصوات استغاثة وترفض السير مع الذئب خطوة واحدة. ويظهر فقر البيئة المحيطة على شكل وصغر حجم الذئب مقارنة بالذئاب في أوروبا وغيرها.

والمفترس الأخر وهو اقل شأناً بكثير، هو الضبع وهو كالذئب قد اختل نظام حياته الطبيعية (العيش على شكل جماعات) بسبب شح الصحراء من جهة والتوسع في النشاط البشري وانتشار البارود في المناطق التي يمكن أن تكون بيئة حاضنة للطرائد. ولذلك يذكر الضبع هنا وهناك ولكن على شكل أفراد تهاجم البقر والحمير ولكنها تخاف البشر وتتجنب المخاطرة بالاصطدام بهم، ويشتهر اسمها بـ (الجعيرة) أو العرجاء، أو المسّارة، لأنها تهاجم الحمير والبقر من الخلف وفي المناطق الحساسة حيث الجلد اللين. ورغم ما يذكر عن جواز أكل لحمها إلا إنها مستقبحة وليس من الشائع الحديث عن أكلها أو أكل شيء منها بخلاف الذئب الذي تروي بعض الحكايات عن أن فلاناً أكل كبد ذئب لأنها سوف تجعله شجاعاً جسوراً مقداماً.

ويظهر أثر شح البيئة الصحراوية على قلة تنوع الطيور والزواحف وصغار الثدييات والحشرات، فالطيور الدائمة الوجود مقصورة على العصفور وهو واسع الانتشار في جميع أنحاء العالم، واليمام (الحمام)، وهناك بعض الطيور المهاجرة في بعض المواسم. أما الزواحف فيوجد منها في المنازل البعرصي (الوزغ)، وبعض أسباب نجاحه عدم وجود أعداء له قادرين عليه، فهو يعيش في ثقوب الجدران العالية ولا يخرج إلا في الصيف ولا ينزل إلى الأرض إلا نادراً. ويوجد قليل من الزواحف في المزارع (بعض السحالي الصغيرة). وتوجد بعض السحالي والأفاعي والورل والضب حول المزارع البعيدة عن المنازل وفي بر البكيرية وهي قليلة التنوع. أما الحشرات فهي كذلك قليلة التنوع بسبب قسوة البيئة، ومن أنجح الحشرات الكبيرة في الصمود في

هذه البيئة القاسية العقرب وهي من النوع المتوسط السمية وقليلاً ما يذكر أن أحداً قد مات من لدغة عقرب. و لا تستطيع العقرب التكاثر بشكل واسع في المنازل لأن الناس تبادر إلى قتلها فور رؤيتهم لها.

ومن الحشرات الدائمة الوجود أيضاً الخنفساء وهي مستقبحة مكروهة ولذلك فهي ليست واسعة الانتشار فالجميع معاد لها البشر والأحياء الأخرى كالقطط والقنافذ والعقارب والدجاج وغيرها.

ومن أشهر الحشرات التي تسبب أذى دائماً للناس القمل وهو منتشر ولا يسلم منه أحد. وقد تعايش الناس معه في مكافحته دون نجاح يذكر في القضاء عليه بشكل دائم، ولكن البعض ينجح بالتخلص منه بصورة مؤقتة أو بالتقليل منه. وقبل تحسن الظروف المعيشية لم يكن من المخجل جداً للشخص أن يرى الآخرون القمل في رأسه أو على ثيابه، لأنه لا يستطيع أحد الادعاء بأنه محصن من القمل، بما في ذلك القاضي والأمير والصغير والكبير والبدوي والحضري، ولكن نصيب البدوي من القمل، إجمالاً، أكبر كثيراً من نصيب الحضري لقلة الماء. ولا شك في أن القمل مرتبط بالفقر. فالفقر غالباً مصحوباً بالجهل بكثير من الأشياء، والفقر يرتب الأولويات ويجعل الأناقة والنظافة ليست في رأس القائمة. والفقر أيضاً جعل الناس في ذلك الوقت لا يعلمون شيئاً عن وجود مبيد للقمل ولو علموا لما استطاعوا الحصول عليه، وما ثلاثية (الفقر والجهل والمرض) إلا أساسها الفقر في المقام الأول. وهذا الثلاثي إذا انتشر في مجتمع من المجتمعات يكون كل عنصر من عناصره الثلاثة يغذي العنصرين الآخرين. وهذا يسمى في أدبيات التنمية الاقتصادية بـ (الحلقة الخبيثة) التي لا تنجح التنمية إلا بكسر هذه الحلقة بالقضاء على الفقر أولاً، ومن ثم يمكن القضاء على العناصر الأخرى للحلقة الخبيثة. فأهم وأكبر أهداف التنمية الاقتصادية هو القضاء على الفقر.

وإذا قبلنا مقولة "انه ليس هناك شيء شر كله وليس هناك شيء خير كله" فإن حالة الفقر في تلك القرى ينتج عنها أنه رغم عدم وجود بلدية أو اي جهة تنظف الشوارع أو الأسواق فإن شوارع البكيرية وأسواقها وكذلك القرى الأخرى دائماً نظيفة ولا تتراكم فيها نفايات عضوية أو غير عضوية. فإي شيء يسقط من مخلفات الحيوانات والنباتات يستخدم وقوداً، والخـرق والقماش يستخدم حتى ينتهي الى اسمال يأخذها الفلاح ويلفها على الرشا ولا يوجد كراتين فارغة أو أكياس نايلون أو علب فارغة أو ما شابه ذلك فليس لذلك المجتمع الفقير نفايات تذاكر والنفايات القليلة جداً من رماد ومخلفات حيوانية وبشرية تجمع في مكان محدد وتستخدم للتسميد في المزارع.

الفصل السابع

بـداية التحول

الخطوة الأساسية

نتيجة لقيام دولة مركزية مستوفية لكل عناصر الدولة (المملكة العربية السعودية) مركزها وسط جزيرة العرب وليست كما كانت طوال القرون الماضية مـجرد إقليم فقير هامشي ناء عن المركز (دمشق، أو بغداد، أو اسطنبول أو غيرها)، بدأ الفقر يتراجع شيئاً فشيئا ومعه شقيقاه أو نجلاه الجهل والمرض. وللحقيقة والتاريخ يمكن القول إنه، وقبل ظهور النفط، أن الاستقرار السياسي، وشيوع الأمن الشامل الصارم، بعد تأسيس المملكة العربية السعودية، قد خلق الظروف الملائمة للناس لزيادة النشاط الاقتصادي في مختلف حواضر أقاليم المملكة. فنشطت التجارة، وانتقال السلع والأفراد ليس فقط بين البؤر الحضرية داخل حواضر كل إقليم، ولكن أيضاً عبر الأقاليم داخلياً (المتجاورة وغير المتجاورة) مع الخارج وأصبح هناك دافع قوي لزيادة الإنتاج.

فتوحيد المملكة وحد السوق، وضاعف حجمه عشرات المرات، كما أن توحيد المملكة أضاف اثر الإنفاق الحكومي، رغم قلته، في العاصمة وعواصم المناطق والأقاليم الأخرى على الأمن والجيش والقضاء وغيرها، وتوحيد العملة، وإلزام

الناس بالوفاء بتعاقداتهم، وجمع الضرائب والرسوم وما شابه ذلك. وقد لمس الناس بوادر التغيير سريعاً بعد إعلان قيام المملكة العربية السعودية أوائل خمسينيات القرن الهجري الماضي، (هذا قبل النفط).

فمثلاً يقول أحد أعيان البكيرية(*) إن سنة ١٣٥٦هـ هي آخر سنة دفعنا فيها "الفَضّة"، وهي ضريبة تفرضها الحكومات عبر التاريخ بمسميات مختلفة في بعض الأحيان تسمى في بعض الكتابات "ضريبة الرؤوس". وتلك السنة (١٣٥٦هـ) كانت توافق عام ١٩٣٧م وهو العام الذي بدأت فيه المملكة تباشير ظهور النفط لأول مرة. وهذا لا يعني أن الإنفاق الحكومي المباشر قد وصل إلى البكيرية وما شابهها من بلدان حواضر أو بوادي أقاليم المملكة المختلفة، فقد مضى عدة سنوات قبل أن تبدأ الحكومة حتى بدفع رواتب لأمير وقاضي البلدة، وهي من أولويات أي سلطة. ومن باب أولى فليس للحكومة أي نوع من الإنفاق على خدمات اجتماعية كالصحة والتعليم والطرق والبلديات وغيرها.

لكن الإنفاق الحكومي في العاصمة وعواصم الأقاليم والمدن الكبيرة في مختلف الأقاليم خلق فرصاً اقتصادية متنوعة حتى لأهل البلدات الصغيرة. فظهرت فرص العمل المختلفة في الرياض ومكة وجدة والمنطقة الشرقية والمدينة المنورة في قطاع النقل والنفط والبناء والزراعة وحتى قطاع التعليم في كبريات المدن. فرص العمل الناشئة في مختلف القطاعات كان يملؤها في الغالب رجال أكثريتهم من حواضر الأقاليم فهم أكثر من البدو بكثير نظراً لتنوع معارف الحضر بالأعمال المختلفة مقارنة بالبدو، كالزراعة، والتجارة، والبناء، والقراءة والكتابة.

هذا الإنفاق الحكومي يتسرب جزء منه إلى البلدات الصغيرة في الأقاليم المختلفة على شكل سلع (ملابس، أواني، مواد غذائية خاصة القهوة والهيل والشاي

(*) حديث شخصي مع المرحوم العم علي العبدالله السديس (العبود).

والسكر وغيرها)، بالإضافة إلى بعض النقود التي يبعث بها العاملون في المدن إلى أهلهم في أنحاء المملكة.

وما هي إلا سنوات قليلة حتى ارتفعت إيرادات الحكومة من النفط والجمارك، والرسوم المختلفة وغيرها. فامتد الإنفاق الحكومي المباشر إلى البلدات الصغيرة آنذاك مثل البكيرية وما شابهها. فلم يقتصر الأمر على مخصص لأمير البلدة وقاضيها، ولكن بدأت المؤسسات الحكومية تنشأ في مختلف البلدات خاصة المدارس وتوالت بعدها المرافق الحكومية الأخرى وما تقدمه من خدمات ونفقات في تلك البلدات.

ولكن المدن وعواصم الأقاليم، وهو أمر طبيعي، هي التي تحظى بنصيب الأسد من الإنفاق الحكومي المباشر، ويتسرب منه نسبة لا بأس بها إلـى بقية حواضر المملكة.

ونظراً لتحسن الظروف الاقتصادية للدولة منذ نهاية الخمسينيات الهجرية من القرن الماضي، يمكن للمرء أن يرى بكل وضوح الدور المحوري للاقتصاد في تغير معالم الحياة الاجتماعية والثقافية المختلفة، (العادات والتقاليد، السكن، الملابس، الأثاث، الأفراح، الأغذية، الولائم، التعليم، الوعي الصحي، معرفة الكثير عن العالم وطرق التفكير والمواقف حتى مجالس المأتم والعزاء لحقها التغيير).

لقد ساهم النفط مساهمة رئيسة حاسمة في تحطيم الثلاثي اللعين (الفقر، الجهل، المرض)، فعندما قُضي على الفقر تهاوت حصون الجهل والمرض وما فرضه هذا الثلاثي الكريه من عادات وتقاليد وظروف معيشية متدنية في جميع مناحي الحياة (المأكل، الملبس، المسكن، الصحة، التعليم، الانتقال).

لمحة سريعة عن فترة التحول

المقصود هنا التحولات التي حدثت في شتى مناحي الحياة في حواضر وسط جزيرة العرب (منطقة نجد في الغالب). وهو الانتقال من حال المجتمع الفقير فقراً

شديداً إلى حال اليسر التدريجي بتراجع مستوى الفقر وما نتج عنه من تغيرات شاملة طالت مختلف شؤون الحياة "الاجتماعية" بمعناها الواسع (الثقافية، الصحية، التعليم، السكن، الملبس، العادات، التقاليد، وكثير من الأعراف المستقرة منذ قرون طويلة).

وبما أن الفقر يعني الافتقار إلى المتطلبات الأساسية للحياة الكريمة، فإن التنمية هي العملية التي تهدف إلى نقل أو تحويل المجتمع من حالة المستوى المعيشي المتدني إلى مستوى معيشي أفضل، بدءاً بالضروريات (الأمن، الغذاء، السكن، التعليم، الصحة وغيرها) والاستمرار في تحسينها والإضافة إليها.

لكن هذه الضروريات لا يمكن تأمينها ورفع مستواها إلا بالتنمية الاقتصادية، وبما أن الفقر يعني نقص الموجود من السلع والخدمات فإن التنمية الاقتصادية تقوم بزيادة الإنتاج لسد هذا النقص من السلع والخدمات. ولكن حاجات البشر ورغباتهم لا تقف عند حد، فكلما حصل الإنسان على ضرورياته الأساسية بدأت نفسه تتطلع إلى الحصول على سلع وخدمات كانت تعتبر كماليات وترف، بل قد يتجاوزه كثيرون إلى حالة البذخ والإسراف والبطر. وهذا أمر مشهود في سلوك البشر على مر العصور وفي كل المجتمعات (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) (سورة القلم). ولذلك يجب التنبيه والتشديد على نقطة هامة هنا وهي:

أنه وبرغم أن التنمية الاقتصادية تـمثل القاطرة الأساسية والضرورية التي لاغنى عنها لإحـداث التنمية الشاملة، فإن التنمية الشاملة أشـمل وأوسع وأعمق من مـجرد توفير الضروريات والمبالغة في التركيز على الكم وإهمال مسألة أن التنمية الحقيقية هي التي تحدث نقلة للمجتمع فـي الجوانب الثقافية والفكرية لكي لا تكون التنمية مـجرد عملية تسمين (أمن، وأكل، وسكن كما يحدث في تربية الحيوانات) بينما يبقى المجتمع أسير الجهل والخرافة، والعادات البالية، والعصبية الضيقة، والتفكير الساذج، والنظر إلى الحياة والمجتمعات الأخـرى نظرة لا تمت إلى العقل والحكمة

والعلم بأية صلة (إما قـدرية مفرطة، أو شوفينية ضيقة مقيتة، أو تبسيط أهبل لمجريات الأمور).

الأثر الاقتصادي لقيام المملكة العربية السعودية

إن ما نتج عن قيام المملكة العربية السعودية كدولة مركزية وسط جزيرة العرب (أوائل خمسينيات القرن الهجري الماضي) لأول مرة منذ آلاف السنين، قد كان بداية رحلة التحول الهائلة لمناطق وسط الجزيرة العربية. فأول وأهم كسب تحقق لأهل تلك المناطق (وسط الصحراء العربية) والمناطق الأخرى (بقية أنحاء المملكة) هو استتباب الأمن الشامل في جميع بقاع المملكة. وموضوع الأمن كان من أول أولويات الملك عبد العزيز رحمه الله، فقد أدرك بحسه السياسي الثاقب وقراءته للتجارب السابقة أن الأمن الشامل شبيه بالعدل الشامل "أساس الملك"، أي أهم مصادر الشرعية لأي سلطة أو حكومة بل وأهم دعائمها المادية.

وكما أسلفنا في صفحات سابقة أن مجرد ثقة الناس بأن أموالهم وتنقلاتهم وإنتاجهم محصنة ضد النهب والسلب والانتهاك، هذا بحد ذاته شجع الزراعة وبالتالي التجارة والنقل وزيادة النشاط الاقتصادي بصورة عامة. ومن هنا بدأت حياة اقتصادية جديدة نشطة تدب في شرايين البؤر السكانية والأقاليم الراكدة منذ قرون طويلة وسط جزيرة العرب.

وقد كان للتنظيم والإنفاق الحكومي اثر مشجع وداعم لتزايد النشاط الاقتصادي. وقد ظهر أثر هذه التطورات قبل النفط. لكن ظهور النفط قد أعطى دفعة قوية مستمرة للنمو الاقتصادي منذ أواخر الخمسينيات الهجرية من القرن الماضي إلى يومنا هذا.

ظهور النفط

وأول بوادر الآثار الاقتصادية الإيجابية لاكتشاف النفط في الظهران، أن كفت الحكومة عن "ضريبة" (الفَضّة). ثم بعد سنوات قليلة بدأ أثر الإنفاق الحكومي الذي مصدره إيراد النفط (حقن إضافي في الدورة الاقتصادية في المملكة)، وليس ضريبة تقتطع من دخل المواطنين. ثم مع تزايد إنتاج النفط وتصديره تعاظم الإنفاق الحكومي وأصبح هو القاطرة الأساسية للتحولات الاقتصادية الهائلة وما صحبها – بالضرورة – من تطورات اجتماعية شاملة. هذه التحولات أصبحت واضحة لا تخفى على أحد، خاصة في ما يتعلق بالضروريات الأساسية (الأمن والغذاء).

وكما هو متوقع في كل زمان وفي كل مكان أن تنال العواصم وعواصم الأقاليم نصيباً من النمو الاقتصادي أكبر من نصيب القرى البعيدة والأطراف. والبكيرية باعتبارها ليست عاصمة إقليمية وليست مدينة كبيرة، ولكنها أيضاً لم تكن قرية صغيرة جداً، فقد كان من المناسب والمفيد أخذها كنموذج لرصد التطورات الاقتصادية التي شهدتها حواضر وسط الجزيرة العربية نتيجة لظهور النفط، يضاف إلى ذلك المعرفة الشخصية بأحوال البكيرية والتطورات التي حدثت فيها خلال الفترة التي بدأت تظهر فيها، بوضوح شديد، آثار زيادة الإنفاق الحكومي الناجم عن زيادة إيرادات النفط.

وهنا تجدر الإشارة إلى مصادفة قد يكون لها اثر مهم في تعطيل أو إبطاء وصول الإنفاق الحكومي إلى مناطق أو بلدات صغيرة مثل البكيرية، وهذه المصادفة هي أنه مع تدفق إيرادات النفط الأولى اندلعت الحرب العالمية الثانية. والحرب كما هو معروف، تطال شرورها أصقاع المعمورة، خاصة إنها حرب عالمية دامت حوالي ست سنوات. وقد أكلت هذه الحرب الأخضر واليابس. فكان هناك شح وغلاء فاحش في كثير من السلع الضرورية اجتاح جميع أنحاء العالم، مما جعل هذا الدخل المحدود من

إيرادات النفط لا يكفي ما كان سوف يكفيه في حالات السلم. والنتيجة أن الإنفاق الحكومي لم يكن كافياً ليصل إلى البكيرية وما شابهها من حواضر وسط الجزيرة العربية. لذا يمكن القول أن تأثير الإنفاق الحكومي المباشر على اقتصاد تلك الحواضر قد تأخر إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، منتصف الستينيات الهجرية. فباستثناء كبريات المدن وعواصم الأقاليم لا يكاد المرء يرى دوراً حكومياً في التعليم أو الصحة أو الطرق أو الخدمات البلدية. لكن بعد منتصف الستينيات الهجرية يمكن ملاحظة تغيرات وتحولات اقتصادية متدرجة ومستمرة ومتصاعدة ومتنوعة.

مشاهدات شائعة

ومن المشاهدات الشائعة المعروفة لمن كانوا في منتصف الستينيات الهجرية من القرن الماضي في سن يمكنهم أن يميزوا ما يجري حولهم من شؤون معيشتهم اليومية، (أي الأشخاص الذين قد ولدوا أوائل الستينيات وما قبلها). والمؤلف وأقرانه من ضمن هؤلاء.

ومع الأخذ بالاعتبار التفاوت بين الأسر في أحوالها الاقتصادية (في درجات الفقر)، فإن الغالب على ذكريات الأشخاص في ما يتعلق بفترة أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات الهجرية أنه ليس من المستغرب أن يطلب الطفل من أمه شيئاً ليأكله (يمه أنا جوعان)، وتجيبه أمه بأنه ليس لدينا ما نأكله. ولكن ذكرياتهم عن فترة منتصف الستينيات (إجمالاً) وما بعدها لا يذكرون أنهم كانوا يذهبون إلى النوم ببطون خاوية. هذه شهادات شخصية شائعة ومنتشرة.

إذاً بعد تحقق الضرورة الأولى (الأمن) أوائل الخمسينيات بدأ يظهر جلياً التحسن الواضح في مستوى تحقق الضرورة الثانية (الغذاء) رغم حدوث بعض

الاختلالات في بعض السنوات الناجمة عن ظروف طبيعية مثل سنوات انحباس المطر (القحط)، أو ما ذكرناه آنفاً عن الغلاء الشامل الناجم عن ظروف الحرب العالمية (التضخم المستورد) وما شابه ذلك من ظروف طارئة.

وبما أن هذا الكتاب قد أخذ البكيرية أنموذجاً لتتبع التطورات الاقتصادية وما ينتج عنها من تطورات اجتماعية وثقافية فإن السجلات الرسمية في البكيرية، ورواية الأهالي الشفوية والمكتوبة بما فيها مشاهدات الكاتب نفسه، ستكون هي المراجع الأساسية المعتمدة لرصد مختلف التطورات المتلاحقة التي تلت ظهور النفط في المملكة العربية السعودية.

مر في صفحات سابقة أن اقتصاد البكيرية وغالبية اقتصادات البؤر الحضرية وسط صحراء جزيرة العرب إنه اقتصاد زراعي، طبيعي، يقوم أساساً على أن الإنتاج كماً ونوعاً يهدف في المقام الأول إلى تأمين المعيشة فقط، دون طموح رأسمالي (يرمي إلى مراكمة ثروات وتنمية رؤوس أموال). وهذا يعني أن الاكتفاء الذاتي، هو الهدف الأساسي الذي يوجه النشاط الاقتصادي في تلك المناطق. والاكتفاء الذاتي المشار إليه، نادراً ما يتجاوز حدود الكفاف الأدنى. وهذا معروف تاريخياً وهو ما حدا بالمؤرخ البريطاني المعروف (أرنولد توينبي) إلى القول "أن أهل جزيرة العرب قبل النفط كانوا في جوع دائم منذ آلاف السنين"، وقد لخص أهل صحراء جزيرة العرب هذا بقولهم "نجد تالد ولا تغذى" بمعنى أن الموارد الاقتصادية في منطقة نجد لا تكفي لمواكبة التزايد الطبيعي للسكان، ولذلك عرفت منطقة وسط جزيرة العرب تاريخياً بأنها منطقة طرد سكاني وهجرات خارجية مستمرة. ولم تتوقف هذه الهجرات الفردية والجماعية إلا بعد ظهور النفط، بل أن اتجاه الهجرة قد انعكس وأصبحت صحراء العرب جاذبة للهجرة.

وقد تمت الإشارة في صفحات سابقة أيضاً إلى أن النشاط الاقتصادي في الجانب الإنتاجي في البكيرية هو الزراعة، وأن الزراعة مقصورة بصورة أساسية على القمح والتمر فقط، ليس لسد الحاجة محلياً فحسب (داخل البكيرية)، ولكن أيضاً لتصدير الفائض من هذين المحصولين. وذلك للتمكن من استيراد مستلزمات المعيشة التي لا يمكن إنتاجها محلياً مثل الملابس والأواني وما شابهها. أما الأعلاف، والخضروات فقد كانت تنتج للاستهلاك المحلي فقط، وأما الفواكه فإنها لم تدخل قائمة الأولويات بسبب الجهل بقيمتها الغذائية وليس بسبب صعوبة زراعتها أو ارتفاع تكلفة إنتاجها، وليس بسبب عدم معرفتها فهناك فواكه معروفة كالعنب والرمان والتين والليمون ولكن لا يلتفت إلى إنتاجها أحد في البكيرية.

أما ما يتعلق بالإنتاج الصناعي الحرفي فلم يكن للبكيرية نشاط يذكر يتعدى الحدود الدنيا من الحاجة المحلية (المنتجات الخشبية، والمعدنية، ومنتجات النخل من جريد وسعف وعذوق وليف، والمنسوجات الصوفية، والمنتجات الجلدية). أما صناعة الفخار فإنها لم تكن معروفة رغم أن البكيرية تتربع فوق مخزون كبير من الطين الصلصالي الممتاز لصناعة الفخار.(*) ولكن يبدو أن صناعة الفخار لم تكن منتشرة في

(*) أول من كشف لنا صلاحية طينة البكيرية لصناعة الفخار كان أستاذاً مصرياً إسمه زكريا جاء لتدريس التربية الفنية عام ١٣٧٨هـ وقد أخبر مدير معهد المعلمين آنذاك الأستاذ على المقوشي (المدير) رحمه الله، وطلب منه بعض الخامات والأدوات اللازمة لصناعة بعض الآواني الفخارية وغيرها وأظهر حماساً شديداً للعمل فاستمهله مدير المعهد لمدة تجاوزت الشهر أو أكثر، وبعدها أحضر له كل ما طلب وأعطاه الضوء الأخضر للعمل. وفهمنا لاحقاً أن تلكؤ مدير المعهد كان تصرفاً نابعاً من حرصه على مدرسته، فقد كان يخشى أن يظهر حماس هذا الأستاذ الجديد في أول المدة ثم تظهر مواهبه ثم يؤخذ إلى بريدة. وقد صح حدس المدير، ففي نهاية العام الدراسي ذهب الأستاذ بالإنتاج الفني لمعهد البكيرية مع المدارس الأخرى إلى الرياض وقد حقق نجاحاً كبيراً ولذلك لم يعد الأستاذ بل أخذوه إلى معهد الأنجال بالرياض. رحم الله علي المقوشي رحمة واسعة.

المنطقة كلها، رغم أن هذه الصناعة من أقدم ما عرفته البشرية من الأنشطة الصناعية منذ أقدم العصور.

وفي ما يتعلق بعنصر العمل كأحد أهم عناصر الإنتاج، فقد تمت الإشارة إلى أنه، بصورة عامة، يعاني من بطالة شبه دائمة. وفوق هذا كانت البكيرية مكاناً جاذباً للهجرة "نسبياً" سواء الباحثين عن فرص زراعية أو حرفية، أو من بعض البدو الذين خذلتهم الصحراء كما كانت تفعل دائماً في المناطق المحيطة، وكان أغلبهم من قبيلة حرب.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إعلان قيام المملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى تأثيره على زيادة النشاط الاقتصادي الإنتاجي، وبالتالي التجارة والنقل نتيجة لتحقيق الأمن (يشيرون إليه في أدبيات التنمية الاقتصادية بـ "عامل الاستقرار السياسي")، بالإضافة إلى كل ذلك، قامت في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات حركة نشاط عمراني في المدن الرئيسية خاصة مدينة الرياض، ومعظم هذا النشاط العمراني تقوم به الحكومة. وقد كان هذا القطاع (قطاع البناء) يستوعب أعداداً كبيرة من العمال والمهنيين، ونسبة كبيرة منهم يأتون من منطقة القصيم. وكثير من الرجال من البكيرية كانوا يعملون في مدينة الرياض، أغلبهم في قطاع البناء ونسبة قليلة في الزراعة. هؤلاء يعودون في الشتاء إلى البكيرية حاملين معهم حصيلتهم على شكل نقود وبضائع (ملابس أو مستلزمات منزلية كالأواني والفرش والقهوة والسكر) وهذا يشبه ما نسميه هذه الأيام تحويلات العاملين إلى ذويهم في الخارج.

بداية الانفتاح

نتيجة لظهور فرص عمل في مدينة الرياض وسفر العمال من البكيرية للعمل هناك وعودتهم في الشتاء ومعهم بعض النقود والمواد المستوردة، وأمور أخرى لا تقل

أهمية عن السلع، وهي المعلومات والمعارف التي يكسبها العامل مقابل عمله أو إقامته في مدينة الرياض التي كانت تشهد تطورات متسارعة (السيارة، الراديو، الكهرباء، أناس أجانب، بضائع متنوعة وأدوات مختلفة وأطعمة وملابس مختلفة، وأساليب وطرق للتعامل مع مختلف الأمور). وبالإضافة إلى هؤلاء العمال الذين يذهبون إلى الرياض للعمل فهناك البعض يذهب لطلب العلم. فقد كان التعليم من ضمن أولويات الحكومة السعودية وقد كان في البداية مقصوراً على التعليم الديني وقد كان التعليم ليس مجاناً فقط، بل كانت هناك إعانات للدارسين منها السكن وبعض المخصصات النقدية.

هذا الباب الذي فتح لعنصر العمل قد حرك المجتمع الراكد في البكيرية من نواح عديدة اقتصادية (تحسنت أحوال كثير من الأسر) وظهر أثر النقود التي يجلبها العاملون أو التي يرسلونها إلى أسرهم، في المستوى المعيشي، في الملبس والمأكل والمسكن. كذلك الجوانب الثقافية شهدت تطوراً تدريجياً باتساع معرفة كثير من أفراد المجتمع عن كثير من الأمور بحكم احتكاك هؤلاء العاملين الذين يذهبون إلى الرياض ويعودون ومعهم بعض النقود وكثير من الأشياء الأخرى التي يظهر بعضها في البكيرية لأول مرة. ومعهم أيضاً الروايات والمشاهدات التي صادفتهم أو سمعوا بها عن مختلف شؤون الحياة السياسية والاجتماعية في الخارج والداخل.

وفي أواخر الستينيات الهجرية كان اقتصاد البكيرية قد تجاوز مرحلة أن الحكومة ألغت (الفَضّة) فقط، وتجاوز أن الحكومة تدفع مخصصات للأمير والقاضي فقط، وأن الحكومة ليست بحاجة إلى أن تقتطع من الإنتاج الزراعي (ضريبة). ففي سنة ١٣٦٧هـ افتتحت أول مدرسة ابتدائية حكومية، وقد كان جميع أعضاء الهيئة التدريسية في المدرسة كلهم من أهالي البكيرية من المدير إلى الفراش وجميع المدرسين.

وبعد سنوات قليلة (أقل من خمس سنوات) افتتحت ابتدائية أخرى (ربما لم يكن بسبب ضغط الحاجة بقدر ما كانت بسبب القدرة المالية لإدارة التعليم بالقصيم من ناحية، ومن ناحية أخرى، ربما كانت لحل إشكالات "سياسية" نشأت داخل البكيرية حول المدرسة الأولى، حول من الاحق بأن يكون مديراً لها وأي منزل يستأجر لها وما شابه ذلك).

ويلاحظ أن افتتاح المدرسة الأولى لاقى تردداً ورفضاً من بعض الناس بحيث منعوا أبناءهم من دخولها. وفي هذا الوقت أوائل السبعينيات الهجرية كانت السيارة أمراً معروفاً. فبينما كان العمال الذين كانوا يذهبون للعمل في الرياض أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات كانوا يسافرون إلى الرياض كما كان ينتقل أجدادهم قبل ثلاثة آلاف سنة، الإبل تحمل الأمتعة والأثقال، أما الرجال فمشياً على الأقدام. أما في الستينيات ظهرت السيارات للنقل بين المناطق، لكن من يريد السفر إلى الرياض من البكيرية يجب عليه أن يذهب إلى بريدة على البعير ثم يقيم فيها حتى تنطلق سيارة إلى الرياض بعد يوم أو يومين أو أكثر. ولكن في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كانت السيارات مألوفة في البكيرية ويملكها بعض أهالي البكيرية. في ذلك الوقت لم يكن في الطريق متراً واحداً مرصوفاً أو مسفلتاً أو ممسوحاً أو حتى مزود بإشارات إرشادية تبين الاتجاهات الرئيسة. وقد حدث لاحقاً وضع براميل مملوءة بالحجارة في أماكن متباعدة جداً جداً في الصحراء مرسوم عليها سهم يشير باتجاه يقول الرياض أو أي مدينة كبيرة أخرى. وقد كانت الرحلة (القصيم الرياض) تستغرق أربعة أيام وأحياناً أكثر حسب الظروف.

وكانت أكثر اللواري من نوع (فورد طنين ونصف) هي الشائعة وكان كل مسافر تقريباً يحمل شنطة حديدية كبيرة حجمها يقرب من حجم تابوت يكفي لجنازة

طفل في العاشرة من عمره، ومع الشنطة فراش مكون من أربع قطع (مخدة ومطرحة وبطانية وبساط يلفها جميعاً، ويكون حجم الفراش قريباً من حجم الشنطة). وقد استمر هذا التقليد حتى بعد انتشار السفر بالطائرة، لكنه بدأ يتقلص ويتلاشى بسرعة في التسعينيات من القرن الهجري الماضي.

ولأن الطرق كلها ترابية فإنها تختلف من منطقة إلى أخرى فهذه منطقة صخرية، وتلك قاعاً صفصفاً، وأخرى رملية واحتمالات التغريز في الرمل قائمة دائما ولذلك فكل سيارة تحمل معها صيجان (جمع صاج) لاستخدامها في تسهيل خروج السيارة من الرمل. والصيجان ألواح حديدية مستطيلة تشبه إلى حد كبير الألواح الحديدية القوية التي يستخدمها أصحاب "السطحات" لتحميل السيارات على السطحة، إلا أن "الصيجان" أخف كثيراً. وقد حل محلها الخشب بعد انتشار "الدبل" (عجلتين متلاصقين في كل جانب من العجلات الخلفية).

دوار البحر في الصحراء

ويلاحظ في ذلك الوقت أن كثيراً من المسافرين يصيبهم الغثيان عند ركوب السيارة خاصة أولئك الذين يركبون في الصندوق وليس داخل البودي (المكينة).(*) ويعتقد البعض انه بفعل الغبار الكثيف الذي يتعرضون له طوال الرحلة. ولكن الأرجح أن الغبار بريء من هذه التهمة وأن الأمر يشبه دوار البحر الذي يحدث لغالبية الناس عند ركوب البحر لأول مرة. ومن الملاحظ كذلك أنه كان من الشائع أن يعاني كثير من الركاب من الغثيان عندما يركبون الطائرة لدرجة أن الخطوط السعودية

(*) كانت الكبينة التي هي مكان السائق يسمونها (المكينة) ويقابلها الصندوق الذي يستخدمه بقية الركاب والأمتعة.

كانت تزود كل كرسي بكيس بلاستيكي يستخدمه كل من شعر أن الغثيان تطور كثيراً، ويلاحظ أن هذا الكيس لا يزال محافظاً على موقعه أمام المقاعد في الطائرة إلى يومنا هذا، لكن الحاجة إليه لا تكاد تلحظ.

ومن الذكريات عند السفر بالسيارة أنه أثناء الرحلة يمر على المسافر أنواع عديدة من مياه الشرب، كل منها يختلف في طعمه عن ما كان يشربه المسافر بالأمس، فكل يوم يشرب ماءً من مكان مختلف، له طعم مختلف. والسبب هو أنها مياه آبار جوفية ولذلك فأن طعمها سيكون حسب أنواع الأملاح الذائبة في مياه هذا البئر أو ذاك.

وفي أواسط الستينيات رأى الناس في البكيرية الطائرة عن بعد. إذ إنه كان هناك خط جوي يمر من فوق البكيرية وكانوا يعرفون أن هذه هي الطائرة ولكنهم لم يكونوا يعرفون عنها أية تفاصيل أخرى وكانت تمر عدة مرات وكانت لها ألوان مختلفة منها الاسود والأحمر بالإضافة إلى الأبيض الشائع.

وفي أواخر الستينيات أيضاً بدأت تظهر ساعة المنبه (الخراشة) وساعة الجيب وهي نادرة جداً. ومن أوائل من اشتهر بأن لديه ساعة مضبوطة الشيخ المرحوم محمد المحمود مؤذن الجامع. وقد كان جميع المؤذنين يلتزمون بألا يؤذن أحد منهم حتى يؤذن هو خاصة أذان المغرب والفجر وخاصة في رمضان لضبط الإفطار والإمساك.

وقد كانت هذه الساعة عبارة عن علبه مستديرة لها غطاء معدني يفتح ويغلق وتوضع في كيس وتربط بسلسلة. تثبت في إحدى فتحات الأزرار وتمتد إلى الجيب الوحيد للثوب وهذا الجيب تحول وتطور مكانه وشكله حتى أصبح اسمه مخباة الساعة، وهو الجيب الشائع حالياً في أعلى الصدر من الجهة اليسرى. وكان الشائع أن أي شخص يملك ساعة يد أو "خراشة" يضبطها كل يوم عند الغروب على (١٢) وأن يعشيها أي يعبئها يدوياً وإلا فإنها سوف تتوقف.

وفي أواخر الخمسينيات بدأت أعداد قليلة من اليد العاملة في وسط الجزيرة العربية تتجه للعمل في القطاع النفطي في المنطقة الشرقية (الظهران، رأس تنورة، رأس مشعاب وغيرها). وقد كان للبكيرية نصيب كبير من فرص العمل التي ظهرت في القطاع النفطي. هؤلاء العمال (معنى كلمة عمال المستخدمة هنا ليست مقصورة على الأعمال البدنية الصرفة كالحمالين مثلا، فهي تشمل قوة العمل في القطاع النفطي (سائقي سيارات ومعدات، ومشغلي مكائن وأجهزة، ومراقبين فنيين، ولحامين، وتقنيين للمعدات والسيارات وغير ذلك)، أولئك العاملين يبعثون نقوداً وسلعاً وبضائع مختلفة لذويهم، وعند عودتهم لبلدانهم في إجازاتهم يحضرون معهم نقوداً وملابس وأواني.. وغيرها). كذلك يحضرون معهم أشياء وأدوات ليست معروفة أو ليست شائعة (الساعة، الجزم بعض أنواع الملابس المتنوعة المختلفة) للرجال والنساء التي تدخل تغيرات عديدة عن ما هو معروف وشائع.

ومن التغييرات الملحوظة أن بعضهم يعود وقد حلق لحيته وربما يكون قد أطال شواربه بصورة غير مألوفة في البكيرية، وقد أحضروا معهم أشياء جديدة كالصورة الشمسية وساعة في المعصم وبعض المجلات، وبعض الكلمات الإنجليزية، والأدوات والأجهزة مثل الراديو في أواخر الستينيات وقد كان الراديو في ذلك الوقت معروفاً بصورة مشوشة (يسمعون عنه ولكن الصورة غير واضحة). وقد كان للحرب العالمية الثانية دور كبير في إبراز أهميه الراديو، وقد كان الراديو قد ظهر مبكراً في بريدة وعنيزة، وقد لقي مقاومة ومحاربة شرسة خاصة في بريدة. فقد كان بيعه ممنوعاً علناً في بريدة. والمضحك أن بطارية الراديو الجافة (وهي علبة كرتونية كبيرة مملوءة بالحجارة الكربونية المتلاصقة بانتظام وحجمها يقارب حجم كرتون الجزمة الجديدة). كانت تباع علناً ولكن الراديو نفسه محظور عرضه وبيعه علناً. وقد استمر هذا الوضع في

بريدة إلى ما بعد نهاية عقد الثمانينيات الهجرية. ومثل ذلك كان هناك منع لبيع السجائر علناً وكذلك منع للحلاقين من حلق لحى الناس وعدم حلاقة رؤوسهم إلا بطريقه واحدة وهي أن يكون قص الشعر متساوياً (صفراً، أو أطول) ولكنه متساوي. هذا في بريده وبعض قراها، ولكن الحال كان مختلفاً تماماً في مدينة عنيزة. فقد كان الراديو يباع علناً ويصدح ويعلن عن نفسه في الدكاكين.

وفي البكيرية لم يكن هناك حرب من الجهات الرسمية أو الشعبية على الراديو أو التدخين. ولكن لا يوجد مجاهرة كبيرة بذلك، فهذه أمور تستفز البعض، لكن القادمين من مناطق النفط أو حتى القادمين من الرياض أو القادمين من حاضرة المنطقة الغربية، (خاصة مكة المكرمة) قد جلبوا معهم ليس فقط بعض المال ورفع مستوى المعيشة لهم ولأسرهم، ولكن أيضا جلبوا معهم تغييرات كثيرة في الملبس والمأكل والأواني والأثاث وبعض العادات الاجتماعية المختلفة، مثل ملابس الرجال، ظهرت الجزمة (الكندرة) وأنواع الصندل الجلدي ثم ظهر الشبشب (الزنوبة).

ويمكن القول أن تحسن الأحوال الاقتصادية نشرت ووسعت استخدام النعال بمختلف أنواعها. وفي الملابس أيضا بدأ يظهر أنواع من الأقمشة الرجالية (بعضها ملون بالبني والأزرق) ولكن الملون لم ينتشر كثيراً ولم يدم طويلاً، وظهر التأنق والنظافة للثياب بشكل لافت للنظر عما كان عليه الحال سابقاً، فظهرت آلة لكي الملابس (مكواة الفحم)، وعرف لبس البيجامة داخل المنزل وحواليه، وقصات الشعر (للرجل) بالطريقة الشائعة حالياً، وظهرت تغيرات على تصميم الثياب بحيث تطور الجيب إلى الياقة الشائعة فـي القميص الغربي (ياقة وقلابي ملتصق ومرتفع في الرقبة يلامس الحنك). وحدث تغير فـي الكُم حيث ظهر الكبك. كل هذه المباحات واجهت بعض المقاومة بدرجات مختلفة لكنها لم ترق إلى درجة الحرب، بل اقتصرت

على الاستغراب والغمز واللمز على ممارسيها. وتعددت جيوب الثوب على الجانبين وبرز جيب الساعة حتى بدون ساعة وظهرت ساعة اليد التي تلبس تقليدياً بالذراع الأيسر ثم بدأ بعض الناس في فترة "الصحوة" يلبسها في الذراع الأيمن دون تبرير لماذا غيرها إلى الأيمن، ربما دون معرفة لماذا هي في الذراع الأيسر أصلاً، والتفسير المنطقي لكون الساعة ظهرت في الذراع الأيسر هو أن الناس عموماً يعملون ويستخدمون الأدوات والحركات العنيفة كالطرق والضرب وجميع الأعمال الشديدة في اليد اليمنى، وجعلت الساعة في اليد اليسرى حفظاً لها فقط، خاصة الساعات القديمة التي يسهل تأثرها بالحركات العنيفة. وأصبح السروال من الضروريات وانتشر استخدام الصابون وتراجع انتشار القمل، وانتشرت السلع المستوردة وزادت أعداد الدكاكين التي تبيع تلك السلع، وأصبح بعض أصحاب الدكاكين يذهبون إلى مدينه جدة لجلب البضائع. فقد كانت جدة تمثل الميناء التجاري الرئيسي لمعظم مناطق المملكة بما في ذلك الرياض والقصيم. لذلك ترى الشاحنات المتجهة من وإلى جدة تشكل غالبية نشاط قطاع النقل.

والشاحنات غالباً تذهب إلى جدة فارغة وتعود محملة. وقد نشأ عرف لدى سائقي الشاحنات في الطرق البرية (غير مسفلتة أو حتى ممسوحة)، والعرف هو أن الشاحنات القادمة من الغرب إلى الشرق تكون محملة بينما الشاحنات المتجهة غرباً تكون غالباً فارغة. ولذلك جرى العرف بين سائقي الشاحنات انه إذا تقابل شاحنتان في طريق صحراوي ضيق لا يتسع لمرور أكثر من شاحنة واحدة فإنه يتوجب على الشاحنة المتجهة غرباً أن تخرج وتترك الشاحنة المتجهة شرقاً تعبر الطريق أولاً، باعتبار أن (المسنّد فاضي)، والمنحدر محمّل، (المسند: المتجهة إلى منطقه مرتفعة، وهو هنا يعني الاتجاه إلى منطقه الحجاز (مرتفعة).

ومن التطورات في الملابس ظهرت الثياب الجاهزة التي تمت خياطتها بمكينة وليست خياطة يدوية، والتطور الكبير في الملابس هو في ملابس النساء، فبدلاً من "المقطع" الذي يشبه الثوب الرجالي إلى حد بعيد ولا يختلف إلا في الألوان فقد ظهرت الفساتين النسائية المخصرة (كِرتة) وقد واجه هذا التصميم لثوب المرأة حملة عنيفة في خطب الجمعة دعوة لمقاطعته وتحريمه من بعض المتشددين. وقد نسجت حولها خرافات كثيرة بعضها ينسب إلى الرؤى في المنام وبعضها يتحدث عن عقوبات إلهية عاجلة. فقد شاعت خرافة تقول بأن امرأة تلبس الكِرتِة ولدت طفلة ترهل جلدها بحيث أصبح يشبه (كرتة) من لحم.

وقد حدث تطور في عباءة المرأة حيث ظهر قماش جديد (جوخ) أخف من عباءة الصوف السائدة آنذاك، وقد لقيت هذه العباءة نصيبها من الهجوم والمعارضة باعتبارها خفيفة لا تستر ستراً كافياً رغم أن طول العباءة وعرضها وطريقة لبسها لم تختلف والفرق فقط في أن العباءة القديمة أثقل وأكثر سمكا وأكثر وقوفاً (أقل رخاوة وليونة) بحيث أنه يصعب معرفة أي تفصيل عن جسم المرأة سوى طولها.

ومع القادمين إلى البكيرية من السفر من المناطق المختلفة دخلت أيضا تطورات في تنويع الوجبات الغذائية مثل تعدد طرق تجهيز البيض وإدخال الجبن والزيتون والمربى والعسل والتونة والصلصة والحليب السائل المعلب وغيرها. كما ظهر التوسع في استخدام الأرز وتعددت طرق إعداده بإضافة بعض المحسنات ومسمياتها وإضافة السلطات إلى المائدة. ومع استمرار التحسن التدريجي لمستوى المعيشة في البكيرية اصبح اللحم (لحم الإبل) متوفر بشكل شبه يومي وتحول بيع اللحم إلى البيع بالوزن وليس مَشرَك. ونظراً لعدم وجود الثلاجات فإن الجزار يحرص على أن لا يبيت اللحم عنده، خاصة في الفصول الحارة من السنة، فتجده سمحاً يبيع أكثر الكمية بالدين.

ونتيجة للتطورات الاقتصادية واتساع السوق في البكيرية فقد جاء شخص من أصول أفريقية من المدينة المنورة وفتح أول مخبز (الخبز الأبيض)، وكان ذلك في منتصف السبعينيات وقد كان ذلك حدثاً لأول مرة أن يخبز الخبز خارج المنزل. ولكنه كان أمراً عادياً لأن أكثر الناس يعرف أن هذا منتشر في الرياض وبريدة وعنيزة وغيرها. وقد كان الإقبال عليه ضعيفاً في البداية ولكنه صمد واستمر حتى أصبح المشروع (الفرن) مُجدياً اقتصادياً.

ومن التطورات الاقتصادية توفر خدمات النقل فكان هناك عدد من المواطنين يملك شاحنة صغيرة (وانيت) والشاحنات الصغيرة كانت فورد طراز (1.8) أو (18)، لا أذكر جيداً، وهذا هو سبب إطلاق اسم وان ايت على هذا النوع من الحجم الصغير من الشاحنات. ومثل ذلك يقال على الوايت (الصهريج) فقد كان أول انتشاره على شاحنات من شركة سيارات اسمها وايت. وتذهب تلك الشاحنات الصغيرة إلى بريدة في الصباح الباكر في غالبية الأيام وتعود في نفس اليوم. وفي تلك الفترة جلب أحد المواطنين(*) طاحونة لطحن الحبوب (القمح)، وظهرت أول دراجة هوائية كوسيلة انتقال، جلبها أثنان من المواطنين في البكيرية يذهبون للتدريس في إحدى البلدات المجاورة في المنطقة ويعودون في نفس اليوم. وكان الناس ينظرون إليها بتعجب وأطلقوا عليها اسم (حصَيّن ابليس)، كما كانوا يقولون أن الأنبوب المطاطي (اللستك) الذي بداخل "الكفر" بأنه جلد خنزير.

وفي تلك الفترة أصبح الحجاج يذهبون للحج بالسيارة (الشاحنات غالباً) وقد كان هذا تطوراً كبيراً لأنه قلص مدة الحج من حوالي شهرين إلى نصف شهر تقريباً.

(*) هذا أحد أفراد الهجرة العكسية فهو كان قد سافر إلى العراق طلباً للرزق وأستقر طويلاً في مدينة البصرة واكتسب خبرة في إصلاح وتشغيل المكائن (مكائن الآبار وكذلك السيارات).

ورغم اعتبار هذا تقدماً هائلاً في تسهيل أداء هذه الفريضة العزيزة على قلوب كل الناس، فإن تصور منظر الركاب في صحن (اللوري) فوق أمتعتهم، الرجال في النصف الخلفي من صندوق اللوري بينما النساء في النصف الأمامي (المسقوف) متلاصقات لدرجة أنهن يشكلن كتلة لحم واحدة لا يفصلها عن بعضها سوى الملابس الكاملة بما في ذلك العباءة الصوفية المتينة. وفي عام ١٣٧٤هـ كانت أجرة الحاج من البكيرية ذهاباً وأياباً حوالي ١٦ ريالاً للشخص الواحد (البكيرية – مكة – منى – عرفة – مزدلفة – منى – مكة – البكيرية).

كانت النساء تتحمل هذا الحشر الخانق والحر الشديد وقلة النوم وحركة السيارة العنيفة التي لا تهدأ لأنها لا تسير على أسفلت أو طريق ممسوح. ولكن يساعدهن على التحمل أيضاً أنهن لم يأتين من غرف مكيفة أو فرش مرفهة. وكذلك كون الهدف عظيم (أداء الفريضة) ولكن طريقة رصف الناس رجالاً ونساء في تلك الشاحنات كانت قاسية جداً لدرجة أن حيوانات هذا الزمان لا تتحملها. ولو حدث هذه الأيام أن شحنت مجموعة من الحيوانات بنفس الطريقة المذكورة لاحتجت منظمات الرفق بالحيوان وربما لطالب البعض باستنكار وشجب دولي.

ويلاحظ في ذلك الوقت أن حوادث السيارات كانت قليلة جداً فلا تصادم في الخلاء، ولا حوادث انقلاب لعدم إمكانية السرعة فوق (٤٠ إلى ٦٠ كم/ ساعة) كحد أقصى. فالسرعة غالباً منخفضة لدرجة أنه كان من المشاكل التي تواجهها السيارات أنه إذا كان الهواء شديداً وفي نفس الاتجاه الذي تسير فيه السيارة (أي إنه ليس مواجهاً لها) فإن حرارة الماكينة ترتفع وكثيراً ما يضطر صاحب السيارة إلى التوقف مرات كثيرة للتبريد لأن السيارة لا تستفيد من الريح لتبريد الماكينة. وكانت السيارات القديمة تحتاج كثيراً إلى (الهندل)، وهو قضيب حديدي صلب قوي سمكه

حوالي ٢٠ ملم فيه زاويتان قائمتان باتجاهين متعاكسين لتشتغل السيارة في كل مرة فلم يكن ما نسميه اليوم (السلف) فعالاً يعتمد عليه، والليور (الليور قضيب حديدي مسطح قوي جداً يستخدم لإخراج "اللستك" من داخل "الكفر") ملازم للسيارة وأحيانا يتم اللجوء إليها في المشاجرة والدفاع والتهديد.

ومن التطورات المتسارعة في تحسين مستوى المعيشة أن تطورت وسائل الإضاءة في المنازل والمساجد بأن انتشر الفانوس الكبير الذي فيه أسطوانة زجاجية وفتيلة عريضة ويعمل على الكيروسين، وقد حل محل السراج البسيط جداً (تحول اسمه لاحقاً إلى سراج أبو تفلة، للتحقير) المكون من علبة تشبه علبة زيت الفرامل، يخرج منها خرقة مفتولة يشعلون رأسها، تشبه الشمعة العادية ويستخدم فيها الودك (الدهن الحيواني)، وقد استخدم فيها الكيروسين الذي كان يباع بمكيال ليس بعيداً عن مكيال القلابة أو الفول، والناس تشتري (الكيروسين) في قارورة في حجم قارورة الفيمتو الشهيرة. ولكن التطورات الاقتصادية لم تتوقف، فقد ظهر جهاز إنارة قوي أقوى من الفانوس بعشرات المرات، (التريك) وإضاءته ربما تصل إلى ألف شمعة ويقوم على ضغط الكيروسين بشدة. وقد صاحب هذا انتشار استخدام "الدافور" الذي يسميه المصريون (وابور الغاز). هذه التطورات لا تخلو من حدوث مآس وكوارث نظراً للجهل في طريقة الاستخدام فكثيراً ما نسمع عن أن فلاناً توفي نتيجة انفجار "الدافور"، أو صعقته الكهرباء، أو لفتة عجلة السيارة، أو لفه سير المكينة وغير ذلك من الحوادث المشابهة.

وقد كان من المناظر المألوفة أن ترى رجلاً جالساً في الشارع مستنداً إلى الحائط وإلى جانبه امرأة ملتفة بعباءتها والرجل يحمل ورقة وأداة يكتب بها ريشة أو عود من الأثل ودواة حبر، والمنظر يعني أن هذا الرجل يكتب خطاباً (يكتب خط) من هذه

المرأة إلى أخيها أو ابنها أو زوجها الغائب وذلك لقلة عدد الذين يجيدون القراءة والكتابة في ذلك الوقت. وكان الغياب طلباً للرزق في تلك الأيام يحسب بالسنوات لأن المسافر أو (الطارش) لا يريد العودة إلا بعد أن يكون قد وفر من المال ما يجعل قدومه على أهله مشرفاً يحدث فرقاً كبيراً له ولأهله، ولكي ينطبق عليه "من طول الغيبات جاب الغنايم".

ومن المناظر الشائعة أيضاً: أن كثيراً من النساء والرجال بعد سن الخمسين تظهر عليهم علامات الشيخوخة، مثل ضعف البصر الناجم (في الغالب) عن ما يسمونه الآن (الماء الأبيض)، والذي أصبح علاجه الآن شائعاً وناجحاً جداً. وكذلك يلاحظ أنه عند هذا السن (الخمسينيات) يكثر تساقط الأسنان لدى كثير من الناس، فهذا أثرم وهذا أدرد، وذاك بقية أسنانه أشتاتاً متفرقة داخل فمه. والسبب هو الجهل من جهة، ومن جهة أخرى، دور الفقر في ترتيب الأولويات. فالسواك كان معروفاً لكنه ليس منتشراً، وأكثر استخدامه لا يركز على تنظيف اللثة والأسنان بهدف حمايتها من التلف بسبب الجهل بطريقة وهدف الاستعمال من جهة، ومن جهة أخرى يغلب على استخدامه (القليل الانتشار جداً جداً) أنه مجرد استجابة للأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على التسوك، لدرجة أنه ليس من المستغرب أن يستخدم السواك شخص أدرد تماماً إتباعا للسنة فقط، ويكون استخدامه مجرد إدخاله في الفم وإبرامه وإخراجه في ثوان قليلة حيث لا يوجد أسنان على الإطلاق. ومن الملاحظ أيضاً على الناس أنهم في سن الخمسين تظهر علامات الشيخوخة في تعمق تجاعيد الوجه واليدين والرقبة بشكل ملفت للنظر مقارنة بما نراه الآن على ابن الخمسين والستين والسبعين.

ومن العادات الشائعة التي تطورت مع الفقر والحاجة، الإصرار على الضيف والزائر عند الأكل أو الشرب (القهوة أو الشاي)، بل وقد يصل الأمر إلى الحلف عليه

أن يأكل ويشرب المزيد ويصل الأمر أيضاً إلى أن يقطع المضيف له اللحم ويضعه أمامه. وقد كانت هذه العادات مبررة في تلك الأوقات نظراً لأهمية الطعام في حياة الناس في ذلك الوقت، وفي كل وقت، وفي كل مجتمع فقير. فقد نتج عن ذلك أن الناس أصبحت تراعي آداب الأكل لدى الآخرين، أي لا يظهر الشخص نهمه للأكل بل يظهر اكتفاءه وشكره، وهذا يدفع المضيف إلى أن يصرّ و"يلزّم"،(*) أولاً لتعويض عزوف الضيف المدفوع بالأخلاق الحميدة من جانب، ومن جانب آخر لإظهار الحفاوة والإكرام من ناحية أخرى. وقد وصل الأمر في بعض المناطق في جزيرة العرب أن المضيف لا يأكل مع ضيفه لكي يأخذ الضيف راحته وأن لا أحد ينظر إليه، وبعضهم يطفئ السراج لهذا الغرض.

هذه مجرد أمثلة على عادات كثيرة طورتها وكرستها الظروف الاقتصادية في جميع شؤون الحياة الاجتماعية (بمعناها الشامل) لتلك المجتمعات الفقيرة.

ومن المواقف التي يذكرها الناس في الستينيات بل حتى في السبعينيات الهجرية من القرن الماضي، أنه وبعد أن ظهر التعليم العام، أن الإقبال عليه لم يكن كاملاً في البداية فقد أحجم البعض عن إدخال أولاده في المدرسة الحكومية. وقد ظهرت عبارات تهكمية على التعليم الحكومي خاصة من أنصار تعليم الكتاتيب. وكان من عبارات التهكم أن هذه المدرسة مدرسة (خَبَزَ، عَصَدَ). وهذا إشارة إلى أن الدراسة عند المطوع تبدأ فوراً بالقرآن الكريم أما المدارس الحكومية فتبدأ بالكلمات البسيطة "السخيفة".

وهناك واقعة طريفة في هذا السياق. كان أحد الأهالي في البكيرية قد منع أبناءه من دخول المدرسة الحكومية عام ١٣٦٧هـ حيث كانوا يدرسون عند المطوع، ولكن

(*) الحلف على الضيف معروف وشائع عند العرب، ومن طرائف العرب هذه الطرفة: قيل لأحدهم ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن تحلف على الضيف ويحلف أنه صائم!.

الطلب تقلص على خدمات المطوع التعليمية بصورة كبيرة فتوقف عن التدريس. وبعد سنوات قليلة سافر أولاد هذا الرجل إلى الرياض طلباً للرزق مثل عشرات غيرهم وتنقلوا في مختلف الأعمال. وكان نصيب أحدهم أنه انتهى به الأمر إلى وظيفة حكومية كتابية في المراتب الدنيا (صغار الموظفين). بعدها طلب الانتقال إلى قطاع التعليم في القصيم وأصبح مديراً للمدرسة التي منعه أبوه من دخولها عندما كان صغيراً، علماً بأنه لم يواصل تعليمه ولم يحصل على مؤهل علمي يبرر لوزارة المعارف أن توافق على توليه إدارة المدرسة. وعلى كل حال فقد أدار المدرسة بكفاءة لا تقل عن الآخرين.

ولكن لا يدخل من بين الآخرين بالطبع الأستاذ علي بن سليمان المقوشي (المدير) رحمه الله، فقد كان قامة عملاقة عظيمة في مجال التعليم في البكيرية، فهو رائد التعليم في البكيرية دون منازع، ولا يصح مقارنته بأحد جاء بعده، فهو المدير، وهو الحكيم، وهو الوطني المخلص الذي كانت السلطات تلجأ إليه عند الفراغ "السياسي" في البكيرية (شغور منصب الأمير)، فتكلفه بالقيام بعمل الأمير حتى يتم تعيين أمير للبكيرية. وفي الإمارة أظهر إدارة حازمة عاقلة حكيمة رضي عنها جميع عقلاء البكيرية. وقد صادف وقت قيامه بالعمل أن داهم الدبا (صغار الجراد) البكيرية. فكانت إدارته حازمة ومبادرة تتخذ القرارات السريعة الحاسمة دون انتظار الدورة البيروقراطية فقد أعلن تعطيل الأعمال التجارية والدراسة دون طلب أذن من أحد، وأجبر جميع القادرين دون استثناء للخروج فوراً لملاقاة الدبا وقتاله خارج البلدة. كما قام باعتراض شاحنات كانت تحمل مبيداً للجراد في طريقها إلى بريدة قادمة من جدة وأنزل منها، عنوة، ما يكفي لإبادة الدبا الموجود دون انتظار بيروقراطية العاصمة الإقليمية (بريدة) أن تشكل لجانها، وتقسم نصيب كل بلدة وتبعث به إليها مع بعثات لجان استلام وتسليم.

ومن المشاهد أيضاً أن إلقاء نظرة على طلاب أحد الفصول الدراسية أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات سوف تظهر مشاهد وملاحظات عديدة. أولها أنهم جالسون على التراب. وفي سنة ١٣٧٢ تقريباً حصلت المدرسة على عدد من المقاعد الخشبية "الماصات" للطلاب خصصت للصفين الخامس والسادس فقط، في غرفة لا تزيد أبعادها عن ٣×٣ متر، وأن أعمارهم متفاوتة جداً جداً (لا يستغرب أن يصل فارق السن ١٠ سنوات في الفصل الواحد)، وأن ملابسهم بدأ يظهر عليها التفاوت بحسب أحوال أهل الطفل، وظهور بعض الملابس المستوردة.

ولكن يلاحظ أيضاً أن الحالة الاجتماعية إجمالاً ليست جيدة. فمثلاً: نسبة لا بأس بها من الطلاب في أحد الفصول في المدرسة (مجموعهم ٢٠ – ٢٥) أيتام أحد الأبوين أو كليهما، ونسبة كبيرة منهم آباؤهم غائبون عن البكيرية، في الرياض أو الظهران أو غيرها. ونسبة لا بأس بها عليهم أثار الجدري وقد يكون بعين واحدة أو يعاني من الحوس(*) أو العاهات الجسدية الأخرى. كما أن أمراض العيون ملحوظة كالحَمَص (عدم وجود رموش مطلقاً)، فلا يخلو الفصل من واحد أو اثنين يعاني بصورة دائمة أو مؤقتة من مشاكل العيون. وسيلاحظ المراقب أنه لا يوجد من بينهم

(*) الحوس (بفتح الحاء والواو) أو الأحوس، وهي عكس الأحنف الذي تكون قدمه منحرفة إلى الداخل، أما الأحوس فهو الذي تكون كلتا قدميه منحرفة إلى الخارج بحيث لو وقف وقفة استعداد عسكرية لشكلت قدميه رقم ٧ تقريباً وتكون مشيته مميزة تتحرك اكتافه للأمام والخلف بالتناوب أكثر من الشخص العادي. ومثل هذا الشخص يكون أقل سرعة في الركض. وهذه الحالات كانت منتشرة في ذلك الوقت ولكنها تقلصت في الوقت الحاضر. وقد يستطيع المهرة من الأطباء – وليس كل الأطباء – أن يفسر أسباب شيوع هذا النوع من العيوب الخلقية في ذلك الوقت وندرتها في الوقت الحاضر.

طفل واحد يلبس في قدميه شيئاً على الإطلاق. ففي ذلك الوقت كان الانتعال قد وصل إلى الأستاذ فقط، ولكنه لم يصل إلى الصبيان بما فيهم أبناء الميسورين. ويلاحظ أيضاً أن ملابسهم التي يرتدونها في المدرسة هي نفس الثياب التي يلعبون بها خارج المدرسة طوال اليوم، وهي التي ينامون فيها. ويلاحظ أنه يندر أن ترى من بينهم طفلاً بديناً وغالباً سوف يكون أمام بعضهم شنطة(*) حديدية سعتها وأبعادها كافية لاستيعاب بعض الدفاتر.(**)

ولم يظهر قلم الحبر إلا أوائل السبعينيات. وأول نوع ظهر منها كان يسمى الحقان (يحقن فيه الحبر حقناً)، ثم جاء بعده قلم يسمى سقاي (هو "يشفط" الحبر من الدواة بطريقة تفريغ الهواء من خزانه المطاطي). أما أقلام الرصاص فقد كانت سابقة لقلم الحبر وكانت من نوع رديء جداً لا يكمل كتابة كلمة واحدة إلا بعد ترطيبه باللسان ولذلك كان يسمى "قلم بلّ"، ثم تطور اسمه بعد أن تحسن نوعه وظهرت "البراية" وأصبح اسمه مِرسمة. ولم يوجد في المدرسة دورة مياه من أي نوع ولأي غرض ما عدا برميل للشرب فقط. ولا يوجد في المدرسة أي شيء للتأثير على الجو فالبرد برد والحر حر ولا يمكن فعل أي شيء، إلا في الحر يكون مع الأستاذ مروحة

(*) تلك الشنط الحديدية أصبحت أداة لشقاوة بعض الصبيان، حيث انتشر سلوك بعضهم بأن يتحدى الآخرين بأن شنطته أقوى من ما مع الآخرين، فينبري له أحدهم ويتحداه ثم تبدأ (مكاسرة الشناط) يضربون "شناطهم" ببعضها مثل نطاح الكباش لدرجة أن بعضها يتكسر أو يتخلخل. وقد يعمد بعض كبار الصبيان أن يضع في شنطته أشياء تزيد من ثقلها لكي يفوز بالتحدي.

(**) في السنوات الأولى لافتتاح المدرسة كان الشائع استخدام اللوح الخشبي خاصة في الصفوف الدنيا.

من السعف (مهفة)، أما الطلاب فيصبرون ولا يتذمرون من الجو، بل من المدرس أو من المادة أو من المدرسة نفسها. فالجو هو هو في البيت والشارع والمسجد وكل مكان. ويلاحظ أن غرف الفصول المدرسية ليس لها أبواب تغلق وتفتح وليس لها نوافذ.

أول بناء إسمنتي في البكيرية

ولكن هذا قد تغير لأول مرة عام ١٣٧٩هـ فقد اكتمل بناء أول مدرسة مبنية على الطراز الحديث وهي أول بناء اسمنتي مسلح تشهده البكيرية.(*) وقد استخدم لمدة ٥٥ عاماً. وقد تم هدمه كاملاً في الأعوام القليلة الماضية وبناؤه من جديد، وأرجو أن لا يكون سبب هدمه ما ينطبق عليه المثل: (قالت عندي قروش ما أدري وش أسوي فيها، قال لها: هدي حوَيتس وابنيه)، أي اهدمي منزلك وابنيه مرة أخرى، وبذلك تتخلصين من هذه النقود التي لا تدرين ماذا تعملين بها. وهذا المثل يقابله مثل مصري شهير (اللي عنده مال محِيّره، يشتري حمام ويطَيّره).

ما سبق في الصفحات السابقة هي خواطر وذكريات ومشاهدات حقيقية تشكل أمثلة قليلة واقعية تصف الحالة الاقتصادية والتطورات الناتجة عنها ودورها في صياغة معظم أوجه الحياة الاجتماعية للناس من عادات وتقاليد وسلوك ومواقف وفهم لمجريات الحياة من حولهم.

ومن البديهي القول بأن عقوداً من تصدير النفط وحاجة العالم إليه استطاعت أن تحدث تغييرات هائلة في مختلف مناحي الحياة في المملكة. وبما أن الحديث عن

(*) صاحب بناء هذه المدرسة انتشار استخدام الجزار لأوراق أكياس الأسمنت يلف بها اللحمة للزبون. وأصبحت علامة مميزة، أي ورقة اسمنت ملفوفة على شيء يعني أن هذا الشيء لحمة. كما أنه من المعروف أن الكراث يلف في غدفة سوداء.

حواضر وسط الجزيرة العربية، وبما أن النموذج هو بلدة البكيرية، فإن مروراً سريعاً على ما أحدثه النفط من نقلة هائلة في مستوى المعيشة في البكيرية خاصة في السبعينيات الهجرية وما بعدها سوف تزيد الصورة وضوحاً.

فالجوع ونقص الغذاء لم يعد يخطر ببال أحد، فقد أصبح من ذكريات الماضي ولا يتصور الشباب ما معنى الجوع لأنهم بعيدون زمنياً عن ممارسة حقيقية كانت جداتهم تفعلها لآبائهم وأمهاتهم (تقسيم الطعام بينهم لأنه لا يكفيهم)، بعيدون عن أن يروا صحن العشاء نظيفاً يلمع قبل أن يرفع فارغاً. فالجميع يحرص على تنظيف الصحن ولحسه حتى يبدو وكأنه مغسول، ويتم تشجيع الصغار وتدعيم هذا السلوك على أنه هذا يرضي الرب، وتساق أحاديث وآثار تفيد بذلك، وأنه لا يبقى في بطن ابن آدم يوم القيامة إلا (لحاس الماعون). وفي بيئة فقيرة يسهل تصديق الرواية دون تدقيق لأن مضمونها يتفق مع الأحوال المادية السائدة. يقول أحد الشباب (في منتصف السبعينيات الهجرية) لرفاقه "أنا لا أفهم كيف يقول الواحد أنا شبعت وفي الصحن بقية".

ذلك كان في بداية الفترة التي يمكن القول بأن الغذاء لم يعد يشكل هماً كبيراً، وقد سبقه الأمن أيضاً. ومثل سلوك جميع البشر، بدأ الناس يتطلعون إلى تنويع الطعام والتفنن في إعداده واستيراد صيغ وأشكال وأنواع ومواد غذائية مختلفة، ومفاخرة الآخرين بتنويعاته، وتشكيلات لموائدهم. هذا بعد أن كان الناس أخوف ما يكونوا من إصابتهم بالعين، هو اطلاع الآخرين على أكلهم وشربهم. ومثال ذلك يقال عن الملابس. فبزيادة دخول كثير من الناس أصبح التأنق في الملبس واختيار الأنواع الحديثة غالية الثمن، وتفصيلها بطرق مختلفة للمفاخرة بنوع القماش وسعره وطريقة خياطته وتصميم ياقته وجيوبه وأكمامه.

ومثل ذلك أيضاً يمكن القول عن المسكن والشكل الخارجي في التصميم والدهانات وعدد الغرف وتخصيص غرف محددة لأغراض مختلفة (مجلس، مقلط، مطبخ، مخزن، ثم لاحقاً حديقة، حوش ملعب للأطفال) حتى أصبح هناك إسراف في بناء المساكن بحيث ذهب البعض إلى محاولة جعل المنزل وكأنه قرية صغيرة تخصه وعائلته. فالمنزل أصبح يتسع لمناسبات كبيرة جداً جداً، وفيه مكان لعدة سيارات، وفيه بركة سباحة وفيه فناء كبير للأطفال يلعبون الكرة ومساحات للدراجات. الدور الأرضي للنهار والدور العلوي لليل، ولكل طفل غرفة خاصة بالإضافة إلى نصيبه من الصالة وغرفة الألعاب.

وكذلك المطبخ الذي كان البيت القديم يخلو من شيء اسمه مطبخ عدا الأسر الكبيرة الميسورة لديهم ما يسمى (موقَد)، لكنه لا يشبه المطبخ الحديث الناتج عن الثراء الذي أحدثه النفط. فالمطبخ بحجم غرفة كبيرة وبه مياه جارية وصرف للمياه وبه دواليب تتسع لأشياء كثيرة إذا نظرت إليه كأنه بقالة كاملة وبه ثلاجات و"فريزرات" ومكيف وسقفه يلمع وأرضيته كذلك وأصبح التفاخر في المواد والمعدات المختلفة داخله. بالإضافة إلى الأثاث والفرش والأرائك والمخزن وغيرها.

وفي ما يتعلق بالنقل أصبح الشخص يوقف سيارته الخاصة عند باب المنزل الداخلي، وقد يكون هناك أكثر من سيارة، كما أن المملكة تمتلك شبكة طرق برية من أفضل وأطول شبكات الطرق في العالم. والتعليم مكفول من الحكومة مجاناً من الابتدائي إلى نهاية الجامعة (بصرف النظر عن المحتوى والمستوى)، ولكن مجانية التعليم قد تدهورت في السنوات الأخيرة وأصبح التعليم التجاري ينتشر كالفطر في كل مكان ويحمل معه في كثير من الأحيان سوس تخريب التعليم تحت سمع وبصر وتشجيع وزارة التربية (التعليم حالياً). وقد ظهرت وسائل الإعلام من صحافة

وإذاعة وتلفزيون وأصبحت هذه الوسائل تغطي جميع أرجاء المملكة وربما خارجها (وبصرف النظر مرة أخرى عن المحتوى والمستوى).

وبالنسبة للصحة فإن الرعاية الصحية الأساسية كالتطعيمات للأطفال، فقد أصبحت المملكة من أنجح دول العالم في مكافحة أمراض الأطفال. والعناية الصحية مكفولة للجميع مجاناً. ولكنها مثل التعليم أنفق عليها الكثير ولم ينعكس هذا الإنفاق على جودة الخدمة.

ويبدو أن النجاح في القضاء على الفقر المادي (الأمن، الغذاء، الملبس، والسكن والعناية الصحية للأطفال ومكافحة الأمراض السارية) قد خلق بيئة ملائمة لانفجار سكاني رهيب. وهذا بعكس ما تشهده كثير من بلدان العالم التي تحسنت فيها الأحوال الاقتصادية، وانخفضت فيها الزيادة السكانية.

ويحسن هنا إيراد مثال من الذكريات. في عام ١٣٧٥هـ في مادة الجغرافيا في السنة السادسة الابتدائية (كانوا يسمونها "تقويم" واسم الكتاب المقرر "تقويم البلدان")، في ذلك المقرر كانت الإحصائيات السكانية كالتالي (مصر ٢٠ مليون، الهند ٣٥٠ مليون نسمة) بريطانيا، فرنسا، ايطاليا جميعها كل واحدة منها حوالي ٦٠ مليون نسمة أو اقل قليلاً. أما الآن فمصر ٩٠ مليون، الهند أكثر من ١٠٠٠ مليون، أما بريطانيا وفرنسا وايطاليا فكل منها لا يزال قريباً من ٦٠ مليون. أي أنه بعد ستين عاماً لم تحدث زيادة سكانية تذكر في الدول الصناعية الغنية.

ونتيجة للثورة أو الانفجار السكاني في المملكة لم تستطع وزارة التربية ووزارة الصحة ومداخيل النفط أيضاً مواكبة هذا الانفجار السكاني غير المنضبط. بل إن الأمر لم يطرح للنقاش الجاد، ربما بسبب التوقف عند نص شريف قد يكون بحاجة إلى فهم ينطلق من رؤية شاملة للمصلحة العامة بعيدة النظر لمستقبل هذا البلد العظيم.

ولقد بذلت جهود كبيرة في خطط التنمية الخمسية المتعاقبة لما يقرب من نصف قرن، نجحت في كثير من أهدافها (الكمية غالباً) وفشلت في بعض الأهداف ومن أهمها تنويع مصادر الدخل وتقليص الاعتماد على النفط الذي بدأت التحديات الجادة له تلوح في الأفق.

ومن الأهداف التي كان النجاح فيها ليس كما يتمناه المواطن هو في مجال التربية والتعليم والثقافة والإعلام، فلا تزال الخرافة وضحالة التفكير والإيمان بالشعوذة والهروب لإرجاع كثير من المشاكل الصحية والنفسية إلى العين والحسد والسحر، مما جعل سوق الدجالين والمشعوذين والعطارين أكثر رواجاً من طرق العلاج القائم على العلوم التجريبية الحديثة. وأخطر ما فشلت فيه أجهزة الإعلام والتعليم هو ضعف جهودها في خلق درجة مقبولة من التوافق في الرأي العام على كثيراً من القضايا العامة التي يندر أن ينقسم حولها كثير من شعوب العالم.

ومن الآثار السلبية للثراء النفطي الإفراط في الاعتماد على خدم المنازل واحتقار العمل وهو وضع فريد لا تجده في الدول المتقدمة المنتجة الأكثر ثراء من بلدان الخليج.

ومن أمثلة التأثير المباشر لدور الاقتصاد في حياة الناس وقراراتهم في الخمسينيات وما قبلها كان الناس يفضلون تزويج بناتهم للفلاح، وفي الستينيات ومع ظهور الوظيفة الحكومية أصبح الموظف هو فارس الأحلام، ثم بعد طفرة التسعينيات الهجرية أصبح رجل الأعمال أفضل كثيراً من الموظف "الكحيان". والآن وبعد أن اصبحت تكاليف المعيشة أمراً غير ميسور لكثير من الشباب فقد تأخر سن الزواج للشباب لأسباب اقتصادية، وأصبح الشاب يبحث عن موظفة ليتزوجها لأسباب اقتصادية، كما ارتفع سن الزواج للفتيات إلى ما فوق الخامسة والعشرين لأسباب أكثرها اقتصادية. وارتفعت نسبة الطلاق لحديثي الزواج لأسباب اقتصادية مباشرة وغير مباشرة.

وقـد غير تحسن الظروف الاقتصادية سلوك الناس وعاداتهم فـي الولائم، وفي الأعراس، وفـي المآتم والعزاء. فحفلات الأعراس لا تحتاج إلى تعليق حول البذخ والإسراف والتبذير ومـجالس العزاء وولائمه كذلك. وقد شاعت طريقة تقديم الطعام (بوفيه)، لا تعرف "المفاطيح"، كذلك يمكن للشخص حضور حفلة عرس ويخرج قبل تقديم الطعام ولا تثريب عليه. ومعظم الحضور لا يعرف بعضهم بعضا، عدد الجنب لم تعد أهميته بنفس المستوى قبل خمسين عاماً. ولقد مرت فترة فـي طفرة التسعينيات الهجرية، أصبح الشاب يبحث عن عدد مناسب من الأقارب والمعارف لكي يرافقوه (جَنَب) ولا يجد عدداً يعتبره يكفي لما يرغب فيه هو وما يتوقعه واستعد له أهل الزوجة، فـي ذلك الوقت كان البعض يُكرِه نفسه علـى الذهاب مع (الجنب) من باب (الفزعة) لهذا المسكين الذي قـد يظهر أمام أهل الزوجة أنه قليل القيمة عنـد أقاربه ومعارفه.

ومن الممارسات التي تغيرت نتيجة للتطور الاقتصادي أيضاً، موضوع أن القادم إلى المدينة التي له فيها أخ أو ابن عم أو قريب أن يذهب ويسكن عنده، فقد تقلصت هذه العادة وأصبح الناس يسكنون في الفنادق والشقق المفروشة ويزورون قريبهم. مع أن هذا السلوك قد واجه مقاومة و(غضب من البعض) ولكن الاقتصاد مع الوقت يخلق ويفرض حقائقه في حالة تدهور الأحوال الاقتصادية كما في حالة الرخاء والوفرة الاقتصادية، فالاقتصاد غالباً هو الذي يخلق العادات والأعراف والتقاليد وهو الذي يطوعها ويطورها بل ويبدلها بنقيضها.

ومن النتائج غير المباشرة لأثر النفط في مجال التعليم والثقافة، وبرغم التحفظات على نوعية مـخرجات التعليم، إلا أن هناك تطور هائل فـي مسيرة التعليم. فبعد أن كان مقصوراً علـى التعليم الديني المقصور على عدد مـحدود جداً مـن المواد التعليمية

الدينية والاعتماد على عدد محدود جداً من المراجع، فقد تطور هذا إلى انفتاح كبير جداً في عدد وتنوع العلوم كالطب والهندسة والفلك والرياضيات وغيرها من المواد الفرعية وتنوعت المراجع خاصة في كتب الفقه. وقد نتج عن ذلك أن اتسعت معارف طلاب العلم الشرعي مما انعكس على مواقفهم من قضايا كثيرة تتعلق بأحكامهم وفتاويهم في كثير من الأمور، ليس فقط في العبادات، ولكن أيضاً في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية (الزواج والطلاق وما يتعلق بها)، وفي فقه المعاملات، فكثيرة هي الأحكام والفتاوي التي كانت سائدة في الخمسينيات والستينيات وحتى السبعينيات، قد تعرضت للمراجعة وأصبحت هناك فتاوى وأحكام شرعية تختلف اختلافاً كبيراً جداً عن مواقف وفتاوى سابقة لقضايا وحالات مشابهة.

وقد ساعد على هذا الانفتاح وجود أعداد كبيرة من المدرسين في المعاهد والكليات الدينية من بلدان عربية تنتشر فيها مذاهب أخرى غير المذهب الحنبلي. وليس هذا فقط، ولكن هؤلاء، لا يأتي الواحد منهم مزوداً بفقه مذهب بلده فقط، ولكنهم في الغالب يأتون متمكنين من دراسة المذاهب الأخرى. ومن هنا يظهر دورهم في توسيع وتطوير المناهج، مما يسمح بالاطلاع على آراء المذاهب الأخرى في القضايا الفرعية المختلفة حتى لو لم يؤخذ بها بل وحجبها عن "العامة".

وقد اعتمدت الحركة التعليمية على المتعاقدين من الدول العربية الأخرى اعتماداً كبيراً وفي وقت مبكر جداً خاصة في المدن الكبيرة. أما في البلدات الصغيرة مثل البكيرية فقد تأخر هذا إلى عام ١٣٧٤هـ حيث جاء مدرس واحد من غزة وبعدها بسنتين جاء ثلاثة مدرسين من مصر وفلسطين. وفي ذلك العام دخلت مادة التربية الرياضية ومادة الصحة والعلوم.

أول برنامج "سعودة"

وقد واجهت الوزارة بعض المشاكل في إرسال المدرسين المتعاقدين إلى قرى لم يسبق لأكثر أهلها أن رأى أحداً يختلف لونه ولباسه ولهجته ولحيته وشواربه. وربما يدخن ولا يحضر صلاة الجماعة خاصة الفجر ... الخ.(*) وربما كان هذا أحد أهم دوافع أول برنامج "سعودة" في أواسط السبعينيات الهجرية حيث قررت وزارة المعارف إنشاء معاهد معلمين ابتدائية، أي معاهد تخرج مدرسين للمدارس الابتدائية. هذه المعاهد تعادل المدرسة المتوسطة، ثلاث سنوات بعد الابتدائية ويتخرج الطالب مدرساً. وقد كان انتشار هذه المعاهد في المدن والبلدات الصغيرة قبل كبريات المدن. فمثلاً معهد المعلمين في البكيرية أنشئ عام ١٣٧٦ قبل إنشاء معهد الرياض ١٣٧٧. وقد حولت بعض المدارس المتوسطة إلى معاهد معلمين في بعض المدن منها معهد البكيرية فقد كان في أول عام ١٣٧٦ مدرسة متوسطة وبعد شهرين تقريباً أصبحت معهد معلمين ابتدائي.

وقد وقعت مشكلة عند تخريج أول الدفعات لتلك المعاهد، فالطالب يتخرج وعمره خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة، والوزارة متلهفة لتعينه مدرساً ليسد حاجة متنامية لمزيد من المدرسين، ليس فقط لإكمال العدد والنصاب ولكن أيضاً لأنهم قادرون على تدريس مواد أضيفت حديثاً للمناهج كالرياضة والصحة والعلوم والتربية الفنية وحتى الحساب والهندسة، لأن كثيراً من المدرسين كانوا من خريجي الكتاتيب. والمشكلة التي وقعت هي أن توظيف هؤلاء الخريجين الصغار يصطدم بنظام الجنسية الذي يحول دون منح (حفيظة نفوس) قبل سن الثامنة عشرة. وبدلاً من حلها بقرار أو نظام استثنائي تم اللجوء إلى أسهل الطرق وهو "التزوير" زيادة أعمار

(*) في ذلك الوقت كان الشائع أن يتم تفقد جميع الذكور (من سن الخامسة عشر مما فوق) للتأكد من أنه يحضر صلاة الفجر في المسجد، ويعاقب من يتكرر غيابه.

هؤلاء الخريجين على الورق لكي يعطى حفيظة نفوس تخول وزارة المعارف لتعيينه موظفاً رسمياً مدرسا فيها. وهكذا كان لكثير جداً من خريجي معاهد المعلمين الابتدائية. ورغم أن هذا الحل (سعودة التعليم في القرى) ليس مثالياً بل وليس جيداً من الناحية التربوية، إلا أنه قد خدم هدف وزارة المعارف بتجنب مشاكل أهالي البلدات الصغيرة مع المدرسين المتعاقدين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى في جانبه الاقتصادي (توزيع الدخل) بتوظيف السعوديين. وقد كان مجموع خريجي معاهد المعلمين الابتدائية في جميع أنحاء المملكة عام ١٣٧٨هـ هو (٨٨) طالباً منهم (٥) طلاب فقط من معهد البكيرية.

وقد كان عام ١٣٧٩ هو عام الاكتفاء الذاتي من المدرسين في المدارس الابتدائية في البكيرية. فلم يعد هناك متعاقد واحد في التعليم الابتدائي في البكيرية بعد عام ١٣٧٨هـ. وقد حولت هذه المعاهد إلى مدارس متوسطة مرة أخرى في أوائل الثمانينيات عندما حققت الهدف المرسوم لها.

ومن المفيد الإشارة إلى أن خريجي معهد البكيرية أو بريدة والمذنب أو غيرها لم يساهموا في حل مشكلة هذه المدن والبلدات فقط، ولكنها حلت المشكلة في قرى كثيرة محيطة بمدينة بريدة أو البكيرية وغيرها. فقد كانت مشكلة الوزارة مع أهالي القرى الصغيرة والنائية، فلا المتعاقد سعيد بالعمل في تلك القرى والجو "العدائي" المملوء بالشك والريبة من هذا الغريب، ولا الأهالي سعداء في وجود هذا "الغريب".

شبكة المياه

وفي أوائل الثمانينيات حصلت البكيرية على شبكة مياه في وقت أبكر من بلدات أخرى مقاربة لها في الحجم السكاني. وربما كان هذا بسبب همة وعزيمة وإصرار أمير

البكيرية آنذاك محمد بن يوسف بن دخيل الله رحمه الله، فقد كاد مشروع شبكة المياه أن يعطى لبلدة أخرى بحجة أن الإدارة ليس لديها خريطة للبكيرية تعتمد عليها لتنفيذ الشبكة. لكنه سرعان ما قام بجهد شخصي، وبحكم معرفته بالرسم فقد قام برسم خريطة دقيقة (يدوياً) بمقياس رسم دقيق لكامل القطعة الجغرافية التي تقوم عليها منازل البكيرية في ذلك الوقت وقدمها لمديرية الزراعة، ونفذت الشبكة باعتماد تلك الخارطة بعد أن تأكد المهندسون من صحتها.

ودخول الماء للمنازل في ذلك الوقت كان يعني الشيء الكثير للنساء وهو توقف ذهاب النساء إلى الحسو عدة مرات في اليوم لجلب الماء اللازم للاحتياجات اليومية. ولا حاجة لذهاب النساء للحابوط أو الحسو الحلو لجلب ماء الشرب للمنزل يومياً. ولا حاجة لذهاب المرأة إلى الحابوط لغسل أواني عشاء الأمس أو بعض الملابس. فلم يخطر على البال في البداية المرحاض والصرف الصحي، بل كان زوال الهم اليومي لجلب الماء اللازم وزوال التقشف الشديد جداً والزائد عن الحد في استخدام المياه. وقد يكون هذا هو أحد أسباب الإسراف في هدر المياه الشائع في سلوك كثير من الناس في الوقت الحاضر. فقد كان مبدأ أن يأتيك الماء إلى مقر سكنك أمراً لا يخطر على البال حتى عند أوسع الناس خيالاً، ولذلك كان دخول الماء إلى المنازل ينظر إليه على أنه من عجائب الدنيا لدرجة أن أحد كبار السن كان يسمع حديث الناس في أواخر الثمانينيات عن نزول أول إنسان على القمر، والجدل الذي شاع عن صحة ذلك، بين مصدق ومشكك، وكان هذا الشخص المسن ربما لا يستطيع استيعاب ما يقال ولكنه قال "هين ما هيب العجبة بالقمر، العجبة "بزبوز" الحكومة متى ما بغيته افتحه لا دلو، ولا زعابه، ولا وين قدري، ولا وين "حِصرِتي".(*) فقد

(*) الحِصرة: دائرة من القماش متينة بحجم وشكل خبزة الشريك الصغيرة أو حبة ال – دونت – الدائرية الكبيرة وظيفتها وقاية رأس المرأة من ثقل قدر الماء.

كانت النظرة إلى أن مشكلة الماء هي في جلبه للمنزل أما استخدامه فقد كان في البداية الاستخدام العادي للضرورة، ولكن وجود الماء المجاني داخل المنزل قد فتح آفاقاً كثيرة لاستخدام الماء.

أما بالنسبة للكهرباء فقد كان ينظر إليها على أنها الإضاءة فقط وقد قامت شركة كهرباء صغيرة في البكيرية في أواسط الثمانينات وسرعان ما تعاظم الاعتماد على الكهرباء من عدد قليل من "اللمبات" إلى مراوح، ثم مكيفات، ثلاجات، فريزرات وما شابه ذلك.

وعند ذكر الكهرباء يتداعى إلى الذهن ضحايا التكنولوجيا وحوادثها. فقد كان لدخول هذه الآلات والسيارات واستخدامات المواد الكيميائية الحارقة والمواد القابلة للاشتعال أو الانفجار، كان لها ضحايا كثر نتيجة الجهل. والاستهتار بالالتزام بالتعليمات بشكل دقيق، فقد ذكرت حوادث كثيرة نتيجة نزول البعض من السيارة وهي تتحرك وبدون حذر وكان من نتيجتها أن انتهى تحت عجلات السيارة، وهناك من تعرض للصعق الكهربائي، وهناك من انفجر في وجهه غاز أو كيروسين، ومثلها العبث بالسلاح الناري.

كل ما ذكرناه في الصفحات السابقة مجرد أمثلة قليلة استخدمت للمقارنة بين ما كان عليه الحال قبل النفط وبعده، وكان التركيز والإيضاح لفترة ما قبل النفط، أما فترة ما بعد النفط فإن القارئ يشهد ويلمس التطورات في الغذاء، والدواء، والكساء، والمأوى، والتعليم، والنقل، والاتصال، والمعرفة بالعالم. ويستطيع مقارنة أحوال الإنسان في حواضر وسط جزيرة العرب قبل النفط وأحواله في الوقت الحاضر الذي لا يمكن لأي عاقل أن يتجاهل أثر النفط (أي أثر الاقتصاد) في كل التطورات التي شهدها وسط جزيرة العرب وقاطنيه.

الحنين للماضي "الجميل"

وتجدر الإشارة هنا إلى ما يتردد كثيراً على ألسن البعض أحياناً عفواً وأحياناً كثيرة جهلاً، ألا وهو ما يمكن أن نسميه الحنين إلى العصر الذهبي (عصر ما قبل النفط). فمن قائل "الله يعيد هاك الأيام"، دون أن يفكر أو يتدبر حقيقة ما يقول، فإن قيل له الله لا يعيد تلك الأيام، جوع، وجهل ومرض، وخوف، وحرمان من جميع هذه النعم التي نحن فيها، وإذا كنت ترغب في العودة إليها فما الذي يمنعك من أن تفصل الكهرباء والماء عن بيتك، وتترك سيارتك وأحذيتك، وترمي جوالك، وساعتك، وقلمك، وتلبس ثوباً خاماً، وتشرب ماء هماج، وتأكل تمراً ولبناً وخبزاً نصفه شعير، كل يوم، وتستخدم حطباً... الخ وتعيش على الصورة التي ذكرناها في الصفحات السابقة. إذا قيل له كلاماً كهذا، قال لا أنا ما اقصد هذا، الحمد لله على هذه النعم، ولكن أقول أن الأولين، الناس، كانوا طيبين ومتعاونين وقلوبهم طيبة ويتراحمون بينهم والحياة كانت جميلة ويحن لها الواحد... إلى آخر العبارات التي تسمع دائماً.

الواقع أن هذا الشخص وأمثاله، كثيراً ما يخلط بين مشاعره الشخصية وهو الآن في السبعين أو الثمانين وبين ذكرياته المنتقاة (الشباب، الصحة، الأمل، الأمن الذي يمثله مجتمع القرية الخالي من المفاجآت). فالأعراف، والتقاليد، والعادات كلها معروفة ومستقرة ومعروفة للجميع، والناس يعرفون بعضهم ويطمئنون لبعضهم والشخص بين أهله وعشيرته في البيت والمسجد والشارع والجيران ... الخ. وهو يقارن الحياة الاجتماعية في مجتمع قروي كل الناس تعرف بعضها، مجتمع تنعدم فيه فرص النصب والاحتيال والخيانة والسرقة وما شابهها، ليس بسبب أن طبيعة هؤلاء نقية، فهم بشر مثل غيرهم ويمكن أن يتصرفوا بطريقة مختلفة إذا اختلفت الظروف.

أخلاق المدن

الشياطين تكثر وتنشط في المدن

ولكن الحياة في المدن وأخلاق الناس تختلف، فالمدن لها أخلاقها (السلبية). فيها إمكانيات النصب والاحتيال، فالناس لا تعرف بعضها، والمجرم يمكن أن يرتكب الجريمة ويذهب ولا يتم العثور عليه، ويمكن أن يسيء الأدب ولا يعرف أحد من أهله ومعارفه أنه أتى عملاً سيئاً، وفي المدينة لا أحد يثق بأحد لا يعرفه، وهذا أمر طبيعي، وفي المدينة تحدث المخالفات الأخلاقية، والمالية، والارتشاء، وشهادة الزور، وكل ما يخطر على البال، فالشياطين تعمل في المدن أكثر مما تعمل في القرى. وفي هذا الجو الاجتماعي المختلف اختلافاً جذرياً عن الجو الاجتماعي للقرية، يشعر المرء أن كل خطوة يخطوها يجب عليه الانتباه والحذر، وهذا يشكل عبئاً يضيق به الفرد، خاصة من كان قد اعتاد على مجتمع القرية وبساطته.

والبعض يردد عبارة الحنين إلى الماضي لمجرد الاعتقاد بأن ما يقوله جده أنه دقيق وكامل. ولو أمعن النظر في ما يرويه جده في مناسبات أخرى عن أن الناس في "الزمن الجميل" (قبل النفط)، أنهم متكاتفون متسامحون، متعاونون، متحابون، قلوبهم طيبة، وكل هذه الصفات الوردية لأهل ذلك الزمان، نقول لو أمعن النظر واستمع إلى بعض قصص وحكايات نفس الشخص (جده) عن مشكلة فلان مع فلان، وعن طمع فلان بأرض فلان، أو إرث فلان، وأن فلاناً يكره فلاناً، وأن فلاناً وشى بفلان، وأن فلاناً وفلاناً ذهبا إلى القاضي يتخاصمان ولم يرض أحدهما بحكم القاضي فذهب يطلب محكمة في بلد آخر، وأن فلاناً فعل كذا وكذا نكاية بفلان، وأن فلاناً "ذمته أرهف من دين اليهودي"، وأن فلاناً لا يعرف الصدق، وأن فلاناً

"بطول" ... الخ. هذه الصفات التي يطلقها البشر على بعضهم صدقاً أو كذباً. ولكنها صور للبشر موجودة في كل مكان وفي كل زمان مع اختلاف في الدرجة حسب الظروف المحيطة والثقافة العامة للمجتمع، وهكذا. ولو أننا دققنا في روايات هؤلاء الأشخاص عن الزمن القديم وأخذنا روايتهم الواقعية، وليس رأيهم، لوجدناها تعكس الحقيقة التي ذكرنا كثيراً من صورها في الصفحات والفصول السابقة، ولخرجنا باستنتاج قاطع هو .. "الله لا يعيد تلك الأيام".

وهنا يحضرني موقف عن شخص كان يتحدث عن فترة قضاها في السجن وكان في ثنايا حديثه كأنه يحن إلى أيام السجن (لا شعورياً). ولكن ربما كان في السجن لديه ميزة أنه يشعر بالأمن التام لدرجة أنه لو كان مطلوباً بدم فإن أصحاب الثأر لن يصلوا إليه، وربما أنه كان مرتاحاً من أي التزام فغذاؤه وكساؤه ومأواه مكفول، وربما أيضاً أنه كان قد بنى علاقة حسنة مع المسؤولين في السجن تخفف عنه تلك الوحدة... وهكذا. خلاصة القول هنا أن الحنين إلى عصر ذهبي سابق ليس مبنياً على حقائق بقدر ما هي مجرد تخيلات انتقائية غير واقعية، "عسى الله لا يردها". ولكن لا شك أن لكل بيئة اجتماعية واقتصادية وثقافية لها همومها وتعقيداتها ومشاكلها، مع الاعتراف بأن المدن لها شخصيات تختلف اختلافاً كبيراً جداً عن القرى، ولكن في كل الأحوال "تعب هي الحياة" أو كما يقول التعبير الشعبي "ما على ظَهَرَه مستريح" أي أنه لا يوجد على ظهر الأرض أحد مرتاح من هموم الدنيا.



صورة رقم (٢٥). البكيرية صورة جوية حديثة وتظهر في وسطها البلدة القديمة (1960*) محددة بخط أسود.

الخاتمة

لقد كان من أهم أهداف هذا الكتاب تسليط الضوء على الدور الحاسم للعامل الاقتصادي في صياغة وتوجيه الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات البشرية. ولتحقيق هذا الهدف فقد كان من البديهي أن يكون التاريخ هو المصدر الأكثر صدقية وكفاءة والذي يجدر بنا اللجوء إليه لمعرفة الوقائع الاقتصادية وتطوراتها، وما يصاحبها من تحولات اجتماعية وثقافية متعددة الجوانب. ونظراً لشمولية واتساع مجال التاريخ لشعب أو منطقة من المناطق فقد تم التركيز على التاريخ الاقتصادي وأهم العوامل المؤثرة فيه وأهم آثار التطورات الاقتصادية على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد وأعراف وقوانين وسلوك وطرق تفكير وغيرها.

وقد تم اختيار دراسة التاريخ الاقتصادي لمناطق وسط جزيرة العرب قبل النفط مع إلماحة إلى فترة ظهور النفط والتغيرات الهائلة التي أحدثتها تلك الثورة الاقتصادية العظيمة من تحولات وتطورات اجتماعية شاملة.

ونظراً لصعوبة الإحاطة بكل بؤرة من البؤر الحضرية المنتشرة وسط جزيرة العرب الشاسعة من جهة، وعدم ضرورة ذلك من جهة أخرى لأنه لن يضيف الكثير بسبب التشابه الكبير بين كثير من البؤر الحضرية اقتصادياً واجتماعياً. ولذلك فقد تم

الاكتفاء بدراسة التاريخ الاقتصادي لبلدة البكيرية في فترة ما قبل ظهور النفط ببضعة عقود مع إطلالة على العقدين التاليين لظهور النفط بهدف إيضاح الدور الذي يلعبه الاقتصاد في تشكيل وتوجيه الحياة الثقافية والاجتماعية على المجتمعات البشرية.

وقد تم تقديم وصف عام لأهم ركائز اقتصاد بلدة البكيرية منذ نشأتها أواخر القرن الثاني عشر الهجري وأهم القطاعات الإنتاجية والصادرات والواردات والتقنيات المستخدمة والسكان والنمو الاقتصادي إلى حين قيام المملكة العربية السعودية أوائل الخمسينيات من القرن الرابع عشر الهجري.

وأثناء دراسة التاريخ الاقتصادي للبكيرية كانت الإشارة للأحوال الاجتماعية الثقافية (عادات وتقاليد وأعراف، وقوانين، ومستوى التعليم والصحة والمعارف العامة، والملابس، والسكن، وغيرها من مفـردات الحياة اليومية والموسمية للناس آنذاك). والإشارة إلى دور الاقتصاد فـي جعل تلك الأحوال الثقافية (بمعناها الشامل) تتحـدد بتلك الصور التي تم تفصيلها في مختلف فصول الكتاب والتي يمكن تلخيصها كالتالي:

إن النشاط الاقتصادي كان من نوع (الاقتصاد الطبيعي) أي الذي يرمي إلى تحقيق العيش الكريم دون التطلع إلى أنشطة اقتصادية رأسمالية تسعى إلى تنمية رؤوس الأموال. وقد كان واضحاً التركيز على الزراعة وخاصة التمور والقمح، وتدني مستوى التجارة، وتدني مستوى التقنيات والمعارف الإنتاجية.

وقد ظهر أن ذلك انعكس على مستوى المعيشة حيث كان مستوى متدنياً يلامس الكفاف الأدنى معظم الأوقات ويعاني من موجات الفقر المتكررة خاصة مواسم القحط أو الحروب أو الكوارث الطبيعية كالجراد والكوارث الناجمة عن أحوال الطقس. وبما أن الوضع الاقتصادي هش جداً فقد كان معرضاً دائماً لهذا النوع

أو ذاك من أسباب الشح والفقر والجوع أيضاً. وكان هذا حال بقية حواضر وسط الجزيرة العربية طوال التاريخ، خاصة الحواضر شبه المنغلقة.

وعند توحيد المملكة ظهر تحسن في الأحوال الاقتصادية نظراً لتوسع السوق تبعاً لتحقيق الأمن، والنقود، والأنظمة، ووجود قطاع عام وغيرها. ولكن ظهور النفط هو الذي أحدث ثورة اقتصادية بكل ما تعنيه هذه العبارة (ثورة اقتصادية).

وقد لحظنا القفزات الاقتصادية التي غيرت مستوى المعيشة وجميع مفرداته. أنتهى الجوع، تحسنت الصحة والتعليم والملبس والمسكن واتساع المعرفة بالعالم الخارجي وتطور أدوات الإنتاج. وتبعاً لذلك فقد تم تغير وتطوير كثير من العادات والتقاليد المعيشية المباشرة أو بعض السلوك في كثير من شؤون الحياة.

ولعل إيراد بعض الأمثلة عن العادات والتصرفات وبعض أنواع السلوك التي كانت تمارس قبل النفط ثم هجرت أو طورت أو تقلص التمسك بها. ولعل تقديم بعض النقاط المحددة تبين بها لا يدع مجالاً للشك بأن الاقتصاد يلعب دوراً حاسماً في توجيه الحياة الاجتماعية للشعوب في خلق عادات وتقاليد وأعراف، وقوانين وسلوك، وكذلك تطور هذه العادات وتغييرها أو إحلال عادات أخرى مكانها. مع ملاحظة أن هذا لا يعني إلغاء دور أي مؤثر آخر في سلوك الناس وتفضيلاتهم واختلاف وجهات نظرهم في أمور كثيرة.

والنقاط التالية تشير في الغالب إلى تغيرات جذرية في عادات ومظاهر وأنواع من السلوك لأسباب اقتصادية مباشرة أو غير مباشرة. كما أن هذه النقاط التالية هي مجرد أمثلة يمكن لأي شخص عاش وسط جزيرة العرب في تلك الفترة أن يضيف إليها الكثير. ولكن هذه النقاط ربما تكون كافية لإثبات هدف الكتاب المتمثل بالقاء الضوء على دور الاقتصاد في صياغة وتوجيه الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع.

هذه النقاط تشير دائماً إلى مفردات مرت تفاصيلها في ثنايا الفصول السابقة.

في النقاط التالية (وهي مجرد أمثلة) يتضح الدور الحاسم المباشر وغير المباشر للاقتصاد في تغيير العادات والأعراف والسلوك والمواقف، بعد النفط وتحسن الأحوال الاقتصادية:

- الصبيان لا يقفون عند باب أهل الوليمة ليدخلوا على بقايا الأكل بعد الضيوف.
- ذهبت مناسبة "عيد العمَر".
- ذهبت مناسبة وضع العيد في السوق.
- لم يعد الأكل من بين الأشياء التي يعتقد الناس أنه من الأسباب الرئيسية للإصابة بالعين.
- لم يعد الفلاح هو فتى الأحلام لأهل البنت.
- تراجعت الأمية الأبجدية إلى نسبة ضئيلة جداً من السكان.
- الصحة العامة والوعي الصحي تطور إيجابياً بمراحل كبيرة ويظهر ذلك على طلاب المدارس وعامة الناس.
- لم يعد الطعام أهم ما في المناسبات.
- لم يعد الفرق في المظهر الخارجي كبيراً بين ابن الخمسين وابن الخامسة والسبعين.
- أصبحت الهدايا ورود بدون رائحة، أو حلويات بدلاً من الأساسيات الملابس والطعام.
- تقلص إلى حد كبير جداً سكن الشاب المتزوج مع أهله في نفس المنزل.
- تقلص لعب الأطفال في الشوارع ربما بسبب السيارات ووجود الغرباء وكثرة السكان.

• لم يعد إمام المسجد يحظى بنفس درجة الاحترام السابق حينما كان هو المتعلم الوحيد تقريباً في الحي.

• نادراً ما يصاب أحد بالغثيان من ركوب السيارة أو الطائرة مثلما كان شائعاً من قبل.

• لم يعد الناس يقومون بزيارة بعضهم فجأة، بل في الغالب يتم الترتيب المسبق.

• تقلصت إلى حد كبير عادة إرسال "طعمة" للجيران عند طبخ أي شيء من الأنواع غير المعتادة يومياً.

• كان الفقر يسبب الأمراض الناجمة عن سوء التغذية وهي معروفة ومحددة، أما الآن هناك أمراض أخرى، سببها سوء التغذية رغم وفرة الغذاء.

• لم يعد غريباً في الشارع أو المسجد أو المدرسة شيوع السمنة بين الناس ولم يعد السمين يخشى الحسد والعين بل العكس أصبح النحيف هو المحسود.

• انقرضت مناسبة وليمة ختان الصبيان.

• تقلصت كثيراً ممارسة الإصرار والحلف وتقطيع اللحم للضيف.

• انتشرت طريقة "البوفية" وكذلك تقديم الطعام بأوان كبيرة وكل يختار ويغرف النوع والكمية التي يريدها بنفسه.

• فقد خشب الأثل أهميته وأصبح مهملاً تماماً، كما فقد التمر أهميته كأهم وجبة غداء وتحول إلى مجرد فاكهة.

• أصبح الصغار وكثير من الكبار يقرف وينزعج ويفزع من الذباب والبعوض والصرصور والفأر، بينما كان الأمر في السابق القمل والذباب والبعوض غير محبوب ولكنه جزء من الحياة، ولا يحدث ضيقاً أو فزعاً أو خجلاً كبيراً لكنه كان يفزع من الحية والعقرب والذئب.

• لم تعد الحيوانات الأليفة (البقر والغنم) موجودة في المنازل، ولا حتى في الشوارع بل هي الآن ممنوعة رسمياً.

لعل النقاط السابقة تختصر ما يمكن أن تحويه أية خاتمة، رغم الإقرار بأنه من السهل على كثير من القراء أن يضيف الكثير إلى هذه القائمة.

لقد كان من أهم أهداف هذا الكتاب تبيان الدور الأساسي الحاسم للعامل الاقتصادي في صياغة وتوجيه الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات البشرية.

إن جميع النقاط التي تم سردها في الصفحات السابقة، ونقاط أخرى كثيرة مشابهة يمكن إضافتها، كلها كانت بهدف إلقاء الضوء على تطورات وتحولات سياسية واجتماعية وثقافية واسعة جداً وعميقة جداً. هذه التطورات كان محركها الأساس هو التطورات الاقتصادية الإيجابية التي تم شرح كيف ظهرت (بدءاً بقيام المملكة وظهور النفط)، وكيف تطورت، والتي كان من نتائجها المنطقية هذه التحولات الاجتماعية والثقافية الهائلة في حياة سكان حواضر وسط جزيرة العرب والتي تعتبر نقلة هائلة من حال ما قبل النفط إلى وقتنا الحاضر، مع ملاحظة أن ظهور النفط وتوقيته كان نتيجة للتطورات السياسية الهائلة التي نتجت عن قيام المملكة العربية السعودية. فالنفط كان قابعاً تحت الأرض وكان متأهباً للظهور ولكنه كان ينتظر اللحظة التاريخية التي تمثلت بقيام سلطة مركزية تملك رؤية سياسية ثاقبة وعزيمة قوية وإصرار منقطع النظير لبناء هذا الكيان الفريد في تاريخ وسط جزيرة العرب.

إن الأمل أن يسهم هذا الكتاب في تعزيز الرؤية الموضوعية لكافة الأمور والتطورات والأحداث والتحولات في العادات، والتقاليد، والأعراف، والقوانين، والمواقف، وأساليب المعيشة، وطرق التفكير، والنظرة إلى العالم. وأن هذه التحولات

والتطورات لا تحدث عشوائياً أو مصادفة، ولكنها تحدث لأسباب موضوعية لصيقة بحياة الناس في معيشتهم اليومية (الحياة الاقتصادية).

أما الحنين إلى الماضي فهي مشاعر عاطفية يمكن تفهمها، ولكن ليس إلى درجة تمني رجوع التاريخ إلى الوراء. هذا الحنين يجب أن لا يحجب عنا الرؤية السليمة التي ترى الماضي بأنه كان واقعاً فقيراً بائساً يسوده المرض والتخلف والعجز والجهل الذي يعمي البصر (والبصائر) أحياناً، ويجعلها تعادي وتقاوم وتفزع من كل جديد (الكبك، حلاقة الراس والوجه، اللاسلكي، الراديو، البيبسي كولا، التلفزيون، تعليم البنات، التصوير الفوتوغرافي، لبس البنطال، قص الشعر للنساء، السينما، الجوال، كاميرا الجوال، الانترنت ... الخ) (ذاك ماضٍ الله لا يعيده)، فهو لم يكن عصراً ذهبياً بل كان الذهب فيه موهوماً موهوماً.

المراجع

- إبراهيم بن صالح بن عيسى، "تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد (من ٧٠٠ – ١٣٤٠هـ)"، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٦٦م.
- إبراهيم كبه، "دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي"، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠م.
- أحمد الخشاب، "التفكير الاجتماعي"، دار النهضة العربية، مصر، ١٩٨١م.
- أرنولد توينبي، "تاريخ البشرية"، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
- اسحق يعقوب القطب، "خصائص النمو الحضري في دول الخليج العربي"، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٥م.
- برهان الدين دلو، "جزيرة العرب قبل الإسلام: التاريخ الاقتصادي، الاجتماعي، الثقافي، السياسي"، الفارابي، ١٩٨٩م.
- بلدية البكيرية، "البكيرية المدينة الصحية"، ١٤٢٠هـ.
- ثريا التركي، "مجتمع نجد ما قبل النفط"، المستقبل العربي، العدد (٤)، بيروت، ١٩٩٢م.

- ج. جوبير، "مدينة ما قبل الصناعة"، ترجمة ابو بكر أحمد باقادر، مكتبة الجد، جدة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- جفري بارندر، "المعتقدات الدينية لدى الشعوب"، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، العدد (١٧٣)، الكويت، ١٩٩٣م.
- جينيفر سكيرس، "الثقافة الحضرية في مدن الشرق"، ترجمة ليلى الموسوي، عالم المعرفة، العدد (٣٠٨)، الكويت، ٢٠٠٤م.
- حمد الجاسر، "بلدان نجد أول هذا القرن [الرابع عشر الهجري]"، مجلة العرب، الرياض ١٣٩٥هـ.
- روبرت ليبي، "المملكة من الداخل: تاريخ السعودية الحديث"، ترجمة خالد عبد الرحمن العوض، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، ٢٠١١م.
- صالح بن علي الهذلول، "المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية"، دار السهن، الرياض، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- صالح عبد العزيز الخضيري، "البكيرية: تاريخها، جغرافيتها"، الدار الصولتية للنشر والتوزيع، الرياض. جدة، ٢٠٠٥م.
- صلاح عبد المتعال، "التغير الاجتماعي والجريمة في المجتمعات العربية"، دار غريب للطباعة، القاهرة، ١٩٨٠م.
- عادل إبراهيم يعقوب، "التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط"، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م.
- عبد الرحمن السويداء، "نجد بالأمس القريب"، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م.
- عبد العزيز الخويطر، "إطلالة على التراث"، الرياض، ١٩٩٤م.
- عبد العزيز الدوري، "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي"، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

- عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، "حاطب ليل ضجر"، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٨٧م.
- عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، "نجديون وراء الحدود: العقيلات"، دار الساقي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠١٤م.
- عبد الفتاح حسن ابو علية، "الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز"، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٧٦م.
- عبد الفتاح حسن ابو علية، "دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث المعاصر"، دار المريخ، الرياض، ١٩٧٦م.
- عبد القادر يوسف الجبوري، "التاريخ الاقتصادي"، جامعة الموصل، العراق، ١٩٧٩م.
- عبد الله عبد الغني غانم، "النظرية في علم الإنسان الاقتصادي"، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٩٨٤م.
- علي بن سليمان المقوشي، "سلسلة هذه بلادنا .. البكيرية"، إصدارات الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- كولونيل هـ. ر. ب. دكسوف، "عرب الصحراء"، تعريب محمد حسن التيتي، الناشر سعود بن غانم الحراتي العجمي، الكويت، ١٩٩٧م.
- ماريالويزا برنيري، "المدينة الفاضلة عبر التاريخ"، ترجمة عطيات أبو السعود، عالم المعرفة، العدد (٢٢٥)، الكويت، ١٩٩٧م.
- متروك بن هايس الفالح، "سكاكا الجوف في نهاية القرن العشرين"، ميسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.
- محمد بن ناصر العبودي، "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: بلاد القصيم"، القسم الثاني، الطبعة الأولى، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- محمد بن يوسف بن دخيل الله، "الوثيقة وما أهمله التاريخ لمدينة البكيرية"، غير منشور، ١٤١٩هـ.
- محمد توفيق السهلي وحسن الباش، "المعتقدات الشعبية في التراث العربي"، دار الجيل، بدون تاريخ.
- محمد عبد الله السلمان، "الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدول السعودية الثانية"، المطابع الوطنية، الرياض، ١٩٨٨م.
- محمود شكري الألوسي، "تاريخ نجد"، مصر، المطبعة السلفية، ١٩٤٧م.
- مذكرات ستانلي ج. ماليري، "الكويت قبل النفط"، ترجمة محمد الرميحي، دار مدارك للنشر، دبي، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢م.
- بدرية البشر "نجد قبل النفط"، دار جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ٢٠١٣م.
- Paul Harrison, Inside The Third World, Second Edition, Penguin Books. 1981.
- Saleh AL-Hathloul, Urbon Development in Saudi Arabia, Dar AlSahan, Riyadh, Saudi Arabia, 1995.
- Schumpeter, Joseph, A History of Economic Analysis, New York, Oxford University Press, Inc. 1981.